ترجمان الأوجاع

قصص قصيرة من البنغال وبوسطن وغيرهما

جهومبا لاهيري

ترجمة. فرج الترهوني

مجلس الثقافة العام

ترجمان الأوجاع

إصدارات

مجلس الثقافة العام

تَـرجـمـان الأوجــاع

قصص قصيرة من البنغال وبوسطن وغيرهما

جهومبا لاهيـري

ترجمة : فرج الترهوني

الناشر

مجلس الثقافة العام

اسم الكتاب	ترجمان الأوجاع
ترجمة	فرج الترهوني
سنة النشر	2008 م
رقم الإيداع	794 / 2008 م
الترقيم الدولي	978 - 9959 - 38 - 717 - 2

تصميم الغلاف	علي العباني
لوحة الغلاف	محمد زعطوط
التنفيذ الفني	دار قباء الحديثة - القاهرة

الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى

إصدارات

مجلس الثقافة العام

المقر الرئيس - مجمع المؤتمرات - سرت

هاتف 002185468622 - بريد مصور 002185473161

فرع طرابلس - عمارة الواحات - شارع عمر المختار

هاتف 00218214449894 - بريد مصور 00218213335388

ص ب 2764 طرابلس

فرع بنغازي - الفويهات الغربية - الطريق الدائري الثاني

هاتف 00218612241577 - 00218612241578

بريد مصور 00218612241576 - ص ب 9351 بنغازي

بريد إلكتروني - LCC2_2005@Yahoo.ca

مدخل

تعبّر قصص جهومبا لاهيري الممتازة تسليطا للضوء على حياة الهنود في المهجر، وعلى أشخاص يراوحون بين التقاليد الصارمة الموروثة والعالم الجديد المحيّر الذي تجب مواجهته في كل يوم. فهناك مثلا مترجم يرشدُ عائلة أمريكية في الهند التي كانت موطنا لأسلافهم، ويستمع خلال ذلك إلى بوْح مُحيّر حين ترتبط الزوجة الشابة بعلاقة غرامية مع رجل بنغالي متزوج؛ وكيف ترغب السيدة سِن العصبية والغريبة الأطوار في تعلم قيادة السيارة في حال أرادت الاحتفاظ بعملها كجليسة للصبي إليوت البالغ من العمر أحد عشر عاما؛ وكيف يتبادل زوجان شابان الاعترافات في كل ليلة أثناء معاناتهما للتغلب على فقد طفلهما وعلى زواجهما الذي أخذ يتفكك؛ ثم هناك السيد بيرزادا، الذي كانت ساعته مضبوطة باستمرار على توقيت دكا، والمنشغل دائما بوضع عائلته في الباكستان.

وسواء حدثت في بوسطن أو في البنغال، فإن هذه القصص الرائعة المُعبر عنها بحرص شديد لزيادة تأثيرها الفعلي وإظهار ما تحويه من مفارقة، مقرونة بروح الدعابة والتفاصيل البارعة، تتحدث

بفصاحة لأي شخص أحس مطلقا بما يفرضه المهجر من حالات التوق والحنين، أو ما ينتاب الغرباء من اضطراب عاطفي.

ولدت جهومبا لاهيري في لندن لأبوين بنغاليين، وترعرعت في رود أيلاند، في الولايات المتحدة. ظهرت قصصها التي نالت الجوائز على صفحات العديد من الدوريات الأمريكية، بما فيها صحيفة نيو يوركر. وترجمان الأوجاع هو أولى مجموعاتها المنشورة. وقد نالت عنها جائزة بولتزر الشهيرة للأدب في العام 2000.

مسألة مؤقتة

أخبرهم الإعلان أن المسألة ستكون مؤقتة: سيُقطعُ التيار الكهربي عنهم لمدة خمسة أيام، ولفترة ساعة يوميا تبدأ من الثامنة مساءً، لأن عطلا قد حدث في أحد خطوط الكهرباء أثناء العاصفة الأخيرة، وسيستغل عمال الصيانة فرصة هدوء الجوّ في المساء لإعادة تشغيل الخطّ. هذا العمل سيؤثر فقط على مجموعة البيوت في الشارع الهادئ الذي تحفه الأشجار، ويقع على مسافة قصيرة من صف متاجر بواجهات من الطوب الأحمر، ومحطة حافلات الترولّلي، وهو عين المكان الذي سكنه كل من تشوبا وشوكومار طوال سنوات ثلاث.

" لطيف منهم أن ينبهوننا،" علقت تشوبا بعد قراءة الإعلان بصوت عال لنفسها أكثر منه لشوكومار. جعلت سير حقيبتها الجلدية الممتلئة بالملفات ينزلق عن كتفيها، ثمّ تركتها في الصالة عند توجهها إلى المطبخ. كانت مرتدية معطفا أزرق بحريا من البوبلين، فوق سروال رياضي أشهب اللون، وحذاء رياضة أبيض، وتبدو في سن الثالثة والثلاثين مماثلة لذلك النوع من النساء الذي ادّعت ذات مرة أنها لن تكون مثله أبدا.

كانـت عائـدة مـن صـالة الرياضـة، ولا يظهـر أحمـر شـفاهها التوتـي إلا على الحواشي الخارجية من فمهـا. أما كحلها فقد ترك لطعـا سـوداء تحـت أهـدابها السفلية. خطـر ببالهِ أنهـا قـد بـدت لـه أحيانا بهذا المظهر من قبل؛ في الأصباح التـي تلي حفلة مـا، أو بعد قضاء ليلة في الحانة؛ ذلك حين تكون غاية في الكسل لتغسل حتى وجهها، وتكون غاية في اللهفة للارتماء بين أحضانه. رمت بحزمة من الرسائل فوق الطاولة دون أن تنظر إليها لأن عينيها مازالتا مثبتتان على الإعلان الذي تمسكه بيدها الأخرى."لكن كان يجب أن يقوموا بمثل هذا العمل خلال ساعات النهار."

" تقصدين عندما أتواجد هنا." قال وهو يضع غطاءً زجاجيا فوق قدر من لحم الخروف، مرتبا وضعه بحيث لا ينفذ منه إلا أقل كمية منً البخار. منذ يناير وهو يعمل في البيت محاولا إتمام الفصول الأخيرة من رسالة دكتوراه حول ثورات عمال الزراعة في الهند، "ومتى ستبدأ هذه الإصلاحات؟"

" يقول الإعلان في التاسع عشر من مارس، هل هو اليوم؟" توجهت تشويا نحو لوحة الإعلان المؤطرة على الجدار بجانب البرّاد. كانت اللوحة عارية إلا من تقويم صادر عن وليم موريس لصناعة ورق الجدران. نظرت إليها للمرة الأولى متأملة بكل دقة الرسم المطبوع على ورق الجدران في أعلى التقويم، قبل أن تسمح لعينيها أن تسقطا

على المربعات المرقمة في الجزء التحتي. كان صديقٌ قد أرسل لهما التقويم بالبريد كهدية في عيد الميلاد بالرغم من أن تشوبا وشوكومار لم يحتفلا بالكريسماس في تلك السنة. أعلنت تشوبا، "إنه اليوم إذاً، وبالمناسبة لديك موعد مع طبيب الأسنان يوم الجمعة القادم."

مرر لسانه فوق حافة أسنانه؛ فقد نسي تنظيفها هذا الصباح، ولم تكن تلك المرة الأولى. لم يغادر البيت طوال هذا اليوم، ولا في اليوم الذي سبقه. لقد اكتشف أنه كلما ظلت تشوبا في الخارج وعملت ساعات وقامت بمشاريع إضافية، كلما رغب في البقاء بالبيت، فلا يخرج حتى لتسلم البريد، أو لشراء الفواكه واللحوم من المتاجر عند موقف حافلات الترولّي.

في سبتمبر، منذ ستة أشهر، كان شوكومار يحضر مؤتمرا أكاديميا في بالتيمور، عندما جاء تشوبا المخاض قبل موعدها بثلاثة أسابيع. في البداية لم يودّ الذهاب لكنها أصرت على حضوره المؤتمر، فمن المهم أن يكوّن معارف لأنه سيدخل سوق العمل في السنة القادمة. أخبرته بأن لديها رقم هاتفه ونسخة من جدول ارتباطاته وأرقام رحلات طيرانه، كما أنها رتبت مع صديقتها جيليان لتوصيلها إلى المستشفى في حال حدوث طارئ. عندما انطلقت سيارة الأجرة في ذلك الصباح نحو المطار، وقفت تشوبا مرتدية روبها لتلوّح له مودعة وقد وضعت إحدى ذراعيها فوق بروز بطنها، كأنه الجزء الأكثر طبيعية من جسمها.

كانت تلك اللحظة تخطر بباله في كل مرة. وفي آخر مرة رأى فيها تشوبا حبلى كانت سيارة الأجرة هي أكثر شيء يتذكره، عربة نصف نقل حمراء مقفلة عليها كتابة باللون الأزرق؛ وتبدو مثل مقطورة إذا ما قورنت بسيارتهما. بالرغم من طوله الذي يبلغ ستة أقدام، ومن حجم يديه بحيث يتعذر مطلقا إدخالهما في جيوب سرواله الجينز، إلا أنه أحس بمدى ضآلته عند جلوسه في المقعد الخلفي. وبينما كانت السيارة تنهب الطريق عبر شارع بيكون، تخيّل يوما قد يضطران فيه إلى شراء سيارة واسعة ليقلا أطفالهما من وإلى دروس الموسيقى ومواعيد أطباء الأسنان، وتخيل نفسه ممسكا بالمقود، بينما تشوبا تلتفت خلفها لتقدم للأولاد علب العصير. في زمن خلى، كانت مشاهد الأبوة هذه تزعجه وتزيد من اضطرابه لأنه ما يزال طالبا في سن الخامسة والثلاثين، لكن في ساعة مبكرة من ذلك الصباح الخريفي حيث الأشجار ما تزال مثقلة بالأوراق البرونزية، فقد وجد نفسه يرحب بهذه الصورة للمرة الأولى.

بطريقة ما عثر عليه أحد العاملين في إحدى غرف الفندق المتشابهة وسلّمه قصاصة من الورق. لم يوجد عليها سوى رقم هاتف ومع ذلك عرف شوكومار أنها من المستشفى. لكن عند عودته إلى بوسطن كان كل شيء قد انتهى. فالطفل وُلد ميتا، وتشوبا تستلقي على سريرها نائمة في غرفة بالغة الصغر إلى الحد الذي بالكاد يوجد

حيّز للوقوف بجوارها، وتقع الغرفة في جناح من المستشفى لم يشاهدانه من قبل خلال الزيارات التي يقوم بها الأبوان اللذان يتوقعان ولادة طفل لهما. وُجد أن مشيمتها تعرضت لحالة ضعف وتوجّب أن تجرى لها عملية قيصرية على الفور، لكن ذلك لم يجر بالسرعة الكافية. شرح له الطبيب أن هذه الأمور تحصل في العادة، وأطلق ابتسامة بألطف ما يمكن للمرء القيام به عند الابتسام لأشخاص لا تعرفهم إلا بشكل رسمي. قال له إن تشويا ستقف على قدميها خلال عدة أسابيع، ولا يوجد ما يشير إلى عدم مقدرتها على الإنجاب مستقبلا.

في هذه الأيام غالبا ما تكون تشويا قد غادرت البيت عندما يفيق من نومه. يفتح عينيه فيرى بعض الشعرات السوداء الطويلة التي خلفتها فوق الوسادة، فيتصورها متواجدة الآن في مكتبها وسط المدينة، بكامل أناقتها، وقد وصلت إلى رشف قهوتها الثالثة، وهي تعمل على اكتشاف الأخطاء المطبعية في الكتب المدرسية لتضع علامة عليها بطريقة شرحتها له من قبل مستعينة بأقلام ملونة، قاطعة له العهد بأنها ستفعل الشيء نفسه لرسالته عندما ينتهي من إعدادها. كان يحسدها على دقة العمل الذي تقوم به، لأنه لا يشبه في شيء الطبيعة المبهمة لما هو بصدده... فهو طالبٌ عادي، لديه إمكانية استيعاب التفاصيل دون أن تثير فيه فضولا. حتى شهر سبتمبر، كان

شوكومار شخصا مثابرا وإن لم يكن متفانيا. يلخصُ فصول الكتب، ويبينُ وجهة نظره ويكتبها في رزم من الأوراق الصفراء المخططة. لكنه الآن يستلقي في سريرهما حتى يتملكه السأم، يحملق في الخزانة التي في جانبه من السرير والتي غالبا ما تتركها مُشرعة قليلا. يمعن النظر في صف من جاكتات التويدي وسراويل الكوردوروي التي لن يضطر للاختيار من بينها لإعطاء دروسه في هذا الفصل الدراسي. بعد أن توفي الطفل وجد أن الوقت متأخر للانسحاب من مهامه التعليمية، لكن مرشده التعليمي رتب له الأمور لكي يتفرغ في فصل الربيع، قائلا له: "سيعطيك فصل الربيع بالإضافة إلى الصيف دفعة قوية؛ ويفترض أن تنتهي من الأمر برمته مع حلول سبتمبر القادم."

لكن لا شيء بمقدوره تحريض شوكومار. بدلا من ذلك فكر كيف أصبح مع تشوبا خبيرين في تفادي بعضهما داخل بيتهما بغرفه الثلاث، فهما يقضيان أطول فترة ممكنة في طابق منفصل. فكر كيف أنه ما عاد يشتاق إلى عطل نهايات الأسابيع، فهي تجلس لساعات على الأريكة مع ملفاتها وأقلامها الملونة، وحتى أنه خشي من أن الاستماع إلى أية اسطوانة غنائية في بيته قد يعد أمرا ينقصه التهذيب. فكر في كم انقضى من زمن منذ أن نظرت في عينيه وابتسمت، أو همست باسمه في تلك المناسبات النادرة حين يتلهفان للقاء جسدي قبل النوم.

اعتقد في البداية أن هذا الأمر سيذهب من تلقاء نفسه، وأنهما سيجتازان هذه الفترة بشكل ما. فهي ليست إلا في الثالثة والثلاثين من عمرها، وقد عادت لتقف قوية على قدميها من جديد. لكن ذلك لم يكن عزاءً له. غالبا ما يتمكن من إجبار نفسه على مغادرة الفراش في وقت الغداء، فيهبط إلى الطابق الأرضي متجها إلى سخان القهوة ليصب القليل مما تركته له تشوبا فوق النضد مع فنجان كبير فارغ.

جمّع شوكومار قشور البصل في يديه وتركها تسقط في سلة القمامة فوق شرائح الشحم التي سلخها من لحم الخروف. فتح صنبور المياه في الحوض فغسل السكين، ولوحة التقطيع، وفرك رؤوس أصابعه بنصف ليمونة ليتخلص من رائحة الثوم، وهي حيلة تعلمها من تشوبا. أشارت الساعة إلى السابعة والنصف، وتطلع من خلال النافذة فرأى السماء مثل منحدر أسود ناعم. كانت ضفاف غير متناسقة من الثلوج ما تزال تحد الممرات الجانبية رغم أن الجوّ كان من الدفء مما حدا ببعض الناس أن يسيروا من دون القبعات والقفازات. خلال العاصفة الأخيرة سقط ما يقدّر بثلاثة أقدام من الثلوج خلال أسبوع مما أجبر الناس على السير في طابور واحد فوق ممرات ضيقة. ولمدة أسبوع كان هذا الأمر هو مبرره لعدم مغادرة البيت. لكن الممرات بدأت في الاتساع الآن، وأخذ الماء يسيل تدريجيا نحو حفر تفتيش في الرصيف.

"لن يستوي لحم الخروف قبل الثامنة، وقد نضطر لتناول طعامنا في الظلام." قال شوكومار.

" يمكننا إشعال شموع،" اقترحت تشوبا التي أطلقت شعرها الملفوف بعناية عند مؤخر عنقها خلال النهارات، وخلعت نعليها بدون فك أربطتهما. "سآخذ دوشا قبل غياب الأنوار." قالت وهي تتجه نحو الدرج. "سأنزل حالا." نقل شوكومار حقيبتها وحذاءها بالقرب من الثلاجة. لم تكن على هذا المنوال من قبل، فقد اعتادت وضع معطفها على المشجب، ونعليها في الصندوق، وكانت تدفع الفواتير بمجرد استلامها. لكنها الآن تتعامل مع البيت وكأنه فندق. لم تعد تزعجها حقيقة أن أريكة غرفة المعيشة بقماشها القطني الأصفر، تتعارض مع وجود السجادة التركية بلونيها الأزرق والأحمر الداكن. وفي الشرفة الملحقة خلف البيت ما تزال تتواجد حقيبة صغيرة بيضاء فوق صندوق صغير مجرور من السعف، وممتلئ بالقماش التي كانت تخطط لتحويله إلى ستائر.

أثناء استحمامها، دخل شوكومار إلى الحمام الأرضي ووجد فرشاة أسنان جديدة في صندوقها تحت الحوض. تأذت لثته إثر دعكها بأسنان الفرشاة رخيصة الثمن، فبصق بعض الدم في الحوض. لقد كانت الفرشاة الاحتياطية هذه واحدة من كُثر مخزنة في سلة معدنية، ابتاعتها تشوبا ذات مرة عبر

أوكازيون بيع رخيص، في حال ما إذا قرر أحد زوارهم في اللحظة الأخيرة أن يقضي الليلة في بيتهم.

كان ذلك تصرفا يليق بتشوبا، لأنها من النوع الذي يستعد للمفاجئات، بحلوها ومرها. فإن وجدت تنورة أو حقيبة يد أعجبتها، تقوم بشراء اثنتين منها. وكانت تحتفظ بالمكافئات التي تحصل عليها من وظيفتها في حساب مصرفي منفصل. ولم يزعجه ذلك أبدا. لقد انهارت حياة أمّه عند وفاة والده، فتركت البيت الذي ترعرع فيه وانتقلت إلى كلكوتا تاركة شوكومار لترتيب كل الأمور. أما هو فأحب الاختلاف الذي وجده لدى تشوبا. وأدهشته مقدرتها على التفكير مسبقا في الأمور. عندما تقوم بشراء الأغراض للبيت، تصير خزانة المطبخ مرصوصة دائما بزجاجات إضافية من زيت الزيتون وزيت الذرة، حسب ما كانا يعدانه من طعام هندي أو إيطالي. كما تواجدت دائما أكياس لا حصر لها من المكرونة بمختلف الأشكال والألوان، وهناك أكياس لا تحصى من الأرز البسمتي، وأجزاء كاملة من لحم الخراف والماعز مشتراة من القصابين المسلمين في السوق العام، مقطعة وموزعة في حقائب بلاستيكية كثيرة. كانا يزوران السوق كل ثاني يوم سبت، ويتجولان بين صالات البيع التي أصبح يعرفها الآن عن ظهر قلب. يظل يرقبها غير مصدق وهي تبتاع المزيد من الأطعمة، ويقتفي أثرها حاملا الأكياس وهي تشق طريقها خلال

جمهرة الناس، مجادلة تحت شمس الصباح مع فتية من الصغر بحيث لم يحلقوا ذقونهم بعد، لكنهم فقدوا بعضا من أسنانهم. كانوا يلفون أكياس الورق البنية بما فيها من الأرض شوكي، والخوخ، وجذور الزنجبيل، والبطاطا الحلوة، ويسقطونها على موازينهم ثم يقذفونها نحو تشوبا واحدا تلو الآخر. لم تكن تأبه للاصطدام بالناس حتى وهي حامل بجنينها، فقد كانت طويلة القامة، عريضة المنكبين؛ بحوض أكد لها طبيبها المولّد بأنه مجهز خصيصا للحمل. وأثناء عودتها بالسيارة على طول طريق تشارلس إلى البيت، يبديان تعجبهما من كمية الطعام التي ابتلعاها.

لم يذهب أي شيء سدى. فعندما يأتي الأصدقاء تقدم تشوبا أطباقا يبدو أنها أخذت منها نصف النهار لإعدادها، وكانت تعدها من أشياء زجّجتها أو جمدتها من قبل، وليست من الأصناف المعلبة الرخيصة... مثل فلفل تبلته بنفسها مستخدمة الإكليل وصلصة الثمار، والتوابل التي تعدها في أيام الآحاد، فتقوم بخلط وتحريك طناجر تغلي من الطماطم والخوخ. كانت أرفف المطبخ مرصوصة بعدد لا يحصى من أهرامات الجرار والمرطبانات المُعلّمة والمغلقة بإحكام؛ وقد اتفقا أن الكمية كانت كافية ليتذوقها أحفادهما. لكنهما استهلكاها كلها الآن. فشوكومار كان يستعمل المخزون بشكل ثابت أثناء إعداده الطعام لكليهما، فيغرف من حقائب الأرز ويذيب

اللحوم المجمدة يوما بعد يوم. في كل عشية كان يطلع على كتب الطبخ الخاص بها، ويتبع تعليماتها المكتوبة بوضع ملعقتي شاي من بذور الكزبرة المفرومة بدلا من واحدة، أو العدس الأحمر بدلا من الأصفر. كانت كل وصفة مؤرخة، ومبينا أول تاريخ تناولاها فيه سوية: في 2 أبريل القرنبيط مع الشمار، وفي 14 يناير دجاج مع المكسرات والزبيب. إنه لا يتذكر تناول هذه الوجبات، ومع ذلك فهي مدوّنة هناك بخط يدها الدقيق التي تستخدمه في المراجعة والتدقيق. أما هو فيستمتع بالطبخ الآن لأنه الشيء الوحيد الذي أشعره بأنه منتج. ويعرف أنه لولا ما كان يعدّه من طعام لتناولت تشوبا طبقا من حبوب الحنطة للعشاء في كل يوم.

الليلة، وبدون الأنوار، سيتوجب عليهما الأكل سوية. فلعدّة شهور خلت كانا يتناولان طعامهما مباشرة من قدر الطبخ فوق غاز الطبخ، فيحمل هو طبقه إلى غرفة المطالعة، ويتركه ليبرد على مكتبه قبل أن يزدرده بدون توقف، بينما تحمل تشوبا طبقها إلى غرفة المعيشة فتشاهد برامج الألعاب في التلفزيون، أو تقوم بمراجعة وتصحيح الملفات مستخدمة ترسانتها من الأقلام الملونة.

في وقت ما من المساء كانت تزوره. وعندما يسمع اقتراب خطواتها يرمي الرواية من يده، ويبدأ بطباعة بعض الجمل. فكانت تلقي بذراعيها فوق كتفيه وتبحلق معه في الوهج الأزرق لشاشة

الكمبيوتر. "لا تجهد نفسك في التحضير" تقول له بعد دقيقة أو اثنتين، ثم تتوجه إلى الفراش. تلك هي المرة الوحيدة خلال اليوم التي تهتم فيها به، ومع ذلك فهو يخشى تلك اللحظة. كان يعرف أنها تكره نفسها على القيام بذلك. تنظر حواليها نحو جدران الغرفة التي زيناها خلال الصيف الماضي بحاشية من البطات السائرة والأرانب التي تعزف المزامير وتدق الطبول. ومع نهاية أغسطس جلبا سريرا صغيرا ووضعاه تحت النافذة، وطاولة بيضاء تستخدم للغيار لها مقابضٌ خضر صغيرة، وكرسي هزاز بمخدات من قماش المربعات. قبل أن يُحضر تشوبا من المستشفى أزال كل تلك الأشياء، واستخدم مكشطة لتنظيف الجدران من الأرانب والبط. ولسبب ما لم تنتبه حيال الغرفة هواجس مثل التي انتابت تشوبا. وعندما توقف عن العمل في المكتبة العامة، وضع مكتبه في هذه الغرفة عن قصد، من ناحية لأنها تريح أعصابه، ومن أخرى لأن تشوبا كانت تتجنبها.

عاد شوكومار إلى المطبخ وشرع في فتح بعض الأدراج. حاول العثور على شمعة بين المقصات، وضرابات البيض، والخفاقات، ومسحان كانت قد ابتاعته من أحد الأسواق في كلكوتا، تطحن فيه فصوص الثوم والهيل في ذلك الوقت عندما كانت تقوم بالطهي. وجد كشافا يدويا، ولكن بدون بطاريات، وصندوقا نصف ممتلئ من شموع عيد الميلاد. كانت تشوبا قد أقامت له حفلة عيد ميلاد مفاجئة في

مايو الفائت. فتكدس داخل البيت مائة وعشرون ضيفا - جميعهم من الأصدقاء، وأصدقاء الأصدقاء الذين يتجنبانهم الآن بشكل مقصود. ورُصت زجاجات النبيذ على طبقة من الثلج في حوض الحمام. كانت تشوبا في شهرها الخامس من الحمل، وتحتسي بيرة الزنجبيل في كأس مخصص لشراب المارتيني. وأعدت من أجل الحفل كيكة من كريم الفانيلا مع الكستردة والسكر المهروس، وقد احتفظت بأصابعها مشتبكة مع أصابع شوكومار الطويلة طوال الليل وهما يتنقلان بين ضيوف الحفل.

ضيفهما الوحيد منذ سبتمبر هي أمها، التي أتت من أيرزونا ومكثت معهما شهرين بعد مغادرة تشوبا للمستشفى؛ تعدُّ العشاء في كل ليلة، وتقود السيارة بنفسها إلى السوق، تغسل ملابسها، وتدسها في الخزانة. كانت امرأة متدينة، حيث جهزت مذبحا صغيرا على الطاولة المجاورة لسريرها في غرفة الضيوف يحوي صورة مؤطرة لإله بوجه أرجواني شاحب، وطبقا به تويجات نبات القطيفة. وهي تصلي مرتين في اليوم لكي ترزق في المستقبل بأحفاد أصحاء. كانت مؤدبة في تعاملها مع شوكومار دون أن تبدي تجاهه وداً. فهي تطوي كنزاته بخبرة تعلمتها من عملها في سوق كبير، وتستبدل زرارا مفقودا من معطفه الشتوي، وتطرز له شالا من اللونين البيج والبني، تقدمه له بدون أية طقوس مصاحبة، وكأنه سقط منها ولم تلحظ ذلك. لم

تتحدث معه عن تشوبا أبدا؛ لكن ذات مرة، عندما جاء على ذكر موت الطفل، رفعت عينيها عن شغل إبرتها، وقالت : "لكنك حتى لم تتواجد معها هناك."

رأى بأن عدم وجود شموع حقيقية في البيت أمر غريب، وأن تشوبا لم تستعد لمثل هذا الطارئ المعتاد. فنظر باحثا عن مكان يثبت فوقه شموع الميلاد، واستقر رأيه أن يضعها فوق تربة نبتة اللبلاب التي عادة ما تواجد أصيصها على حافة النافذة فوق حوض الغسيل. رغم وجود النبتة على بعد سنتيمترات من صنبور المياه، إلا أن تربتها كانت من شدة الجفاف بحيث اضطر لترطيبها قبل أن يتمكن من تثبيت الشموع فيها. دفع الأشياء الموجودة على طاولة المطبخ جانبا، أكداس الرسائل، وكتب المكتبة التي لم تقرأ. تذكر أولى وجباتهما هنا عندما كانا مبتهجين لأنهما متزوجان لبعضهما، ولأنها يعيشان معا أخيرا في البيت نفسه، فهما في توق دائم للاشتباك الحميم بطريقة مضحكة، يتوقان لممارسة الحب أكثر من تناول الطعام. قام بوضع مساند أطباق مطرزة، قدمت لهما هدية زواج من عم له في لكناو، ثم رتب وضع الصحون وأكواب النبيذ التي عادة ما يحتفظان بها للضيوف. وضع نبتة اللبلاب في المنتصف، بينما كان لهب عشرة شموع يسفع الوريقات التي بشكل النجوم ذات الحواشي البيضاء، ثم أدار راديو الساعة الرقمية على محطة موسيقى الجاز.

" ما كل هذا ؟" قالت تشويا عند هبوطها الدرج. كان شعرها ملفوفا في منشفة بيضاء سميكة، ثم حلت المنشفة وأسدلتها فوق كرسي، تاركة شعرها الفاحم المبلل يسقط فوق ظهرها. وبينما هي تسير بدون تركيز نحو موقد الغاز فكت بعض لبادات شعرها بأصابعها. كانت ترتدي سروال تمرينات نظيفا، وخصرها يبدو نحيلا قبل الاتساع عند ردفيها، بينما حزام ردائها المنزلي معقود بربطة عشوائية.

" أعْددتَ روجان جوش،" لاحظت تشويا وهي تنظر خلال الغطاء الزجاجي في خليط طبيخ الفلفل الحلو البراق.

التقط شوكومار قطعة من لحم الخروف، وضغطها بسرعة بين أصابعه كي لا يحترق. ثم نخس قطعة كبيرة بملعقة توزيع الطعام للتأكيد بأن اللحم ينزلق بسهولة عن العظم، معلنا " لقد استوى."

بالكاد أعلن فرن الميكروويف عن انتهاء المهمة، قبل أن تغيب الأنوار، وتختفي الموسيقى.

" توقيت مثالي." قالت له.

" لم أعثر إلا على شموع ميلاد،" ثم أنار شمعدان اللبلاب محتفظا ببقية الشموع وعلبة الكبريت بالقرب من طبقه.

" لا عليك، " قالت وهي تمرر إصبعا فوق حاشية كوب النبيذ "يبدو رائعا."

في تلك العتمة، كان يعرف كيف جلست. على الجزء الأمامي من كرسيها، وكعباها متصالبان عند الدعامة التحتية لأرجل الكرسي، متكئة بمرفقها الأيسر على الطاولة. أثناء بحثه عن الشموع، وجد قنينة نبيذ في صندوق ظنه خاليا، ونزع غطاء القنينة بتثبيتها بين ركبتيه أثناء تدويره لنازع السدادات. كان يخشى أن يريق النبيذ، فأمسك بالأكواب بالقرب من حضنه أثناء ملئه لهما. ثم قام كل منهما بالغرف من الطعام بنفسه، يحركان الأرز بشوكاتهما، وينظران بدقة أثناء التقاطهما لأوراق الغار وحبات القرنفل من الطبيخ. وبعد كل بضع دقائق يضيء شوكومار شموعا إضافية ويغرسها في تربة الأصيص.

" كما لو أننا في الهند،" قالت ترقبه أثناء رعايته لشمعدانه المؤقت. "فالتيار هناك ينقطعُ أحيانا لساعات متصلة، وذات مرة حضرتُ حفل تناول أرز للأطفال بأكمله في الظلام. لقد استمر الطفل في البكاء طوال الوقت، ولابد أن الأرز كان ساخنا."

خطر لشوكومار، بأن طفلهما لم يبك أبدا. ولن يحظى بحفلة أرز أبدا، بالرغم من أن تشوبا حددت قائمة الضيوف الذين سيدعونهما إلى الاحتفال، وقررت أي من إخوتها الثلاثة ستدعوه لأن يقدم لطفلها وجبته الأولى من الطعام المتماسك، في الشهر السادس إن كان صبيا، وفي السابع إن كانت بنتا.

" هل تشعرين بالسخونة ؟" سألها، ثم دفع بأصيص اللبلاب المشتعل إلى الجهة البعيدة من الطاولة بالقرب من كومة الكتب والرسائل، جاعلا من رؤية كل منهما للآخر أكثر صعوبة. وفجأة أحس بالتوتر لأنه لا يستطيع الصعود إلى الطابق العلوي، ويجلس أمام كمبيوتره.

" كلا، إنه لذيذ،" قالت وهي تنقر الشوكة فوق طبقها. "نعم فهو لذيذ."

أعاد ملئ كوبها بالنبيذ، فشكرته.

لم تكن هذه عادتها في الماضي، عليه الآن المكابدة لقول شيء يمتعها، شيء يجعلها ترفع عينها عن طبقها، أو عن ملفاتها التي تراجعها. في نهاية المطاف كف عن محاولة تسليتها، وتعلم تعوّد فترات الصمت.

" أتذكّرُ فترات انقطاع التيار في بيت جدتي، وكان على كل منا أن يقول شيئا ما." استمرت في الحديث. بالكاد يمكنه رؤية وجهها، ولكن من نبرتها يمكنه تخيلها وهي تضيّق عينيها، كأنها تحاول التركيز على هدف بعيد؛ فتلك عادة لديها.

" يقول ماذا ؟"

" لا أعرف. قصيدة قصيرة. أو دعابة. أو ربما حقيقة ما حول هذا العالم. ولسبب ما كان أقاربي يودون دائما أن أخبرهم بأسماء أصدقائي

في أمريكا. لا أعرف لماذا كانت هذه المعلومة مثيرة بالنسبة لهم. وفي المرة الأخيرة التي رأيت فيها خالتي، سألتني عن أسماء أربع فتيات ذهبن معي إلى المدرسة الابتدائية في توسكن. بالكاد أذكرهن الآن."

لم يمض شوكومار المدة نفسها الذي أمضتها تشوبا في الهند، فقد اعتاد والداه اللذان سكنا في نيوهامبشاير، أن يذهبا للهند دون اصطحابه. في المرة الأولى التي ذهب فيها كرضيع، كاد أن يموت عندما أصابته الدوزنتاريا، وصار والده الذي كان عصبي الطباع خائفا من اصطحابه هناك مرة أخرى. وهكذا كانا يتركانه مع عمّ وعمة له في الكونكورد. خلال سني مراهقته كان يفضل المشاركة في الرحلات البحرية، أو تناول البوظة على الذهاب إلى كلكوتا. فقط بعد وفاة والده خلال سنته الأخيرة في الجامعة بدأت الهند تثير اهتمامه، وقد درس تاريخها من كتب المنهج كأية مادة أخرى. أما الآن فيتمنى لو كان له قصص طفولته الخاصة به عن الهند.

" لنفعل ذلك."

" نفعل ماذا ؟"

" نخبر بعضنا أشياء في الظلام"

" مثل ماذا ؟ فأنا لا أحفظ أية نكات."

" لا. لا نريد نكاتا." وفكرت لبعض الوقت."ماذا لو نخبر بعضنا شيئا لم نقله من قبل أبدا."

تذكّر شوكومار، " كنت أقوم بهذه اللعبة في المدرسة الثانوية، عندما أكون ثملا."

" خطر ببالك لعبة الحقيقة والتحدي، ولكن هذا أمر مختلف عنها، حسنٌ، سأكون البادئة." ثم رشفت من نبيذها، "في أول مرة تواجدتُ في شقتك، قمت بالتنقيب في دفتر عناوينك لأرى إن كنت قد دونت اسمي فيه. وأعتقد أننا كنا قد تعارفنا منذ أسبوعين فقط حينذاك."

" وأين كنت أنا؟"

" ذهبت للرد على الهاتف في الغرفة الأخرى. كنت تكلم أمك، وتوقعت أن تطول المكالمة، فأردت التأكد إن كنتُ قد بدأت أشغل اهتمامك."

" وهل تأكدت من ذلك؟"

" لا. ولكني لم أيأس. والآن جاء دورك."

لم يستطع التفكير في أي شيء، لكنها كانت تنتظر أن يتفوه بشيء ما. لم يبد عليها مثل هذا الإصرار لعدة شهور، وما الذي تبقى لديه ليقوله لها؟ سرح به الفكر إلى لقائهما الأول بقاعة المحاضرات

بكامبريدج، حيث كانت مجموعة من الشعراء البنغاليين يلقون أشعارهم. ثم انتهى بهما المطاف إلى الجلوس متجاورين على مقاعد خشبية مطوية. سرعان ما أحس شوكومار بالضجر؛ حيث لم يكن باستطاعته فك طلاسم الأدب الذي يُقرأ أمامه، ولم يتمكن من الانضمام إلى بقية الحاضرين في تأوهاتهم، وهز رؤوسهم بتوقير بعد سماعهم جملا بعينها. محدّقا في الصحيفة المطوية في حجره، أخذ في مراجعة درجات حرارة المدن حول العالم. إحدى وتسعون فهرنايت في سنغافورة بالأمس، وإحدى وخمسون في ستوكهولم. وعندما أدار رأسه إلى اليسار رأى امرأة جالسة بجانبه تدوّن على الجانب الخلفي من ملف ما لائحة بالبضائع التي ستشتريها. وقد أدهشه جمالها.

" حسنٌ." قال متذكرا، " في المرة الأولى التي خرجنا فيها للعشاء معا في المطعم البرتغالي، نسيت أن أعطي النادل إكرامية، فذهبت في صباح اليوم التالي إلى المكان نفسه. عرفت اسمه، وتركت له النقود مع المدير."

" ذهبت كل المسافة إلى سمرفيل، فقط لتكرم نادلا؟"

" ركبتُ سيارة أجرة."

" لم نسيت إكرام النادل؟"

اكتمل اشتعال الشموع، لكن باستطاعته تصوّر قسمات

وجهها في الظلمة. العيون الواسعة المائلة، الشفاه المكتنزة بلونها العنابي، وأثرُ سقطة من كرسي عالٍ في عامها الثاني ما تزال تظهر مثل علامة فاصلة تحت ذقنها. لاحظ أن جمالها الذي ملك عليه كيانه بدأ في الانحسار يوما بعد يوم، وأدوات التجميل التي كانت مجرد إضافة في الماضي، صارت ضرورية الآن. ليس لتحسين صورتها، ولكن لتحديد ملامحها على نحو ما.

" مع انتهاء الوجبة تولد لدي إحساس غريب بأنني من المحتمل أن أتزوجك." قال معترفا لها ولنفسه للمرة الأولى. " لابد وأن ذلك الشعور قد أربكني."

في الليلة التالية عادت شوبا إلى البيت أبكر مما اعتادت أن تفعل. هناك لحم خروف تبقى من الليلة الفائتة، قام شوكومار بتسخينه بحيث أتما تناول عشائهما في السابعة. كان قد غادر البيت خلال النهار، ومشى على الثلوج الذائبة، فابتاع علبة من الشموع ونضائد للكشاف اليدوي من متجر عند ناصية الشارع. جهز الشموع فوق الطاولة لتنتصب من شمعدان نحاسي على شكل زهرة اللوتس. لكنهما تناولا عشاءهما تحت بهرة مصباح السقف النحاسي المعلق فوق الطاولة.

عندما انتهيا من الأكل. فوجئ عندما كوّمت طبقها فوق طبقه، ثم حملتهما إلى الحوض. وافترض أنها ستنسحب إلى غرفة المعيشة لتتمترس خلف ملفاتها.

" لا تقلقي بشأن الأطباق." قال، وهو يأخذها من يديها.

" يبدو من السخف ألا اقلق." أجابت وهي تضع نقطة من صابون سائل فوق الإسفنجة. "فالوقت يقترب من الثامنة."

تسارعت دقات قلبه. فطوال اليوم كان ينتظر انقطاع التيار. فكر في ما قالته تشوبا في الليلة الماضية حول بحثها في كتاب عناوينه. أحس بالراحة لأن يتذكرها كما كانت عليه حينذاك، وكم كانت جريئة وعصبية عندما التقيا أول مرة، كما كانت مليئة بالآمال. وقفا متجاورين عند المغسل، وانعكاس صورتيهما متداخل في زجاج النافذة. لقد أحس بالخجل عندما وقفا أمام المرآة للمرة الأولى. وليس بإمكانه تذكر آخر مرة تلتقط لهما صورة معا فقد توقفا عن المشاركة في الحفلات، ولم يعودا يذهبان إلى أي مكان سوية. ومازال الفيلم في صوّارته يحتوي مناظر لها في الفناء عندما كانت حبلى.

بعد الانتهاء من غسل الصحون، اتكئا على المصطبة ينشفان أيديهما في طرفي المنشفة. وفي الثامنة حل الظلام في البيت. أشعل شوكومار الشموع، وقد أعجبه طول لهيبها وثباته.

قالت له " لنجلس في الخارج، أعتقد أن الجو ما يزال دافئا.".

أخذ كل منهما شمعة، وجلسا على الدرج أمام البيت. بدا من الغريب أن يجلسا في الخارج، وندفٌ من الثلج ما تزال فوق الأرض.

لكن الجميع خرجوا من بيوتهم هذه الليلة. فالهواء عليل إلى حد إثارة الناس. كانت أبواب الحماية من الحشرات تفتح وتغلق، ومرت بهما مجموعة من الجيران يحملون كشافات يدوية.

" ذاهبون إلى المكتبة لتصفح بعض الكتب، فقد سمعنا أن لديهم مصدر طاقة خاص بهم." قال لهما رجل بشعر فضي يمشي صحبة زوجته وهي امرأة رفيعة ترتدي جاكيتا قصيرا، وتمسك كلبا مربوطا بحبل. إنهما آل برادفورد، وقد وضعا بطاقة تعاطف في صندوق بريدهما في سبتمبر.

" لابد، وإلا ستتصفحُ في الظلام." قال شوكومار.

ضحكت المرأة، وهي تدس ذراعها في ثنية مرفق زوجها. "ألا ترافقاننا؟"

" كلا، شكرا لكما،" نطق شوكومار وتشوبا في الوقت نفسه، وقد فوجئ هو لأن كلماتهما خرجت متطابقة.

تساءل عما ستخبره به تشوبا في الظلام وقد جالت بخاطره أسوأ الاحتمالات. أنها أقامت علاقة ما؛ وأنها لا تكن له احتراما لوصوله إلى سن الخامسة والثلاثين وما يزال طالبا؛ وأنها تلومه لبقائه في بالتيمور كما لامته أمها. لكنه يعرف أن هذا غير صحيح، فهي مخلصة له، كما هو بالنسبة لها. إنها تثق به، وهي من أصر على

ذهابه إلى بالتيمور. وماذا يعرفان عن بعضهما؟ يعرف أنها تكور أصابعها بشدة أثناء نومها، وأن جسمها ينتفض خلال أحلامها المزعجة. يعرف أنها تفضل مائية الصمغ على البطيخ الأصفر، وأن ما قامت به فور العودة من المستشفى هو التقاط أشيائهما وتكويمها في الردهة: كتبٌ من الأرفف، ونبتات في أصص على النوافذ، ومناظر فوق الجدران، وصور فوق الطاولات، وطناجر ومقالي معلقة فوق الموقد. تنحى هو عن طريقها، وهي تجوس بشكل منتظم من غرفة إلى أخرى، وعندما أشبعت ما في نفسها، وقفت هناك تحملق في الكوم الذي كونته، وشفتاها مقلوبتان في درجة من التقزز حتى أنه ظن أنها ستبصق، ثم انخرطت في البكاء.

بدأ يشعر بالبرد وهو يجلس فوق الدرج. وشعر بأنه يريدها أن تبدأ الحديث لكي يرد عليها.

" في تلك الليلة عندما أتت أمك لزيارتنا، وعندما قلت ذات ليلة بأنني مضطرة للبقاء متأخرة في العمل، خرجت مع غِليان وتناولت كأسا من المارتيني."

نظر إلي وجهها من الجانب، الأنف الدقيق، والفكين المائلين إلى القوة. في تلك الليلة تذكر أيضا بأنه تناول الطعام مع أمه؛ وكان متعبا بعد إعطاء الدروس لمجموعتين متعاقبتين، ويتمنى لو أن تشوبا موجودة معهما لتقول كلاما مناسبا، لأنه لم يقم إلا بعكس ذلك. لقد

مرت اثنتا عشرة سنة منذ وفاة أبيه، وجاءت أمه لقضاء أسبوعين معهما، ليحيوا ذكرى وفاة الأب سوية. في كل ليلة تطبخ الأم طعاما كان الأب الراحل يحبه، لكنها كانت مضطربة للغاية بحيث لم تأكل الطعام الذي أعدته، وتمتلئ عيناها بالدموع عندما تربت تشوبا على يدها. "أمر مؤثر،" أخبرته تشوبا في حينها. الآن تخيل تشوبا مع غليان في حانة لها مقاعد وثيرة مغلفة بالمخمل المخطط، وهو المكان الذي اعتادا الذهاب إليه بعد الخروج من السينما؛ تخيلها تحرص على تناول حبة زيتون إضافية، وتطلب سيغارة من غليان. تخيلها تضج بالشكوى من زيارات الأقارب، وغليان تتعاطف معها. غليان هي التي نقلت تشوبا إلى المستشفى.

" دورك الآن،" قالت، قاطعة حبل أفكاره.

في نهاية شارعهما سمع شوكومار أصوات مثقاب، وصياح عمال الكهرباء من حوله. نظر إلى الواجهات المظلمة للمباني المحيطة بالشارع وكانت الشموع تتوهج من خلال نوافذ أحدها. فبالرغم من حالة الدفء، إلا أن دخانا انبعث من مدفأة أحدها.

قال شوكومار: " لقد مارست الغش في امتحان الحضارة الشرقية في الجامعة. كان ذلك الفصل الأخير في الدراسة، وامتحاني الأخير أيضا. توفي والدي قبل ذلك بشهور، وكان بإمكاني النظر في الكتاب الأزرق للشخص الجالس بجواري، وهو أمريكي من النوع

المهووس. يعرف اللغة الأردية والسنسكريتية، ولم أتذكر إن كانت الجملة التي طُلب منا تحديدها هي مثال لغزال، أو غير ذلك. فما كان مني إلا النظر إلى إجابته ونسخها."

لقد حدث هذا الأمر منذ خمسة عشر عاما، لكنه أحس بالراحة الآن بعد أن أخبرها.

التفتت إليه، ولم تنظر إلى وجهه بل إلى حذائه المغسين القديم الذي يلبسه مثل شبشب، وقد كاد الجلد الخلفي أن يتسطح. تساءل في نفسه إن كان ما قاله قد أزعجها. أمسكت هي بيده وضغطت عليها: "ما كان عليك أن تخبرني لماذا فعلت ذلك." قالت وهي تدنو منه.

جلسا معا حتى التاسعة عندما عادت الأضواء. سمعا بعض الأشخاص يصفقون من شرفتهم عبر الشارع، وصوت أجهزة التلفزيون بعد تشغيلها. عاد الزوجان برادفورد إلى الشارع يأكلان البوضة ويلوحان نحوهما. فردا لهما التلويحة ثم نهضا من جلستهما ودخلا البيت، وما تزال يديهما متشابكتان.

بشكل ما، ودون أن يقولا شيئا تحوّل الأمر هكذا، إلى تبادل الاعترافات ـ الأشكال البسيطة التي آلما فيها بعضهما، أو خيبا آمال الآخر فيه، أو في نفسه. في اليوم التالي فكر شوكومار لساعات في ما سيقول لها. وقد احتار بين الاعتراف بأنه قام ذات مرة بتمزيق صورة

امرأة من إحدى مجلات الأزياء التي كانت تشترك فيها، وحملها في طيات كتابه لأسبوع كامل، أو يخبرها بأنه في الحقيقة لم يفقد الكنزة التي أهدتها له بمناسبة العيد الثالث لزواجهما، ولكنه باعها في فايلنس للحصول على نقود، وإنه شرب حتى ثمل في منتصف النهار في حانة الفندق. في عيد زواجها الأول أعدت تشوبا من أجله فقط، عشاء من عشرة أصناف؛ وقد أحس بالكآبة لبيع الكنزة. "أهدتني زوجتي إياها بمناسبة عيد زواجنا،" ضج بالشكوى لنادل البار، بينما رأسه مثقل بالكونياك. "وما الذي توقعته، فأنت رجل متزوج." أجاب النادل.

لم يعرف أبدا لماذا مزق صورة المرأة من المجلة، فلم تكن في مثل جمال تشوبا. كانت ترتدي فستانا أبيض يلمع فوقه الترتر، لها وجه متجهم، وسيقان ذكورية نحيلة. ترفع ذراعيها العاريتين، وقبضتيها حول رأسها، كأنها على وشك توجيه لكمة إلى أذنيها. الصورة كانت إعلانا عن جوارب، وتشوبا كانت حبلى في ذلك الوقت، فتضخمت بطنها فجأة، إلى الحد الذي لم يعد يرغب في لمسها. والمرة الأولى التي شاهد فيها الصورة عندما كان يستلقي بجانبها في الفراش، يراقبها أثناء قراءتها. وعندما لاحظ وجود المجلة في كوم معد لرميه في القمامة، وجد المرأة ومزق الصورة بكل حذر. طوال أسبوع سمح لنفسه بإلقاء نظرة عليها يوميا، وقد أحس برغبة جامحة نحوها، لكنها كانت رغبة تحولت إلى اشمئزاز بعد مضي دقيقة أو اثنتين. كان ذلك أقرب ما وصل فيه إلى الخيانة.

في الليلة الثالثة أخبرها عن الكنزة، وفي الرابعة عن الصورة الممزقة. لم تقل شيئا أثناء حديثه، ولم تبين احتجاجا أو لوما. أنصتت له ببساطة، ثم أمسكت بيده وضغطت عليها كما فعلت في السابق. في الليلة الثالثة أخبرته بأنها تركته يتحدث إلى رئيس قسمهِ في الجامعة دون أن تنبهه إلى وجود أثر من الطعام فوق ذقنه. كانت مستاءة منه لسبب ما، وهكذا تركته يستمر في حديثه حول الحصول على شهادته في الفصل القادم، دون حتى أن تضع إصبعها فوق ذقنها كإشارة له. وفي الليلة التالية أخبرته بأنها لم تحب أبدا القصيدة الوحيدة التي نشرها طوال حياته في مجلة أدبية تصدر في يوتا. لقد ألف القصيدة بعد لقائه بها، ورأت هي أنها عاطفية للغاية.

شيء ما يحدث عندما يعم الظلام البيت؛ فبوسعهما الحديث مع بعضهما من جديد. عقب تناول العشاء في الليلة الثالثة جلسا سوية على الأريكة، وما أن حل الظلام حتى بدأ يقبلها بشكل مرتبك فوق جبينها، ووجهها، ورغم الظلام فقد أغمض عينيه، وعرف أنها فعلت ذلك أيضا. في الليلة الرابعة تحركا بحذر إلى الطابق العلوي نحو السرير، يتحسسان الدرجة الأخيرة قبل البسطة بأقدامهما، ومارسا الحب بقنوط كانا قد نسياه. بكت في صمت وهي تهمس

باسمه وتلمست حاجبيه بأصابعها في الظلام. أثناء ذلك تساءل في نفسه عما سيقول لها في الليلة المقبلة، وماذا ستقول هي، وقد أثاره التفكير في ذلك. "أحضنيني،: قال لها " أحضنيني بين ذراعيك،" وما أن عادت الأنوار إلا وكانا يغطان في السبات.

في صباح الليلة الخامسة، وجد شوكومار إعلانا من شركة الكهرباء في صندوق بريدهما يخبرهما بإصلاح الخط قبل الموعد المقرر. لقد أصيب بخيبة أمل، حيث خطط لإعداد وجبة غمبري على الطريقة المالاوية لتشويا، لكن عندما وصل إلى السوق لم يعد يشعر بحاجة للطبخ. فالأمور لم تعد على حالها، وهو يعرف بأن النور لن ينقذه. في السوق بان له الغمبري رمادي اللون وهزيلا، أما علبة حليب جوز الهند فيعلوها الغبار وباهظة الثمن. مع ذلك فقد ابتاعهما، بالإضافة إلى شمع العسل وزجاجتين من النبيذ.

عادت إلى البيت في السابعة والنصف. "أعتقد أن هذه هي نهاية لعبتنا." قال عندما شاهدها تقرأ الإعلان.

نظرت إليه. " ما يزال بإمكانك إشعال الشموع، إن أردت." لم تذهب إلى المركز الرياضي هذه الليلة، حيث كانت ترتدي بذلة تحت معطفها. أما زينتها فيبدو وكأنها قد أصلحتها منذ برهة.

عندما صعدت السلالم لتغير ملابسها، صب لنفسه نبيذا، وأدار

اسطوانة موسيقى. كانت لثيلونيوس مونك، الذي يعرف أنها تحبه.

بعد أن نزلت إلى الصالة تناولا الطعام سوية. لم تشكره أو تطريه. وتناولا الطعام في غرفة مظلمة، على ضوء شمع العسل. لقد مرّا بأوقات عصيبة. أجهزا على الغمبري، ثم على زجاجة النبيذ الأولى، وانتقلا إلى الثانية؛ وجلسا معا حتى كادت الشمعة أن تذوب. تحركت في مقعدها، فاعتقد أنها ستقول شيئا ما؛ لكن بدلا من ذلك نفخت الشمعة فأطفأتها، ثم وقفت وأشعلت مفتاح النور، وجلست من جديد.

" أليس من المفترض أن نترك النور مطفئا؟ " سألها.

أزاحت طبقها جانبا وشدت قبضتيها فوق الطاولة، "أريدك أن ترى وجهي عندما أقول لك هذا." قالت بلطف.

بدأ قلبه يدق بعنف؛ فقد استعملت الأسلوب نفسه في اليوم الذي أخبرته فيه بحملها، وقالت الكلمات بالأسلوب اللطيف نفسه، بعد أن أطفأت مباراة لكرة السلة في التلفزيون. لم يكن مستعدا حينذاك، لكنه غير ذلك الآن.

ما يريده فقط هو ألا تكون حبلى من جديد، ولا يريد التظاهر بالفرحة.

" كنت أبحث عن شقة، ووجدت واحدة." قالت مركزة نظرها

على شيء ما بدا له خلف كتفه الأيسر. استمرت تقول بأن ذلك ليس خطأهما، فقد مرا بما يكفي من الصعاب وتحتاج لبعض الوقت لتكون بمفردها. لديها بعض المال الذي وضعته في حساب ائتمان، وأن الشقة التي استأجرتها تقع في بيكون هيل، بحيث يمكنها أن تذهب إلى العمل سيرا على الأقدام. لقد وقعت عقد الإيجار هذه الليلة قبل مجيئها إلى البيت.

لم ترغب في النظر إليه، لكنه حملق فيها. من الواضح أنها تدربت على قول هذه الكلمات. فخلال كل هذا الوقت كانت تبحث عن بيت، تجرب ضغط المياه، وتسأل صاحب البيت إن كانت التدفئة والمياه الساخنة مشمولة في عقد الإيجار؛ أحس بالتقزز وهو يعرف أنها أمضت الليالي السابقة تعد نفسها لحياة منفصلة عنه. لقد أحس بالراحة، وبالتقزز في الوقت نفسه؛ فهذا ما كانت تود إخباره به خلال الليالي السابقة، وهذا هو القصد من لعبتها.

جاء الآن دوره في الحديث. هناك أمرٌ أقسم ألا يخبرها به أبدا، وطوال شهور ستة فعل ما بوسعه ليسدل عليه ستار النسيان. فقبل أن تجري فحوصا بالرنين المغناطيسي طلبت من الطبيب ألا يخبرها عن جنس جنينهما، ووافقها شوكومار على ذلك. لقد أرادت أن يكون ذلك مفاجأة.

فيما بعد، وفي المرات القليلة التي تحدثا فيها عن ما حدث

كانت تقول أنهما على الأقل قد أعفيا من معرفة جنس الجنين. وبشكل ما يبدو أنها كانت تفتخر بقرارها لأنه أتاح لها الركون إلى الغموض، ويعرف أنها افترضت أن الأمركان غامضا لديه أيضا، وأنه قد عاد من بالتيمور- عندما انتهى كل شيء، وهي ترقد على سرير المستشفى. لكن ذلك لم يحدث؛ فقد وصل مبكرا بما يكفي ليرى طفلهما، ويمسك به قبل التخلص من جثته بالحرق. في البداية لم تعجبه الفكرة، لكن الطبيب قال بأن الإمساك بالطفل قد يسرّي عنه ويخفف من حزنه. كانت تشوبا نائمة، وقد تم تنظيف الطفل بينما كانت جفونه المنتفخة مغلقة في وجه العالم.

" كان طفلنا ذكرا،" قال لها، "ولون بشرته أقرب إلى الاحمرار منه إلى الدكنة، شعر رأسه أسود، ووزنه يكاد يصل إلى خمسة أرطال. كما كانت أصابع يديه مكورة مثل أصابعك أثناء الليل."

أخذت تنظر إليه الآن، ووجهها يتقلص من الألم. لقد غش في الامتحان، ومزق صورة امرأة من المجلة؛ باع الكنزة وثمل في منتصف النهار.كان هذا ما أخبرها به. لقد أمسك ابنه الذي لم يعرف الحياة إلا بداخلها على صدره في جناح غير معروف من المستشفى؛ أمسك به إلى أن طرقت إحدى المرضات الباب وأخذته بعيدا، وقطع عهدا على نفسه في ذلك اليوم ألا يخبر تشوبا أبدا، لأنه مازال يحبها آنذاك،

وذلك هو الشيء الوحيد في حياتها الذي أرادت أن يكون مفاجأة.

وقف شوكومار ووضع صحنه فوق صحنها، ثم حملهما إلى حوض الغسيل، لكن بدلا من فتح صنبور المياه، نظر عبر النافذة. في الخارج ما يزال المساء دافئا، والزوجان برادفورد يسيران متشابكي الذراعين. وبينما هو مستغرق في مراقبتها خيم الظلام على الغرفة، فالتفت حوله. تشوبا هي من أطفأ النور، ثم عادت إلى الطاولة وجلست، وبعد لحظة التحق بها إلى حيث تجلس. وبكيا سوية على الأشياء التي يعرفانها الآن.

تَرجمان الأوجـاع

عند كشك بيع الشاي تشاحن السيد والسيدة داس حول من سيصحبُ تينا إلى دورة المياه. وفي نهاية المطاف سلّمت السيدة داس أمرها عندما ذكّرها زوجها بأنه هو من رافق الفتاة إلى الحمام في الليلة الماضية. أما في المرآة الخلفية للسيارة فقد راقب السيد كاباسي المرأة وهي تخرج ببطء من سيارته الأمباسدور البيضاء الضخمة، ساحبة ساقيها العاريتين الحليقتين فوق المقعد الخلفي، ولاحظ أنها لم تكن تمسك بيد الفتاة الصغيرة أثناء توجههما إلى بيت الراحة.

كانوا في طريقهم لزيارة معبد الشمس في كوناراك، في يوم سبت جاف وساطع تأثرت فيه حرارة منتصف يوليو بالنسمات المحيطية المتواصلة، وهو ما يعد جوّا مناسبا لمشاهدة الآثار. ليس من عادة السيد كاباسي التوقف بهذه السرعة عندما يبدأ رحلته؛ ولكن بعد أقل من خمس عشرة دقيقة من إركاب العائلة أمام فندق ساندي فيلا، بدأت الفتاة في التذمر. أول ما لاحظه السيد كاباسي بعد رؤيته للزوجين الواقفين بالقرب من أطفالهما تحت رواق الفندق المعمّد هو صغر سنهما، فربما لم يبلغا حتى الثلاثين بعد. بالإضافة إلى

تينا، لديهما ولدان هما روني وبوبي؛ وقد ظهرا له في عمر متقارب للغاية، ولهما أسنان مغطاة بشبكة من الأسلاك الفضية اللامعة. بدت له العائلة هندية الملامح، لكنهم يرتدون ملابسهم مثلما يفعل الأجانب، فالأطفال في ملابس منشّاة فاقعة الألوان، فوق رؤوسهم قبعات بجزء أمامي شفاف. لقد اعتاد السيد كاباسي الاتصال بالسياح الأجانب، فهو يُكلف بمرافقتهم بشكل دوري نظرا لإجادته اللغة الإنغليزية. وبالأمس فقط نقل زوجين مسنين من سكوتلندة، يغطي النمش وجهيهما، لهما شعر زغبي أبيض من الخفة حتى أن فروة رأسيهما التي لوحتها الشمس كانت بادية له. بالمقارنة كان وجها السيد والسيدة داس الفتيّان أكثر ما يلفت النظر فيهما. عندما قدم لهما نفسه، حيّاه الزوج بضغط راحتيه سوية، لكن السيدة حيّته مصافِحة كما تفعل السيدات الأمريكيات، وأحس بحرارة مصافحتها يصل إلى مرفقه. أمّا من جهتها فأرخت جانبا من فمها، مطلقة ابتسامة تطلبتها الكياسة، دون أن تظهر نحوه أي اهتمام.

أثناء انتظارهم عند كشك الشاي ترجل روني الذي يبدو أنه أكبر الصبيين، فجأة من المقعد الخلفي وقد أثاره وجود عنزة مربوطة إلى وتد في الأرض.

" لا تلمسها،" صاح به السيد داس، وهو يرفع عينيه عن كتاب دليل سياحي كُتب عليه (الهند) بحروف صفراء، وبدا كأنه قد طبع

في الخارج. كان صوته مترددا إلى حد ما، وله نبرة حادة، فبان وكأنه لم يستقر في مرحلة النضج بعد.

" أريد أن أقدم لها قطعة من العلكة." رد الصبي أثناء هرولته نحو العنزة.

نزل السيد داس من السيارة ومرّن ساقيه بالجلوس مقرفصا لبعض الوقت. كان حليق الذقن،وبدا مثل نسخة مكبرة عن روني.؛ يرتدي قبعة زرقاء بلون الزمرد، وسروالا قصيرا، وحذاءً وفانلة رياضية؛ وتدلت حول عنقه آلة تصوير لها عدسات مقربة فخمة وعدد لا يحصى من الأزرار والعلامات، فكانت الشيء المعقد الوحيد الذي يرتديه. قطب جبينه وهو يشاهد روني يسرع نحو العنزة، ولكن لم تظهر عليه الرغبة في التدخل. "بوبي، أحرص على ألا يقوم أخوك بأي فعل أخرق."

" لا أرغب في التدخل." قال بوبي، دون أن يبدي حراكا وهو يجلس في المقعد الأمامي بمحاذاة السيد كاباسي، يتفحص صورة للإله الفيل المُلصقة إلى صندوق القفازات.

قال السيد كاباسي. " لا حاجة للقلق فهي وديعة للغاية."

كان السيد كاباسي في السادسة والأربعين من عمره، وبدأ شعره ينحسر عن فروة رأسه فيتحوّل بالكامل إلى اللون الفضي. لكن بشرته

السمراء وحاجبيه غير المستويين اللذين يمسّدهما في وقت فراغه بلمسات من روح زيت اللوتس، سهّلا من التصوّر بأنه أصغر سنا مما هو بالفعل. كان يرتدي قميص نصف كم بياقة عالية، مفصلا على طراز جاكت وقد ضُمّ قليلا عند الوسط، وهو من قماش مركب خفيف لكن له قدرة على التحمل. كان هو من حدّد للخياط نوعية القماش، وطراز الحياكة الذي يريده - فهي بذلته المفضلة عند العمل كدليل سياحي لأنها لا تتكرمش أثناء ساعاته الطويلة التي يقضيها خلف المقود. وعبر الزجاج الأمامي راقب الصبي روني وهو يدور حول العنزة، لمسها بسرعة من أحد جانبيها، ثم قفل راجعا بسرعة إلى السيارة.

" تركت الهند في طفولتك؟" وجه السيد كاباسي سؤاله عندما جلس السيد داس من جديد على مقعد السيارة.

" أوه، لقد ولدنا أنا ومينا في أمريكا." أعلن وقد انتابه إحساس مفاجئ بالثقة. "وُلدنا وربينا هناك. لكن والدينا يعيشون هنا الآن، في أسانول. لقد تقاعدوا، ونقوم بزيارتهم كل عامين." التفت لينظر بينما كانت الفتاة تقترب من السيارة، ونهايات واقي الشمس الأرجواني ترفرف فوق كتفيها الضئيلين السمراوين، ضامة إلى صدرها دمية بشعر أصفر بدا وكأنه قد جُزّ بمقص باتر عقابا لها.

" لكن هذه هي زيارة تينا الأولى للهند، أليس كذلك يا تينا؟"

" لست مضطرة للذهاب إلى الحمام مرة أخرى." أعلنت تينا.

" أين مينا؟" سألها السيد داس.

رأى أنه من الغريب أن يشير الرجل إلى زوجته باسمها الأول عندما يخاطب الفتاة. وأشارت تينا إلى حيث كانت أمها تشتري شيئاً من أحد الرجال العراة الظهور العاملين في كشك الشاي. كما سمع أحد هؤلاء الرجال يغني مقطعاً من أغنية حب هندية شعبية أثناء عودة السيدة داس إلى السيارة، لكن لم يبدُ عليها أنها تفهم كلمات الأغنية، لأنها لم تبد تبرما أو خجلاً، أو تقوم بأي رد فعل تجاه ما يعلنه الرجل.

أخذ في مراقبتها. كانت ترتدي تنورة بمربعات حمراء وبيضاء تصل إلى أعلى ركبتيها، وحذاء خفيفا له كعب خشبي مربع، وقميصها ملتصقٌ بجسمها مثل الفانلة الداخلية للرجال ومزيناً عند مستوى صدرها بزخرفة قماشية على شكل حبة فراولة. كانت قصيرة القامة، ممتلئة قليلاً تبدو يداها الصغيرتان مثل المخالب، وأظافر يديها مطلية باللون الوردي لتتماشى مع لون شفتيها، وتبدو قصة شعرها أطول قليلاً من زوجها ومفروقة إلى الجانب، كما ارتدت نظارات شمسية كبيرة بلون بني غامق تشوبه لمسة وردية؛ تهادت نحوهم ببطء حاملة في يديها طبقاً كبيراً معدّاً من أوراق الصحف به أرز مقلي مع بعض الفول وقرون الفلفل. وهنا التفت نحو السيد داس.

" أين تقطن في أمريكا؟"

" نيوبرنسويك، في ولاية نيوجيرسي."

" قريباً من نيويورك؟"

" بالضبط، وأقوم بالتدريس في مدرسة ثانوية هناك."

" أي موضوع؟"

" العلوم، وفي الواقع أصطحبُ تلاميذي كل عام إلى متحف التاريخ الطبيعي في مدينة نيويورك. بشكل ما يمكنك القول أن لدينا مشتركات كثيرة أنا وأنت، كم مضى عليك وأنت تقوم بوظيفة الدليل السياحي؟"

" خمس سنوات."

وصلت السيدة داس إلى السيارة فسألت وهي تغلق الباب ، "كم تستغرق هذه الرحلة؟"

" حوالي الساعتين ونصف،" أجاب السيد كاباسي.

أطلقت تنهيدة برمة، وكأنها كانت في ترحال دون توقف طوال حياتها. وروّحت عن نفسها بمجلة إنجليزية خاصة بأفلام بومباي، كانت قد طويت كمروحة.

" اعتقدتُ أن معبد الشمس لا يبعد سوى ثمانية عشر ميلاً شمال بيوزي." قال السيد داس وهو ينقر فوق كتاب المرشد السياحي.

" في الحقيقة لا تزيد المسافة عن اثنين وخمسين ميلاً، لكن الطرق المؤدية إلى كوناراك سيئة ".

هزّ السيد داس رأسه، وعدل من وضع حزام صوّارته الذي بدأ يحز قفا عنقه. وقبل أن يشغل السيد كاباسي السيارة، مدّ يده إلى الخلف للتأكد من إقفال الأبواب الخلفية بإحكام، وبمجرد تحرك السيارة أخذت الفتاة تلعب بقفل الباب إلى جوارها، جاهدة لتحريكه أماماً وخلفاً، لكن السيدة داس لم تفعل شيئاً لمنعها وإنما جلست بارتخاء إلى جهة من المقعد الخلفي، ولم تعرض على أحد مشاركتها في أرزها، بينما جلس كل من روني وتينا إلى جانبيها يلوكان علكة خضراء زاهية.

" انظروا،" قال بوبي والسيارة تزيد من سرعتها، مشيراً بإصبعه إلى الأشجار الباسقة على جانب الطريق "انظروا."

" إنها قردة ! " صاح روني. " واوو ! "

كانت القردة تجلس في جماعات فوق أغصان الشجر، بوجوهها السوداء اللامعة وأجسادها الفضية، وحواجبها الأفقية، ورؤوسها التي يتوجها الشعر. كانت أذنابها تتدلى مثل حبال بين أوراق الأشجار، وقام بعضها بدعك أجسادها بأيدٍ سود غلاظ، أو مرجحة أقدامها، وهي تراقب مرور السيارة.

قال السيد كاباسي" نسمّيها الهانومان، وتتواجد بكثرة في هذه المنطقة."

ما أن أكمل حديثه حتى قفز أحد القرود إلى منتصف الطريق، مما أجبره على التوقف فجأة، كما قفز آخر على غطاء السيارة الأمامي، ثم نط بعيداً. ضغط السيد كاباسي على زموره، وبدأت الإثارة تظهر على الأطفال الذين علا شهيقهم وهم يغطون جانباً من وجوههم بأيديهم، فلم يروا القرود مطلقاً خارج حدائق الحيوان كما شرح أبوهم طالبا من السيد كاباسي إيقاف السيارة لرغبته في التقاط صورة للقردة.

عندها عدل السيد داس عدساته المقربة، وفتحت زوجته حقيبة يدها القشية لتخرج منها طلاء أظافر لا لون له، ثم بدأت في مسح ظفر سبابتها، فمدت الفتاة يدها قائلة " وأنا أيضاً يا أمي، لوّني لي أظافري."

" دعيني، فقد جعلتني أخطئ" قالت وهي تنفخ على ظفرها وتدوّر جسمها قليلاً. فشغلت الفتاة نفسها بتزرير وفك لباس دميتها البلاستيكية.

" لقد انتهيت" قال السيد داس وهو يعيد غطاء العدسات.

اهتزت السيارة بقوة وهي تنهب الطريق الترابي، مسببة في

تنطيط ركابها عن مقاعدهم بين الفينة والأخرى، ومع ذلك واصلت السيدة داس طلاء أظافرها.

خفف الضغط على دواسة الوقود، مؤملاً أن ينتج عن ذلك حركة أكثر نعومة، وعندما مد يده إلى عتلة التبديل، زحزح الصبي الجالس في المقدمة ركبتيه العاريتين من الشعر من طريقه؛ فلاحظ أن هذا الصبي كان أكثر شحوباً من أخوته، وسأل الصبي."أبي، لماذا يجلس السائق في المقعد الخاطئ في هذه السيارة أيضا؟"

" جميعهم يفعلون ذلك هنا، أيها الغبي." قال روني.

" لا تلقب أخيك بالغبي،" قال السيد داس ملتفتا إلى كاباسي "في أمريكا كما تعلم ... إن هذا الأمر يربكهم."

" أوه، نعم أعرف ذلك." ثم بدّل عتلة السرعة مرة أخرى بأقصى ما استطاع من نعومة وخفض من السرعة أثناء اقترابهم من مرتفع في الطريق " كنت أشاهد ذلك في دالاس حيث توجد عجلات القيادة على الجانب الأيسر."

" ما هو دالاس؟" سألت تينا وهي تضرب دميتها العارية الآن فوق المقعد خلف السيد كاباسي.

" كان مسلسلاً تلفزيونياً، وقد توقف." فسّر لها أبوها.

أثناء مرورهم بصف من أشجار النخيل، فكر بأنهم يبدون مثل

أقارب، فالزوجان يتصرفان مثل أخ وأخت كبرى وليس كوالدين. بدا وكأنهما مسؤولان عن الأطفال لهذا اليوم فقط؛ وكان من الصعب تخيل أنهما مسئولان على نحو منتظم عن أي شيء عدا نفسيهما. أثناء ذلك كان السيد داس ينقر فوق غطاء عدسته تارة، وتارةً يخرمش ظفره فوق صفحات كتاب المرشد فيصدر صريراً. وبينما استمرت السيدة داس في تلميع أظافرها وهي مرتدية نظاراتها الشمسية، كانت تينا تكرر طلبها لتلميع أظافرها، وهكذا اضطرت في وقت ما لأن تضع قطرة من الطلاء فوق إصبع الفتاة قبل أن تدسه مجدداً في حقيبتها القشية.

" أليست هذه السيارة مكيفة؟" سألت وهي تنفخ يدها. كانت النافذة إلى جانب تينا معطلة، ولا يمكن فتحها.

" توقفي عن التذمر فالحرارة ليست مرتفعة." قال السيد داس .

استمرت السيدة داس في حديثها، " أخبرتك أن تؤجر لنا سيارة مكيفة، فلم تقوم بهذه الأمور يا راج، هل لمجرد توفير بعض الروبيات التافهة. وماذا وفرت لنا، خمسين روبية؟"

كانت لهجتها تشبه تلك التي كان السيد كاباسي يسمعها في البرامج التلفزيونية الأمريكية لكنها ليست مثل لهجة مسلسل دالاس.

"ألا يعتريك الضجر أبداً من مرافقة الناس إلى المكان نفسه

يومياً؟" سأل وهو ينزل زجاج نافذته حتى النهاية، "هل تمانع في إيقاف السيارة، أريد التقاط صورة لهذا الشخص."

توقف على جانب الطريق، بينما كان السيد داس يلتقط صورة لرجل حافي القدمين، يلف رأسه بعمامة قذرة، ويجلس فوق عربة يدوية مليئة بجوالات القمح يجرها ثوران. كان الهزال يغلب على كل من الرجل والثورين. وفي المقعد الخلفي حدقت السيدة داس من النافذة الأخرى، نحو السماء، حيث تمر سحبٌ تكاد تكون شفافة مسرعة في أثر بعضها البعض.

قال السيد كاباسي بعد مواصلة القيادة " في الواقع، أنا في شوق دائم لهذه الرحلة. فمعبد الشمس هو أفضل الأماكن عندي، وهكذا تعدُّ هذه الرحلة بمثابة جائزة لي، وأنا أرشد السياح كل يوم جمعة وسبت فقط. فلدي عمل غير ذلك خلال الأسبوع."

" أوه، وأين ذلك؟" سأل السيد داس.

" أعمل في عيادة طبيب."

" هل أنت طبيب؟"

" لست طبيباً، وإنما أعمل مع أحدهم كمترجم."

" ولماذا يحتاج الطبيب إلى مترجم؟"

" يتردد عليه بعض المرضى الكوجارتين. كان أبي كوجارتياً، لكن الكثيرين لا يتحدثون اللغة الكوجارتية في هذه المنطقة بمن فيهم الطبيب. وهكذا طلب مني العمل في عيادته لأترجم له ما يقوله مرضاه."

" أمرٌ مثير، فلم أسمع مطلقاً عن شيء كهذا" قال السيد داس.

" هو كأي عمل غيره." ردّ هازاً كتفيه.

" لكنه غاية في الرومانسية،" قالت السيدة داس حالمة وهي تخرق صمتها، ثم حركت نظارتها البنية المشوبة بلون وردي فوضعتها فوق رأسها مثل عصابة. التقت عيناها للمرة الأولى بالسيد كاباسي في المرآة الخلفية وكانتا شاحبتين تميلان للصغر، نظرتهما ثابتة ولكن ناعسة.

مد السيد داس عنقه لينظر إليها. " وما الرومانسي في ذلك؟"

" لا أعرف. ثمة شيء ما." هزت كتفيها، وقطبت جبينها للحظات. "هل ترغب في شيء من العلكة، يا سيد كاباسي" قالت بحبور، ثم مدّت يدها في حقيبتها القشية وسلمته قطعة صغيرة ملفوفة في ورقة مخططة بالأبيض والأخضر. وما أن وضع العلكة في فمه حتى تفجر سائل حلو كثيف فوق لسانه.

" أخبرنا المزيد عن عملك، يا سيد كاباسي" قالت السيدة داس.

" وما الذي ترغبين في معرفته، يا سيدتي؟"

" لا أعرف." هزت كتفيها، وهي تمضغ شيئاً من الأرز، وتلعق زيت المسطردة عن جانبي فمها "أخبرني عن أي موقف مثير يتعلق به." أغمضت عينيها واسترخت في مقعدها، بينما كانت بقعة من الضوء تغمر رأسها. "أرغب في تصوّر ما يحدث هناك."

" طيّب، ذات يوم حضر رجل للعيادة يشكو من ألم في حنجرته."

" هل هو مدخن؟"

" كلا. كان الأمر غريباً. فقد اشتكى من الإحساس بأن قطعاً طويلة من القش كانت عالقة في حنجرته، وعندما أعلمت الطبيب بذلك تمكن من وصف الدواء المناسب له."

" هذا بالغ البراعة."

" بالطبع،" أمّن السيد كاباسي على الحديث بعد فترة من التردد.

" إذاً فهؤلاء المرضى يعتمدون عليك بالكامل،" قالت ببطء شديد وكأنها تفكر بصوت عال. "وعلى نحو ما، فهم يعتمدون عليك أكثر من اعتمادهم على الطبيب."

" ماذا تعنين.؟ وكيف يمكن ذلك؟"

" حسنٌ، فعلى سبيل المثال كان بإمكانك إخبار الطبيب بأن الألم كان مثل الإحساس بالحرقان، وليس بقشة. لن يعرف المريض أبداً ماذا أخبرت الطبيب، وهذا الأخير لن يعرف بأنك قد أخبرته بشيء خاطئ. إنها مسئولية عظيمة."

" نعم إنها مسؤولية عظيمة تحملها يا سيد كاباسي،" وافق السيد داس.

لم يفكر من قبل على الإطلاق بعمله على هذا النحو الذي يستحق الإطراء. وبالنسبة له فهي مهنة ناكرة للجميل. فهو لم يجد أي نبل في تفسير أوجاع الناس والتعبير بلطف ومجاملة عن أعراض الكثير من العظام المنتفخة، وعدد لا يحصى من تقلصات المعدة والأمعاء، وعن البقع التي تظهر في راحات الناس وتغير لونها، وشكلها ، وحجمها. الطبيب الذي كان في نصف عمره، يحب ارتداء السراويل الواسعة القدمين ويطلق نكاتاً سمجة عن حزب المؤتمر، وكانا يعملان سوّية في عيادة صغيرة راكدة التهوية تلتصق فيها ملابسه الأنيقة بجسمه في حرارة المكان بالرغم حتى من مروحة السقف المسودّة الريشات التي تمخض الهواء فوق رؤوسهم.

ذلك العمل كان علامة على تعثره في الحياة. ففي صباه كان دارساً مثابراً للّغات الأجنبية، ومالكاً لعدد لا بأس به من معاجم اللّغات. حلمُ حياته أن يصبح مترجماً للدبلوماسيين والشخصيات

المهمة، ويساعد في حل الصراعات بين الناس وبين الدول، يحل مشاكل هو وحده القادر على فهم الطرفين. كان عصامي التعليم. وقبل أن يرتب له والده زواجه، دوّن في عدد من الدفاتر دراسة اتيمولوجية لأصول الألفاظ وتاريخها، وكان واثقاً بقدرته، في وقت ما من حياته، على التخاطب باللغات الإنغليزية، والروسية، والفرنسية، والبرتغالية، والإيطالية، طبعاً بالإضافة إلى الهندية، والبنغالية، والاوريسية، والكوجاراتية. أما الآن فلم يعد يعلق بذهنه سوى عدد بسيط من الجمل الأوروبية، وكلمات مشتتة لأشياء مثل الأطباق والكراسي. والإنغليزية هي اللغة غير الهندية التي مازال يتقنها مع معرفته بأن ذلك لا يعد موهبة نادرة. كان يخشى أحياناً أن يكون إتقان أطفاله للإنغليزية من مجرد مشاهدة التلفزيون أكثر منه. ومع ذلك فقد وجد لغته مفيدة له خلال رحلاته السياحية.

انخرط في وظيفته كمترجم بعد إصابة ابنه الأكبر في سن السابعة بمرض التيفوس، وذلك كيف تعرف إلى الطبيب في المرة الأولى. حينذاك كان يعلّم قواعد اللغة الإنغليزية، فقايض مواهبه كمترجم ليدفع تكاليف فواتير العلاج الباهظة. في النهاية توفي الصبي ذات مساء بين ذراعي والدته وكانت أطرافه ملتهبة من أثر الحمى. لكن لديه جنازة لدفع تكاليفها، وأطفال غيره وُلدوا بسرعة، والبيت الجديد الأكثر اتساعاً، ومدارس جيدة، ومعلمون جيدون. وكذلك

أحذية ممتازة، وجهاز تلفزيون، وطرق أخرى عديدة لمواساة زوجته وجعلها تترك البكاء أثناء نومها. هكذا، وعندما عرض عليه الطبيب أن يدفع له ضعفي ما كان يحصل عليه في مدرسة اللغات قبل على الفور. كان يعرف بأن زوجته لا تهتم بوظيفته كمترجم، ويعرف أنها تذكره بابنها الذي فقدته، وأنها تمتعض للمساعدة التي يقدمها (بما يملك من إمكانات بسيطة) لإنقاذ أرواح الآخرين. كلما اضطرت للإشارة إلى وظيفته تستخدم عبارة "مساعد الطبيب" كأن عملية الترجمة تعدّ مساوية لقياس حرارة شخص ما، أو استبدال نونية السرير. ولم تسأله مطلقاً عن المرضى الذين يترددون على عيادة الطبيب أو تخبره بأن عمله ينطوي على مسؤولية عظيمة.

لهذا السبب، فقد اشبع غروره أن تكون السيدة داس مفتونة بعمله. وخلافاً لزوجته، فقد ذكرته بما ينطوي عليه هذا العمل من تحديات فكرية؛ أيضاً استخدمت كلمة "رومانسي" ولم تكن تتصرف تجاه زوجها بطريقة رومانسية، ومع ذلك استخدمت الكلمة لوصفه. تساءل إن كان السيد والسيدة داس غير ملائمين لبعضهما ، كما هو بالنسبة لزوجته. ربما لم يكن لديهما أيضاً إلا القليل من المشتركات سوى ثلاثة أطفال وعشر سنوات من العيش معا. فالعلاقات التي تعرّف عليها من خلال زواجه كانت بينة له - المشاحنة، واللامبالاة، وحالات الصمت الطويلة. اهتمامها المفاجئ به، والذي لم تبده

لزوجها أو لأطفالها جعله يحس بنشوة خفيفة. وعندما فكر مرة أخرى في الطريقة التي نطقت بها "رومانسي" ازداد حسّ النشوة لديه.

بدأ في فحص انعكاس صورته في المرآة الخلفية أثناء قيادة السيارة، وقد شعر بالامتنان لاختياره البدلة الرمادية في هذا الصباح وليس البنيّة التي تميل إلى الترهل عند الركبتين، وكان يسترق النظر بين فينة وأخرى إلى السيدة داس في المرآة. بالإضافة إلى النظر إلى وجهها كان يرمق حبة الفراولة القابعة بين ثدييها، وإلى التجويف البني المذهب في رقبتها. ثم قرر أن يخبرها عن مريض آخر، ثم آخر. مثل تلك المرأة الشابة التي اشتكت من إحساسها بما يشبه سقوط قطرات مطر داخل عمودها الفقري، وعن الرجل الذي أخذت شامته تنبت الشعر بسرعة. أنصتت إليه باهتمام، وهي تسرح شعرها بفرشاة بلاستيكية صغيرة تبدو مثل سرير مسامير بيضاوي، وتطلبُ المزيد من الأمثلة الجديدة. كان الأطفال هادئين، ومركزين اهتمامهم على اكتشاف المزيد من القردة فوق الأشجار، فيما كان السيد داس مشغولاً بدليله السياحي. وهكذا بدا الأمر كأنه محادثة خاصة بينه وبين السيدة داس. مرت نصف ساعة على هذا المنوال عندما توقفوا لتناول الغداء في مطعم على الطريق يبيع البطاطس المقلية وسندوتشات البيض المخفوق. عادةً ما كان يتوق للتوقف هناك أثناء رحلاته للجلوس في سلام والاستمتاع بشرب الشاي الساخن لكنه

كـان محبطاً هذه المرة. وعندما جلست عائلة داس سـوية تحت مظلة حمراء مزينة بشرابات بـرتقالية وبيضاء، سجلوا طلباتهم لـدى أحد الـندل الـذي كـان يـرتدي غطـاء رأس ثلاثـي الـشكل، وبتـثاقل تـوجه السيد كاباسي نحو طاولة مجاورة.

"انتظر يـا سيد كاباسي، فلدينا متـسع هنـا،" نادتـه السيدة، ثـم رفعـت تينـا إلى حجرها مصّرة على أن يشاركهم طاولتهم. وهكذا تنـاولوا سوية عصير المانغو، والسندوتشات، وصحون البصل والبطاطس المقلية في الـزبد. بعد التهامه شطيرتين من البيض المخفوق التقط السيد داس المزيد من الصور للمجموعة أثناء تناول الطعام.

" كم تبقى من الوقت قبل أن نصل؟" سأل وهو يتوقف لوضع فيلم جديد في الصوّارة.

"حوالي نصف ساعة." قال السيد كاباسي.

في هـذا الـوقت غـادر الأطفـال طاولـة الأكـل لـرؤية المـزيد مـن القـردة الرابـضة فـوق شـجرة قريبة، وهكذا تكونـت هنـاك فجـوة لا بأس بهـا بين مكـاني جلوس السيدة داس والسيد كاباسي. رفع السيد داس الـصوارة أمـام وجهـه وأغمـض إحـدى عينـيه وكـان وجهـه يظهـر عـند زاويـة فمـه. " يبدو المنظر مضحكاً يـا مينـا، وعليك أن تميلي أكثر نحو السيد كاباسي."

وقد فعلت. كان بإمكانه أن يستنشق رائحة جسمها، التي كانت مثل خليط من الويسكي وماء الورد. وفجأة أحس بالقلق خوفاً من أن تشم رائحة عرقه، الذي يعرف أنه تجمع تحت قماش قميصه. أجهز على عصير المانغو الذي أمامه في جرعة واحدة، ثم مسّد شعره الفضي بيديه، وبقي أثر من العصير فوق ذقنه، فتساءل إن لاحظت ذلك. لكنها لم تلاحظ، أما هي فسألت أثناء بحثها في حقيبتها القشية. " ما هو عنوانك يا سيد كاباسي؟"

" تودين أن أعطيك عنواني؟"

" لكي نتمكن من إرسال نسخ الصور إليك." ثم سلمته قصاصة من الورق نزعتها في عجالة من مجلة السينما. كان الجزء الشاغر من القصاصة محدوداً، فأغلبها يغطيه موضوع مكتوب مع صورة صغيرة لبطل وبطلة يعانقان بعضهما تحت شجرة الاوكاليتوس. أخذت الورقة تلتوي أثناء كتابة عنوانه فوقها بحروف دقيقة وواضحة. ستكتب له لتستفسر عن عمله في الترجمة في عيادة الطبيب، وسيجيبها بفصاحة، فلن يختار سوى الحكايات المثيرة التي ستجعلها تضحك بصوت عال وهي تقرؤها في بيتها في نيوجيرسي. مع الوقت ستطلعه على ما تكابده من خيبة في زواجها، وسيفعل هو الشيء نفسه. وبهذه الطريقة ستنمو صداقتهما وتزدهر. ستكون لديه صورة فوتوغرافية لهما معاً، يأكلان البصل المقلي تحت المظلة الحمراء

وقرر أنه سيحتفظ بتلك الصورة في مكان آمن بين صفحات كتابه لقواعد اللغة الروسية. وبينما كانت الصورة تتسارع في ذهنه، أحس بارتعاشة خفيفة ولطيفة. كان ذلك أشبه بالإحساس الذي كان ينتابه منذ أمد بعيد. فبعد زمن طويل من الترجمة بمساعدة قاموس لغوي، تمكن في النهاية من قراءة مقطع من رواية فرنسية، أو شعر إيطالي، وأن يفهم الكلمات واحدة تلو الأخرى دون إعاقة. في تلك اللحظات كان يؤمن بأن الأمور على ما يرام في هذا العالم، وأن كافة الجهود ستكافأ، وتبدو عثرات الحياة منطقية في نهاية المطاف؛ وقد ولّد الوعد بإمكانية الاتصال بالسيدة داس، ذلك الإيمان نفسه لديه.

عندما انتهى من تدوين عنوانه سلمها قصاصة المجلة، ولكن ما أن فعل حتى انتابه القلق بأنه إما أن يكون قد أخطأ في تهجي اسمه، أو أنه كتب رقم الرمز البريدي معكوساً. مروّعا من احتمال فقد الرسالة، واستحالة وصول الصورة إليه وبقاؤها عالقة في مكان ما من أوريسا، قريبة ولكن يستحيل الوصول إليها؛ فكر في طلب قصاصة الورق مجدداً للتأكد من كتابته لعنوانه الصحيح، لكن السيدة داس كانت قد ألقت بها داخل فوضى حقيبتها.

وصلوا إلى كوناراك. إلى المعبد المشيد من الحجر الرملي الذي كان بناءً ضخماً أشبه بالهرم وعلى شكل معجّلة. كان المعبد مكرساً للشمس سيدة الحياة العظمى التي تضرب ثلاثة أركان من المبنى

الضخم وهي تشق طريقها يومياً في كبد السماء، وقد نُحتت أربع وعشرون عجلة ضخمة في الجانبين الشمالي والجنوبي من الجزء السفلي المربع من البناء. كان فريق من سبعة أحصنة يجّر ذلك كله، وكأنها تسرع عبر السماء. وبينما هم يقتربون من المكان، شرح لهم السيد كاباسي بأن المعبد قد شيد بين الأعوام 1243 و1255 بمجهودات ألف ومائتين من البنّائين، من قبل سليل عائلة الغانغا، الملك ناراسيمهاديفا الأول، للاحتفال بنصر حققه على الجيوش الإسلامية.

" يقال هنا أن المعبد يشغل حوالي مائة وسبعين فداناً من الأرض،" قرأ السيد داس من كتابه.

" يبدو مثل صحراء،" قال روني بينما تنقلت عيناه عبر الرمال التي أحاطت كافة جوانب المبنى وما خلفه.

" كان نهر شاندرابهاجا يمر على بعد ميل إلى الشمال من هنا، ولكنه جفّ الآن." قال السيد كاباسي وهو يطفئ المحرّك. غادروا السيارة متجهين إلى المعبد، متوقفين أولاً لالتقاط صورة عند زوج من تماثيل الأسود المحيطة بالدرج. بعد ذلك قادهم نحو إحدى عجلات العربة وكانت أكثر طولاً من أي بشر، وقطرها تسعة أقدام. أخذ السيد داس يقرأ لهم: "يفترض أن ترمز العجلات إلى الحياة، وهي تظهر دورة الخلق، والمحافظة، وتحقيق الإدراك. تضّم كل عجلة ثماني برامق

غليظة ورفيعة تقسّمُ اليوم إلى ثماني أجزاء متساوية، وعلى أطرافها الخارجية نُقشت زهور وحيوانات، بينما نُقش على الجزء البارز من البرامق نساء في أوضاع مثيرة ذات طبيعة أيروسية في الغالب."

ما كان يشير إليه هو عدد غير محدد من الطنافس لأجساد عارية متشابكة، تمارس الحب في أوضاع مختلفة، نساء ملتصقات بأعناق رجال، ركبهن ملتفة في سرمدية حول أفخاذ أحبائهن. بالإضافة إلى ذلك كانت هناك مشاهد متنوعة من الحياة اليومية، من الصيد والتجارة، وظبي يُقتل بأقواس وسهام، ومحاربون يسيرون شاهرين سيوفهم.

لم يعد بالإمكان دخول المعبد لأنه امتلأ بالحطام منذ سنين، لكنهم أعجبوا بالجزء الخارجي كما هو حال كافة السواح الذين أحضرهم السيد كاباسي إلى هنا، يتهادون ببطء على طول جنباته. مشى السيد داس خلفهم ملتقطا الصور، بينما ركض الأطفال أمامهم يشيرون إلى صور العراة وقد استثارهم على وجه الخصوص، الناجامثونات، وهم أزواج نصفهم من البشر ونصفهم من الثعابين التي أخبرهم السيد كاباسي إنها تعيش في أعماق البحار. كان مسروراً لأن المعبد أعجبهم ومسروراً بالذات لإعجاب السيدة داس به، فقد كانت تتوقف كل ثلاث أو أربع خطوات تحملق صامتة في نقوش المحبين، ومسيرات الأفيال، والنساء الموسيقيات العاريات الصدور اللاتي يضربن على الطبول.

رغم أن السيد كاباسي زار المعبد عدداً من المرات، ولكن خطر له وهو يحملق أيضاً في التماثيل العاريات الصدور بأنه لم ير على الإطلاق زوجته عارية بالكامل، فحتى أثناء ممارستهما الحب تحتفظ بأطراف قميصها الخارجية مربوطة إلى بعضها ورباط تنورتها مشبوكاً حول وسطها. كما لم يعجب قط بربلة ساقي زوجته بمثل الطريقة التي يعجب بها الآن بساقي السيدة داس، وهي تمشي وكأنها تقوم بذلك من أجله فقط . بالطبع فقد شاهد من قبل الكثير من هذه الأطراف العارية العائدة للسيدات الأمريكيات والأوروبيات اللاتي يزرن هذا المكان. لكن السيدة داس من نوع مختلف، فهي قد أبدت اهتماما به خلافا للأخريات اللواتي لا يشد اهتمامهن سوى المعبد، ويحتفظن بوجوههن مدفونة في كتب الإرشاد السياحي، أو عيونهن خلف عدسات الصوّارات.

كان متشوقا للبقاء معها لوحده، ولأن يواصلا حديثهما الخاص، ومع ذلك أحسّ بالعصبية من المشي إلى جوارها. كانت ضائعة خلف نظارتها الشمسية، تتجاهل طلبات زوجها بأن يلتقط لها صورة أخرى، وتمر بأولادها كأنهم غرباء عنها. وخوفا من أن يضايقها، مشي في المقدمة ليتملى كما هي عادته في تجسدات سورايا (ابن الإله) الثلاثة بالحجم الطبيعي، يبرز كل منها من كوّته الخاصة في واجهة المعبد لتحية الشمس في الفجر، وفي منتصف النهار، وفي

المساء. ارتدت التماثيل عمامات مركبة، وكانت عيونها الناعسة الطويلة مغلقة، وتدلت فوق صدورها سلاسل منحوتة وتمائم، كما نُثرت عند أقدامها الرمادية المخضرة أوراق الخبازي وهي قرابين من زوار سابقين. كان التمثال المفضل عنده هو الأخير المنتصب عند الجدار الشمالي. فملامح هذا السورايا تحمل تعبيرا مُتعبا، ويبدو مرهقا بعد يوم من العمل الشاق، يمتطي ظهر جواده ضاما ساقيه، وحتى عينا حصانه تبدوان غائمتين. ومن حوله تواجدت تماثيل أصغر حجما لأزواج من النساء يدفعن بأفخادهن إلى الجانب.

"من هذا؟" سألت السيدة داس، وقد تفاجأ عندما وجدها بجانبه.

" إنه الاستاشالا ـ سورايا. وتعني الشمس الغاربة."

" خلال ساعتين إذاً ستغرب الشمس من هذا المكان؟" ثم أخرجت قدما من أحد خفيها المربعتي الكعوب، وفركتها على مؤخرة ساقها الأخرى.

" هذا صحيح."

رفعت نظارتها للحظة ثم أعادتها. " بارع!"

لم يكن متأكدا تماما من دلالة هذه العبارة، لكن لديه أحساس بأنها إيجابية. وتمنى أن تكون قد فهمت قيمة جمال السورايا وسطوته. ربما سيستفيضان في النقاش حول هذا الموضوع من خلال

رسائلهما. سيشرح لها الأمور كل الأمور المتعلقة بالهند، وهي بدورها ستشرح له عن أمريكا. بهذا الأسلوب سيحقق هذا الأمرُ حلمه في القيام بدوره كمترجم بين الأمم. ثم حانت منه التفاتة إلى حقيبتها القشية، وشعر بالسرور لأن عنوانه يرقد بين محتوياتها. وعندما تخيلها على بعد آلاف الأميال منه، وقع قلبه إلى الحد الذي أحس معه برغبة عارمة في أن يلف ذراعيه حولها، وأن يتجمد معها، ولو للحظة، في عناق سيكون سورايا، الأثير لديه، شاهدا عليه. لكن السيدة داس بدأت في المشي بالفعل.

" متى ستعودون إلى أمريكا ؟" سألها محاولا التزام الهدوء.

" خلال عشرة أيام."

وبدأ يعدّ في سِره. أسبوع لكي يستقروا، وأسبوع لإظهار الصور، وعدة أيام لتكتب رسالتها، وأسبوعان لوصولها جوًا إلى الهند. وفقا لحساباته، ومع السماح ببعض الوقت للتأخير، فمن المقرر أن تصله أخبار من السيدة داس خلال حوالي ستة أسابيع.

ران على العائلة الصمت أثناء عودته بهم إلى فندق ساندي فيلا بعد الرابعة والنصف بقليل. جلب الأطفال معهم مجسمات من الصوّان لعجلات العربة من كشك لبيع التذكارات، وظلوا يديرونها بين أيديهم، بينما استمر السيد داس في قراءة دليله السياحي. وفكت السيدة داس شعر تينا بفرشاتها، ثم فرقته إلى ذيلي حصان.

استبد به الفزع من فكرة إنهاء الرحلة وتركهم، فهو ليس على استعداد بعد لبدء أسابيع انتظاره الستة قبل أن يسمع شيئا عن السيدة داس. وبينما كان يسترق النظر إليها في المرآة الخلفية، وهي تضع شرائط مرنة في شعر الفتاة، تساءل في نفسه كيف يمكنه إطالة أمد الرحلة. من المألوف أن يعود مسرعا إلى بيوري سالكا طريقا أقصر مسافة، في شوق للعودة إلى بيته لتنظيف يديه وقدميه بصابون الصندل، والاستمتاع بقراءة صحيفة المساء وتناول كوب الشاي الذي تقدمه له زوجته في صمت. مجرد التفكير في ذلك الصمت الذي اعتاده، بدأ يشعره بغمّ شديد. حينذاك اقترح عليهم زيارة مرتفعات أوداياجيري، وخانداغيري التي تنتصب فوقها بعض الأديرة التي تواجه بعضها في ممر ضيق. وأخبرهم بأن المكان يبعد عدة أميال لكن مشاهدته تستحق عناء الرحلة.

" نعم فهناك إشارة إلى ذلك في هذا الدليل، وقد شيدها أحد ملوك الغايان، أو شيء من ذلك." قال السيد داس.

" هل نذهب إلى ذلك إذاً ؟" سأل السيد كاباسي، وتوقف عند منعطف الطريق. " إنها إلى الشمال."

التفت السيد داس نحو زوجته، وهز كلاهما كتفيه.

" إلى الشمال، إلى الشمال! " صاح الأطفال.

دوّر المقود، ويكاد الارتياح الذي غمره أن يُظهر انفعاله. ولم يعرف ماذا يفعل أو ماذا يقول للسيدة داس عند وصولهم إلى المرتفعات. ربما سيخبرها بروعة ابتسامتها، وربما سيطري قميص الفراولة الذي ترتديه، والذي وجد أنه لا يُقاوم. أو ربما سيمسك يدها عندما يكون السيد داس منشغلا بالتقاط الصور.

لم يكن عليه أن يقلق. فعندما وصلوا إلى المرتفعات التي يفصل بينها ممر عميق تحيطه أشجار كثيفة، رفضت السيدة مغادرة السيارة. على طول الممر كان هناك عشرات من القردة جالسة فوق الحجارة، وفوق أغصان الأشجار، تمدّ أرجلها أمامها وترفعها إلى مستوى الكتف لتريح أذرعها فوق ركبها.

" أحس وكأن ساقي مقيدتان. " قالت وهي تغوص في مقعدها. " أريد أن أبقى هنا. "

" لماذا ارتديت هذا الحذاء السخيف. إن بقيت هنا فلن تظهري في الصور." قال السيد داس.

" تخيّل أنني موجودة فيها."

" لكن بإمكاننا استخدام إحدى هذه الصور لبطاقات المعايدة في أعياد الميلاد هذا العام. ولم نلتقط صورة نظهر فيها نحن الخمسة في معبد الشمس. يستطيع السيد كاباسي القيام بذلك ."

" لن أذهب. وعلى العموم فهذه القردة تخيفني."

" لكنها أليفة،" قال ثم التفت إلى السيد كاباسي "أليست كذلك؟"

" القردة خائفة أكثر من كونها خطيرة، لا تستثيروها بتقديم الطعام. ولن تزعجكم."

سار السيد داس صاعداً الممر ومعه الأولاد. كان الولدان إلى جانبه والطفلة فوق كتفيه، وراقبهم السيد كاباسي أثناء لقائهم رجلا وامرأة يابانيين، كانا السائحان الوحيدان في المكان، توقفا لالتقاط صورة أخيرة، ثم صعدا سيارة قريبة وغادرا المكان. عندما كانت السيارة تختفي من المكان، صرخت بعض القردة، مطلقة صيحات خفيفة، ثم سارت على أيديها المسطحة مسافة قدم في الممّر، وعند نقطة معينة كونت مجموعة منها حلقة صغيرة حول السيد داس والأطفال. صاحت تينا بحبور، وركض روني في دوائر حول والده، بينما انحنى بوبي والتقط عصا غليظة من الأرض، وعندما مدها أمامه اقترب منه أحد القرود وخطفها منه ثم ضرب بها الأرض لبعض الوقت.

" سألتحق بهم، فهناك الكثير مما يستحق الشرح حول الكهوف." قال وهو يفتح الباب المجاور له.

" كلا. انتظر لحظة." ثم نهضت عن المقعد الخلفي، وجلست في المقعد المجاور له." راج لديه كتابه المُملّ على أي حال." ثم راقبا سوية من خلال الزجاج الأمامي بينما كان بوبي والقرد يتبادلان الإمساك بالعصا بينهما.

" يا له من فتى شجاع،".

" ليس ذلك بغريب عنه."

" لماذا؟"

" ليس ابنه."

" عذراً؟"

" ليس ابن راج، إنه ليس ابن راج."

أحس بوخز في جلده، فامتدت يده إلى جيب قميصه لإخراج قنينة روح زيت اللوتس الصغيرة التي يحملها معه طوال الوقت ووضع منها في ثلاثة مواقع في جبهته. كان يعرف أنها تنظر إليه، لكنه لم يلتفت لمواجهتها. بدلاً من ذلك تابع مراقبة هيئات السيد داس والأطفال تصغر في الحجم وهم يصعدون المرتفع الشاهق، ويقفون بين فينة وأخرى لالتقاط صورة، تحيط بهم أعداد متزايدة من القردة.

" هل تفاجئت؟" جعلته الطريقة التي وجهت بها السؤال يتريث في اختيار كلماته.

" ليس ذلك من نوعية الأشياء التي يفترضها المرء،" أجاب ببطء، وهو يعيد القنينة إلى جيبه.

" لا. بالطبع لا. ولا أحد يعرف ذلك بالطبع. لا أحدٌ على الإطلاق. لقد احتفظتُ بالأمر سراً طوال ثماني سنوات." نظرت إليه، وهي تميل بذقنها وكأن ذلك سيقدم لها منظوراً جديداً. "ولكنني أخبرتك الآن."

هزّ رأسه. ثم أحس وكأنما جسده قد جفّ فجأة، وصار جبينه ساخناً متنملاً من أثر الزيت. وخطر له أن يطلب منها جرعة ماء ثم عدّل عن ذلك.

" لقد التقينا عندما كنا صغاراً جداً،" قالت ثم مدت يدها داخل حقيبتها القشية باحثة عن شيء ما، وأخرجتها مع كيس من الأرز المقلي. "هل تريد شيئاً منه؟"

" كلا. شكراً."

وضعت قبصة منه في فمها، واتكأت على المقعد قليلاً، ثم نظرت بعيداً عنه من خلال النافذة المجاورة لها. "تزوجنا أثناء دراستنا في الجامعة. وكنا ما نزال في المدرسة الثانوية عندما تقدم لي، وبالطبع ذهبنا إلى الجامعة نفسها. في تلك الأيام لم نتحمل فكرة فراقنا عن بعضنا. ليس ليوم واحد. وليس حتى لدقيقة. كان والدانا أفضل أصدقاء

ويقطنان البلدة نفسها. وطوال حياتي كنت أراه كل عطلة أسبوعية في بيتنا أو في بيتهم. كان والدانا يرسلوننا للّعب في الطابق العلوي بينما هم يتبادلون النكات حول زواجنا. تخيل ذلك! فهم لم يفاجئوننا في أي وقت، رغم أنه بشكل ما فقد كان الأمر برمته مرتباً. باستطاعتي أخبارك العديد من الأشياء التي كنا نفعلها في أماسي الجمعة والسبت بينما يجلس أهلنا ويشربون الشاي في الأسفل."

أضافت أنه نتيجة لقضائها أغلب وقتها في الجامعة مع راج، فلم تكوّن أية صداقات حميمة. لم يكن لديها أحد تودعه أسرارها في نهاية اليوم، أو تتقاسم معه فكرة عابرة أو مشغلة ما. يقطن والداها الآن في الطرف الآخر من العالم، لكنها لم تكن قريبة منهما أبداً في جميع الأحوال. بعد زواجهما في سن مبكرة، فاجأتها الأمور كلها. إنجاب طفل بسرعة، والعناية به، تسخين زجاجات الحليب، واختبار درجة حرارتها بوضع القليل منها على رسغها، كل ذلك وراج في عمله، مرتدياً فانلة وسروال جينز، يحاضر الطلبة عن الصخور والديناصورات، ولم يبدُ راج أبداً غاضباً أو متضايقاً، أو حتى بديناً كما أصبحت هي بعد إنجاب طفلها الأول.

كانت منهمكة عل الدوام، فلم تلب دعوات صديقة أو اثنتين لها من أيام الجامعة لتناول الغداء أو التسوّق في مانهاتن. في النهاية توقفت الصديقات عن الاتصال بها، وهكذا تُركت لتمضي أوقاتها في

البيت طوال اليوم محاطة بالدمى التي جعلتها تتعثر إن مشت وتتأوه إن جلست عليها. كانت غاضبة ومتعبة طوال الوقت. لم يغادرا البيت إلا قليلاً بعد ولادة روني، وكانت استقبالاتهما للأصدقاء أقل من ذلك بكثير. ولم يزعج هذا الوضع راج، فقد كان يتشوق للعودة إلى البيت بعد إعطاء الدروس ليشاهد التلفزيون وينطط روني على ركبتيه. وغضبت عندما أبلغها بأن صديقاً بنغالياً، كانت قد التقته من قبل لكنها لا تتذكره، سيقيم معهم لمدة أسبوع لعزمه إجراء مقابلات للحصول على وظيفة في منطقة برونزوك.

حبلت بوبي في العشية، فوق أريكة ملآنة بدمى مطاطية للتسنين بعد أن علم الصديق بأن شركة لندنية قد وظفته، وبينما كان روني يصرخ طالباً أن يحرر من المشاي. لم تعترض عندما لمس الصديق المنطقة الصغيرة العارية من ظهرها أثناء إعدادها للقهوة، ثم جذبها لتلتصق ببذلته النظيفة ذات اللون الأزرق البحري. مارس معها الحب بسرعة، وبصمت، وخبرة لم تعهدها من قبل، ودون التعبيرات الظاهرة والابتسامات التي كان راج يصر على إطلاقها فيما بعد. وفي اليوم التالي حمل راج الصديق بسيارته إلى المطار. لقد صار متزوجاً الآن من فتاة بنجابية، ومازالا يعيشان في لندن، وفي كل عام يتبادلان بطاقات معايدة الكريسماس مع راج ومينا، ويرفق كل زوج صور عائلته مع الخطابات. لم يكن يعرف أنه والد بوبي، ولن يعرف مطلقاً.

" عذراً يا سيدة داس، ولكن لم أخبرتني بهذه المعلومات؟" سألها عندما انتهت من حديثها والتفتت إليه من جديد.

" بحق الرب،توقف عن مناداتي بالسيدة داس، فأنا لم أزل في الثامنة والعشرين وربما كان لديك أولاد في مثل عمري."

" ليس تماماً."

كان مصدر إزعاج له أن يعرف بأنها تنظر إليه كوالد، وهكذا فقد تبخر قليلاً الشعور الذي حمله لها، ودفعه إلى مراقبة صورته في المرآة الخلفية.

" لقد أخبرتك ذلك بسبب ما تملكه من مواهب." قالت، وهي تضع كيس الأرز المقلي في حقيبتها من جديد دون أن تغلقه.

" لا أفهم ما تقولين."

" ألا ترى ذلك، فطوال ثماني سنين لم أتمكن من البوح بهذا الأمر لأي شخص، ليس لأصدقائي، وبالتأكيد ليس لراج. فهو لا يشك حتى بالأمر ويظن أنني مازلت مغرمة به. حسنُ، أليس لديك ما تقوله؟."

" حول ماذا؟"

" حول ما أخبرتك به للتو، عن سرّي، وعما أحس به من سوء

فأنــزعجُ كلمــا نظــرت إلى راج، وإلى أولادي. انــزعاج دائــم. تنتابنــي رغبات فظيعة يا سيد كاباسي، لكي أرمي الأشياء بعيداً. وذات يوم تملكتني رغبة في رمي كل شيء خارج النافذة. التلفزيون، الأولاد، كل شيء. ألا تعتقد أنه شعور غير سوي؟"

التزم السيد كاباسي الصمت.

" سيد كاباسي، أليس لديك ما تقول؟ لقد اعتقدت أن هذا من صميم عملك."

" عملي هو إرشاد السياح، يا سيدة داس."

" لا أعني هذا العمل، بل الآخر، أي المترجم."

" لكننا لا نواجه مشكلة لغة هنا، فما الحاجة لمترجم؟"

" ليس هذا ما قصدت وإلا ما كنت أخبرتك بالموضوع. هل تتخيل ما يعنيه بالنسبة لي أن أطلعك على الأمر؟"

" ما معنى ذلك؟"

" لا يعني سوى أنني قد تعبت من الشعور بالانزعاج طوال الوقت. ثماني سنوات يا سيد كاباسي، لقد عانيت الألم لثماني سنوات. وراودني أملٌ بأنك ستجعلني أحس بتحسن، فتقول لي الشيء المناسب، وتقترح علي علاجاً ما."

نظر إليها في تنورتها الحمراء بنقوشها التربيعية المتصالبة، وقميصها برسمة الفراولة. امرأة لم تبلغ الثلاثين بعد، لم تحب زوجها أو أولادها، وقد وصلت إلى حد كراهية الحياة. جعله اعترافها يحس بالضيق، وأحس به أكثر عندما فكر في السيد داس أعلى الممر؛ تتعلق تينا بكتفيه، بينما يلتقط الصور للأديرة العتيقة المنحوتة في الجبال ليطلع تلامذته في أمريكا عليها. غير دار أو أنه يشك بأن واحداً من أبنائه ليس من صلبه. أحس بالإهانة أن تطلب منه أن يعلل لها سرها الصغير الوضيع التافه، فهي لا تشبه المرضى في عيادته الطبية في شيء، أولئك الذين يأتون محبطين بعيون معتمة، يجدون صعوبة في النوم، أو التنفس، أو التبول، والأهم من ذلك عدم مقدرتهم التعبير عن ألمهم. مع ذلك فقد أحس أن واجبه يفرض عليه مساعدتها، ربما عليه أن يخبرها بأن تعلم زوجها بالحقيقة، وسيشرح لها بأن الأمانة والصدق هما أفضل سياسة تتبعها، وبالتأكيد سيجعلها هذا التصرف تشعر بأنها أفضل حالاً. ربما سيعرض عليها أن يشرف على النقاش بينهما كوسيط. وهكذا قرر أن يبدأ بالسؤال الأكثر بداهة من أجل الوصول إلى لب القضية، فسألها، " هل ما تشعرين به هو الألم، أم الشعور بالذنب، يا سيدة داس؟ "

التفتت نحوه غاضبة، وكان زيت المسطردة كثيفاً فوق شفتيها. فتحت فمها لتقول شيئاً، لكن ما أن بينت له غضبها حتى

بدا أن نوعاً من اليقين برز أمام عينيها، فتوقفت. وقد حطمه ذلك؛ حيث عرف في هذه اللحظة أنه ليس مهماً بما يكفي حتى لإهانته. ثم فتحت باب السيارة وبدأت في صعود الممر، متعثرة قليلاً في حذائها بكعبه الخشبي المربع، ومفتشة في حقيبتها القشية لتناول بعض الأرز المقلي. تناثر الأرز من بين أصابعها مخلفاً وراءها أثراً متعرجاً فحث ذلك أحد القرود على القفز من شجرة لالتقاط الحبوب البيضاء. وفي معرض للبحث عن المزيد أخذت القرود في السير وراء السيدة داس، ثم أنضم إليهم المزيد وسرعان ما كان في أثرها حوالي ست منها يجرون ذيولهم الناعمة خلفهم.

غادر السيارة، وأراد الصياح لتنبيهها بطريقة ما، لكنه خشي أن تزداد عصبيتها عند معرفتها أنهم وراءها. ربما ستفقد توازنها وربما ستقوم القردة بجذب رجلها أو شعرها. بدأ في صعود الممر هرولة، حاملاً غصن شجرة في يده لإخافة القرود بينما استمرت هي في السير غافلة عما يجري وراءها، وحبات الأرز المقلي تسقط منها. بالقرب من قمة المرتفع، وعند مجموعة من الحجيرات التي تواجد أمامها صف من الأعمدة الحجرية كان السيد داس يجثو على الأرض محاولاً تركيز عدسات صوّارته، أما الأطفال فوقفوا تحت مظلة الرواق يظهرون تارة ويختفون تارة أخرى.

" انتظروني، أنا قادمة إليكم." قالت السيدة داس.

أخذت تينا في القفز "ها هي ماما قد أتت!"

" عظيم،" قال الأب دون النظر إلى أعلى، "في الوقت المناسب، وسنطلب من السيد كاباسي التقاط صورة لنا نحن الخمسة."

جدّ السيد كاباسي في سيره، ملوحاً بغصنه لكي تفرّ القردة بعيداً، وليشتت انتباهها في مكان أخر.

" أين بوبي؟" سألت عند توقفها.

ترك صوارته ونظر إلى أعلى، " لا أعرف. يا روني، أين بوبي؟"

هزّ روني كتفيه " اعتقدت أنه كان هنا."

" أين هو؟" كررت بحدة." ماذا دهاكم؟"

بدؤوا ينادون على اسمه وهم يسيرون أعلى وأسفل الممر. وبسبب نداءاتهم لم يسمعوا صراخ الصبي في أول الأمر. وعندما عثروا عليه تحت الشجرة على امتداد الممر كان محاطاً بمجموعة من القرود، أكثر من درزينة منهم، يجذبون أطراف قميصه بأصابعهم السوداء وكان الأرز المقلي الذي بددته السيدة داس متناثراً عند قدميه وقد خلطته القردة بالتربة. كان الصبي صامتاً وقد تجمد جسمه تماماً، والدموع الغريزة تنهال من عينيه فوق وجهه الفزع. ساقاه العاريتان مغبرتين وحمراوين من الخدوش أثر ضرب القردة له بشكل متكرر بالعصا التي أخذت منه من قبل.

" بابا، القرد يؤذي بوبي،" قالت تينا.

مسح السيد داس راحتيه فوق مقدمة سرواله القصير، ونتيجة لعصبيته ضغط خطأ على زر التبديل في الصوارة، فعمل صوت تمرير الفيلم على استثارة القردة، وبدأ الممسك بالعصا منها بضرب الصبي بتركيز أكثر.

" ماذا يجب أن نفعل؟ وماذا لو بدأت بالهجوم؟ سيد كاباسي!" صاحت به بعد أن لاحظت وقوفه على جانب. "افعل شيئاً بحق الرب. افعل شيئاً!"

رفع السيد كاباسي غصنه لطردها بعيداً، وكشر في وجه التي بقيت واقفة منها وظل يخبط قدميه قبالتهم لإخافتها. بدأت الحيوانات في التراجع ببطء وبمشية محسوبة، ممتثلة ولكن مكرهة. ثم التقط الصبي بين ذراعيه وأحضره إلى حيث يقف والداه وإخوته. راودته رغبة أثناء حمله أن يهمس بالسر في أذن الصبي. لكن بوبي كان مرعوباً، يرتجف من الخوف، وتسيل الدماء من ساقيه في المواقع التي مزقت فيها العصا جلده. عندما سلمه إلى والديه أخذت الأم في مسح بعض التراب عن فانلة الصبي وألبسته قبعته. فتشت في حقيبتها القشية لتخرج رباطاً ألصقته على الجرح في ركبته. وقدم روني لأخيه قطعة علكة جديدة." إنه بخير، وهو خائف قليلاً فقط، صحيح يا بوبي؟" قال السيد داس وهو يربت فوق الصبي.

" يا إلهي دعونا نغادر من هنا، فهذا المكان يخيفني." قالت السيدة داس، وهي تطوي ذراعيها فوق الفراولة على صدرها.

" نعم، بالتأكيد يجب أن نعود إلى الفندق." وافقها زوجها.

" يا بوبي المسكين، تعالى إلي للحظة ودع ماما تصلح لك شعرك." ومرة أخرى امتدت يدها إلى حقيبتها القشية، لكن هذه المرة بحثاً عن فرشاة شعرها، وبدأت تمررها تحت طرف القبعة الشفافة. عندما أخرجت فرشاة الشعر بسرعة، خرجت معها قصاصة الورق التي كتب عليها عنوانه، وطيرتها الريح بعيداً. ولم يلاحظ ذلك غير السيد كاباسي، الذي راقبها وهي تصعد أعلى فأعلى في تيار الهواء، متجهة نحو الأشجار حيث تجلس القردة بوقار تراقب المشهد من تحتها مثلما كان يراقبه السيد كاباسي، وهو يعرف أن هذه هي الصورة التي سيحفظها في ذهنه لعائلة داس إلى الأبد.

خفير مناسب

لم يغمض لبوري ما، كنّاسة بئر السلم، جفنٌ طوال ليلتين، وعليه قامت في صباح الليلة الثالثة بتنفيض لحافها من الحشرات، وهزت الأغطية مرّة تحت صناديق البريد حيث اتخذت لها مرقدا، ثم مرة أخرى عند مدخل الزقاق متسببة في تفريق جمع من الغربان كان يقتات على الخضراوات في اتجاهات عدة.

أثناء صعودها سلالم الطوابق الأربعة نحو سطح البناية احتفظت بوري ما بيدها فوق ركبتها التي تتورم في كل موسم أمطار، الأمر الذي دعا أن تمسك بكل من الدلو، واللّحُف، وحزمة القصب التي تستخدمها كمقشة بذراع واحدة. لقد بدأت بوري ما تعتقد في الآونة الأخيرة أن تلك الدرجات أصبحت أكثر ارتفاعا، وعملية ارتقائها صارت أشبه بارتقاء سلم، منه لدرج بناية. كانت في الرابعة والستين من عمرها وقد عقصت شعرها في ربطة ليست أكبر من حبة جوز، وبدت بوري ما من الواجهة رفيعة، تكاد تماثل ما تبدو عليه عند النظر إليها من الجانب.

في الواقع كان الشيء الوحيد الذي يبدو ثلاثي الأبعاد في بوري

ما، هو صوتها. فهو رقيق بما فيه من أسىً، ولاذع مثل خثارة اللبن، وحاد بما يكفي لنزع ثمرة جوز عن بزرتها. وكانت تستخدم صوتها مرتين في اليوم أثناء كنس بئر السلم، لتروي عن تفاصيل معاناتها وما تكبدت من خسائر منذ ترحيلها إلى كلكوتا بعد التقسيم. قالت بأن ما حدث من اضطراب في ذلك الوقت فصلها عن زوج، وأربع بنات، وبيت من الطوب الأسمنتي من طابقين، وقطعة أرض مزروعة بخشب الورد، وعدد من صناديق الخزانة التي ما تزال تعلق مفاتيحها، مع ما تملك من مدخرات، ربطتها إلى الطرف المُرسل من ساريها.

بالإضافة إلى ما كابدته من معاناة فالشيء الثاني الذي كانت بوري ما، تحب التأريخ له هو أيام عزها. وهكذا ما أن تصل إلى بسطة الطابق الثاني إلا وتكون قد شدّت اهتمام سكان البناية كلها إلى قائمة الطعام التي أعدّت لليلة زفاف ابنتها الثالثة. "لقد زوجناها لمدير مدرسة. فطبخنا الأرز في ماء الورد، ودعونا محافظ البلدة، كما غسل الجميع أصابعهم في أواني بيوترية من القصدير." عند هذا الحد توقفت لالتقاط أنفاسها، ولكي تعدّل من وضع الأشياء تحت ذراعها، وكذلك انتهزت الفرصة لمطاردة صرصار بعيدا عن أعمدة الدرابزين، ثمّ واصلت الحديث: " قدّمنا لهم القريدس المدخن بالبسطرمة في أوراق الموز، ولم نغفل عن إعداد كافة المقبلات، ولا يعد هذا تبذيرا بالنسبة لعائلتنا فقد اعتدنا أكل لحم الماعز مرتين أسبوعيا، ويوجد في الأرض التي نملكها بركة مياه مليئة بالأسماك."

حينذاك أمكنها رؤية بعض الضوء القادم من السطح لينساب داخل بئر السلم. ورغم أن الوقت لم يتعدّ الثامنة صباحا، إلا أن الشمس كانت من القوة لتدفئ أخر درجات السلم الإسمنتية تحت قدميها. كانت البناية موغلة في القدم، فهي من النوع الذي ما زالت مياه الحمامات فيها تحفظ في براميل، ونوافذها بدون زجاج، ومقاعد المراحيض فيها مشيدة من الطوب.

" كنا نؤجر رجلا لجمع ثمار النخيل، والجوافة، وآخر لتشذيب شجيرات الخبازي. نعم، لقد تذوقتُ طعم الحياة هناك.. أما هنا فأتناول عشائي في طنجرة الأرز" عند هذا الحد أخذت أذُنا الراوية بوري ما، تحرقانها وأخذ الألم ينهش ركبتها المتورمة. " هل ذكرتُ لكم إنني قد اجتزت الحدود مرتدية زوجا من الأساور فقط في رسغي؟ ومع ذلك مرّت علي أيام لم تمس قدماي فيها سوى المرمر. صدقوني، لا تصدقوني، فمثل هذه النعم لا يمكنكم حتى الحلم بها."

لا أحد يعرف تماما إن كان هناك ثمة حقيقة في ما تردده بوري ما من روايات، سوى أمر واحد. وهو أن ممتلكاتها العقارية السابقة كانت تتضاعف في المساحة، مثل حال قطعة الأرض، وصناديق خزانتها. لم يشك أحد في كونها لاجئة، فقد بينت لهجتها البنغالية ذلك بوضوح. رغم ذلك فسكان هذه البناية لم يستطيعوا التوفيق بين ادعاءاتها حول حياتها المترفة السابقة، وبين الطريقة

التـي عـبرت بهـا حـدود البـنغال الـشرقية مـع آلاف غيرهـا علـى ظهـر شـاحنة وبـين زكـائـب القـنـب. مـع ذلـك فـهـنـاك أيـام أصـرّت فـيهـا على حضورها إلى كلكوتا فوق عربة تجرها الثيران.

"بأيـة طـريقة أتـيـت... بالـشاحنة أم بالعـربة؟" كـان الأطـفـال يـسألونها أحـيـانـا وهـم في طـريقهم للعـب عـسكر وحـرامية في الـزقـاق. كانـت تجيـب علـى هـذا الـسؤال بهـز الطرف المُسدل من سـاريها لكي تخـشخش المفاتـيح المـربوطة فـيه: "لمـاذا تطالـبون بالتفاصيل ولمـاذا نحـاول كـشط عـصير اللـيمون مـن أوراق الـتامول؟ صـدقوني، لا تصدقوني، فحياتـي مؤلفة من مثل هذه المآسي التي لا يمكنكم حتى الحلم بها."

وهكذا كانـت تتعثـر في سـرد الحقائـق وتنـاقض نفسها. تـنمّق كل شيء تقـريبا، لكـن تـبجحاتها كانـت غايـة في الإقـناع، وهـيجانها مليء بالحيوية بحيث كان من الصعوبة تجاهلها.

أي نـوع مـن مـلاك الأراضي ينتهي بهـا المطاف لتصبح كناسة درج بـنـايـة؟ هكذا تـساءل دومـا الـسيد دالال من الطابـق الـثالـث أثـنـاء ذهابـه مـن وإلى عملـه، حـيث يقـوم بـتدوين واصـلات الاسـتلام لمـوزّع أنـابيب مطاطية، وصمامات بالجملة، في منطقة أشغال السمكرة في شارع الجامعة.

هـراء. ربمـا كانـت تخـتلق الـروايات، وهـو أسـلوبها في تعـزية نفسها عن فقد عائلتها. كان هذا هو الرأي الجماعي لأغلب الزوجات في تلك البناية.

أصبحت العبارة المعهودة على لسان العجوز شاترجي: "إنّ فم بوري ما، مليئ بالرماد ولكنها ضحية تبدّل الأزمنة." لم يذهب السيد شاترجي أبعد من شرفة شقته، ولم يفتح صحيفة قط منذ الاستقلال. لكن بالرغم من هذه الحقيقة، أو ربما بسببها، فإن آراءه تجد تقديرا عاليا. لكن النظرية التي بدأت تسود في نهاية المطاف هي أنّها قد عملت ذات مرة أجيرة لرجل غني في الشرق، وهكذا كان باستطاعتها المبالغة في تضخيم ماضيها إلى مثل هذه المدايات وبهذه الاتساعات، كما أن الخداع الصادر عن حنجرتها لم يؤذ أحدا أبدا. لقد اتفق الجميع على أنها مسلية بارعة، وحافظت لهم على درج بنايتهم نظيفا بالكامل مقابل السماح لها بالعيش تحت صناديق البريد. والأكثر أهمية الذي أحبه السكان حولها، هو أنها تنام الليالي خلف باب البناية المهترئ، فتقف بالتالي في وضع دفاعي بينهم وبين العالم الخارجي.

لا أحد في هذه البناية بالذات يملك الكثير مما يستحق السرقة، وأرملة الطابق الثاني السيدة ميسرا، هي الوحيدة التي لديها خط هاتفي. مع ذلك فالسكان ممتنون لنشاطات بوري ما، في القيام

بدوريات في الزقاق، وفي مراقبة الباعة المتجولين الذين يطرقون المكان من باب لآخر لبيع أمشاط الشعر والشالات ، وكان باستطاعتها استدعاء عربة ريكشا خلال دقيقة، وباستطاعتها كذلك بعدّة خبطات من مقشتها، أن تطرد أي مشتبه به يظل طريقه إلى المنطقة لكي يبصق فيها، أو يتبوّل، أو يسبب بعض المشاكل.

باختصار فالخدمات التي قدمتها بوري ما، على مدى السنين تماثل ما يقوم به خفير مناسب، رغم أنه في ظروف طبيعية، فهذا العمل لا يعد مناسبا للنساء. كانت على قدر المسؤولية، وليست أقل يقظة وحرصا من أي حارس بناية أو بيت في الطريق الدائرية السفلية، أو في حدائق جودهبور، أو في أية ضاحية راقية أخرى.

نشرت بوري ما، لُحُفها على حبل غسيل فوق السطح. كان السلك مشدودا في خط قطري من إحدى زوايا الحاجز إلى الزاوية المقابلة، وامتدت أمام ناظريها هوائيات التلفزيونات، ولوحات الإعلانات، والدعامات المقوّسة البعيدة لجسر هاوراه. فتشت خط الأفق في الاتجاهات الأربعة، ثم فتحت صنبور مياه في قاعدة الصهريج، وغسلت وجهها وقدميها، كما استخدمت إصبعين لدعك أسنانها. بعد ذلك شرعت في خبط اللحف بالمقشة من كلا الجانبين. كانت تتوقف بين لحظة وأخرى ممعنة النظر في الأرضية الإسمنتية، أملا منها في التعرف على المجرم المتسبب في لياليها المؤرقة. كانت

شديدة الانهماك في عملها هذا، وتطلب منها الأمر عدة لحظات قبل أن تكتشف وجود السيدة دالال من الطابق الثالث التي صعدت لتضع سفرة مملوءة بقشور الليمون لتجف في الشمس. عندها قالت بوري ما. "مهما يكن الذي بداخل هذا اللحاف، فهو يمنعني من نوم الليل. هل ترينها؟"

تكنّ السيدة دالال معزّة خاصة لبوري ما؛ وأحيانا تقدم للعجوز شيئا من عجين الزنجبيل لتنكّه به طبيخها. "لا أرى شيئا." قالت السيدة دالال بعد برهة. كان لديها جفون شفافة، وأصابع غاية في الرقة، مزينة بالخواتم.

" لابد وأن لها أجنحة إذاً،" استنتجت بوري ما، ثم وضعت مقشتها جانبا وراقبت السحب وهي تلاحق بعضها البعض. " فهي تطير قبل أن أتمكن من سحقها، ولكن ما عليك إلا النظر إلى ظهري، فلابد أن لونه أرجواني من أثر اللسع."

رفعت السيدة دالال ثنية ساري بوري ما المصنوع من قماش أبيض رخيص الثمن له حواشي بلون بركة مياه قذرة. فحصت الجلد فوق وتحت قميصها الذي كان من طراز قديم ما عاد يباع في الأسواق، ثم قالت. "أنت تتخيلين الأشياء يا بوري ما."

" أقول لك إن هذه الحشرات تأكلني حية."

" قد يكون مجرد طفح جلدي.".

حينذاك هزت بوري ما الجزء الحر من ساريها، فصلصلت المفاتيح، وقالت، "أعرف ما هو الطفح الجلدي، وهذا ليس طفحا. فأنا لم أذق طعم النوم لثلاثة أو أربعة أيام. من باستطاعته العدّ؟ كنت في السابق أنام في فراش نظيف، وأغطيتنا من الموسلين. صدقيني، لا تصدقيني، فقد كانت شباكنا المانعة للبعوض ناعمة كالحرير. ومثل هذه الرفاهية، لا يمكنك حتى الحلم بها."

" لا يمكنني حتى الحلم بها." ردت السيدة دالال، ثم خفضت جفونها الشفافة وتنهدت. "لا يمكنني أن أحلم بها يا بوري ما، فأنا أعيش في غرفتين حقيرتين، ومتزوجة من رجل يبيع كماليات الحمامات." ثمّ التفتت إلى الجهة الأخرى ونظرت إلى أحد اللحُف. مررت إصبعا فوق مكان الخياطة وسألت:

"كم مضي عليك وأنت تستخدمين هذا اللحاف؟"

وضعت بوري ما إصبعا فوق شفتيها قبل أن تجيبها بأنها لا تتذكر.

" لماذا إذاً لم تذكري الأمر حتى اليوم؟ هل تعتقدين أنه ليس بمقدورنا تزويدك بلحف نظيفة؟ أو حتى بقماش مناسب مثلا؟" وبدت مُهانة.

" لا حاجة لذلك فهي نظيفة الآن، وأقوم بتنفيضها يوميا."

" لن أسمع أي جدال في الموضوع، فأنت في حاجة إلى فراش نظيف، ولحف، ووسادة، وبطانية عند حلول الشتاء." أثناء حديثها ظلت السيدة دالال تعدد قائمة المتطلبات عن طريق لمس براجم أصابعها بإبهامها.

"في أيام الاحتفالات كان الفقراء يقصدون بيتنا من أجل الولائم." قالت بوري ما وهي تملأ دلوها من كوم فحم في الجانب المقابل من السطح.

" سأتحدث مع السيد دالال عند عودته من المكتب." ثم صاحت عند تأهبها لنزول الدرج. "تعالي في العشية، وسأعطيك بعض المخللات، وشيئا من البودرة لظهرك."

" ليس طفحا جلديا." ردت بوري ما.

صحيح أنّ الطفح الجلدي كان أمرا مألوفا أثناء موسم الأمطار، لكنها فضلت الاعتقاد بأن ما يزعج فراشها، ويسرق نومها، وما كان يلهب فروة رأسها التي تزداد حساسية، ويلهب ظهرها مثل فلفل حار هو أمر أقل من عادي.

اجترت تلك الأفكار أثناء كنسها بئر السلم ـ دائما ما تعمل من الأعلى للأسفل ـ . عندما تبدأ الأمطار في الهطل الذي جاء بقوّة

هذه المرة، فإنها تضرب سطح البناية مثل أقدام صبي ينتعل شبشبا كبير الحجم، وهكذا جرفت شرائح قشر ليمون السيدة دالال في الميزاب. وقبل أن تسنح الفرصة للمترجلين لفتح مظلاتهم أسرع المطر ينساب وراء ياقات قمصانهم، وداخل جيوبهم، وأحذيتهم؛ وفي هذه البناية والبنايات المجاورة لها أقفلت مصاريع النوافذ الصّارة، ورُبطت بخيوط التنانير إلى الألواح الحديدية للنوافذ.

في تلك اللحظة بالذات كانت بوري ما مستمرة في العمل نزولا بالقرب من بسطة الطابق الثاني، فحانت منها التفاتة إلى الدرجات التي صارت تشبه درجات السلالم في صعوبة ارتقائها. وبينما ضيّق صوت المطر الهاطل الخناق من حولها، عرفت بأن لحُفها ستتحول إلى ما يشبه اللبن الرائب.

لكن حينذاك تذكرت محادثتها مع السيدة دالال، فاستمرت في عملها بالإيقاع نفسه لتنظيف الغبار، وأعقاب السغائر، ومغلفات حبوب المص من باقي الدرجات حتى تصل إلى منطقة صناديق البريد في القاع. ولمنع تسرب الرياح بحثت في سلالها عن صحف فحشرتها في فتحات على شكل معيّن في البوابة المهترئة، ثم بدأت في إعداد غدائها فوق دلو الفحم، وأخذت تمروح اللهب بمروحة يدوية من النوع المطوي.

كما هي عادتها فقد حلت بوري ما شعرها في تلك العشية

وفكت رباط طرف ساريها، وشرعت في إحصاء مدخرات عمرها. كانت قد صحت لتوّها من قيلولة دامت عشرين دقيقة فوق فراش من أوراق الصحف. توقف المطر، وبدأت رائحة بغيضة رطبة ناتجة عن أوراق المانغو المبللة معلقة فوق الزقاق.

اعتادت زيارة سكان البناية في عشيات معينة، واستمتعت بالتنقل من بيت لآخر. ومن جانبهم فقد طمأنها السكان بأنها ستظل مرحبا بها دائما، فهم لا يوصدون مغاليق أبوابهم سوى في الليل. كانوا ما يزالوا يمارسون حياتهم اليومية من توبيخ الأطفال، أو حساب مصروفاتهم، أو تنقية أرز العشاء من الحصي. ومن فترة إلى أخرى يقدمون لها كوبا من الشاي، وعلبة بسكويت، وتقدم هي بعض المساعدة للأطفال بالمشاركة في لعبة الكرومة. ولأنها تعرف أن عليها ألا تجلس على الأثاث فكانت ترتمي بدلا من ذلك فوق الأرضية في مداخل الأبواب والصالات، وتحافظ على الالتزام بالتصرفات والآداب مثلما يحرص أي شخص على الالتزام بآداب المرور في مدينة غريبة عنه.

في هذه العشية بالذات قرّرت قبول دعوة السيدة دالال. فظهرها ما يزال يؤلمها حتى بعد نومها فوق أوراق الصحف، كما أنها رغبت في النهاية في الحصول على بودرة للطفح الجلدي. أمسكت بمقشتها ـ فهي لم تشعر أبدا براحة من دونها ـ وكانت على وشك صعود الدرج عندما توقفت عربة ريكشا عند البوابة المهترئة.

كان ذلك السيد دالال. لقد تركته السنون التي أمضاها في كتابة النماذج والواصلات بأهلّة أرجوانية تحت جفنيه. لكن نظرته اليوم كانت مشرقة، فرأس لسانه يلعب بين أسنانه، وفي حضنه كان يحمل حوضين من السيراميك.

" لدي عمل لك يا بوري ما، ساعديني على حمل هذه الأحواض إلى فوق." أخذ يضغط منديلا مطويا فوق جبينه، ورقبته، ثم نقد سائق الريكشا عملة معدنية، وقام مع بوري ما بنقل الأحواض إلى الطابق الثالث. في النهاية عند دخوله الشقة أعلن لزوجته ولبوري ما، ولعدد من السكان الذين تبعاهما بدافع الفضول الأمور التالية: إن ساعاته التي يقضيها في كتابة الإيصالات لموزع الأنابيب والمواسير المطاطية والصمامات قد ولّت، وإنّ الموزع ذاته الذي يبحث عن التغيير، بعد أن تضاعفت أرباحه، سيفتتح فرعا ثانيا في بوردوان، وبعد تقييمه لمثابرة السيد دالال في العمل طوال السنين الماضية فقد رقّاه إلى وظيفة مدير فرع شارع الجامعة. وفي معرض ابتهاجه بهذا الأمر وعند مروره بمنطقة بيع مواد السباكة اشترى السيد دالال حوضي الغسيل.

" ماذا يفترض أن نفعل بحوضين في شقة بغرفتين؟" أرادت السيدة دالال أن تعرف. كانت ما تزال عابسة بسبب ما حل بقشور ليمونها. "من سمع بهذا الأمر قط، فمازلتُ أطهو الطعام فوق موقد

كيروسين، وأنت ترفض التقدم بطلب للحصول على خط هاتف. وأيضا ما زلتُ أنتظر البراد الذي وعدت بإحضاره عند زواجنا. فهل توقعت أن يعوّض حوضان عن كل ذلك؟"

صوت الشجار الذي تلا ذلك كان من العلوّ بحيث وصل تحت إلى صناديق البريد، وكان من العلوّ والاستمرارية ليطغى فوق صوت رخة ثانية من المطر هطلت بعد حلول الظلام. كان عاليا جدا حتى أنه صرف انتباه بوري ما، أثناء كنسها بئر السلم من أعلى إلى أسفل للمرة الثانية في ذلك اليوم. وللسبب ذاته لم تتطرق إلى الصعوبات التي واجهتها أو إلى أيام العز التي مرت في حياتها. وأمضت الليل على فراش من أوراق الصحف.

كان الشجار بين الزوجين ما يزال ساري المفعول بشكل ما في صباح اليوم التالي حتى عند حضور فريق من العمال الحفاة لتركيب الحوضين. فبعد ليلة قضاها بين التقلب في فراشه، وذرْع المكان جيئة وذهوبا، قرر السيد دالال تركيب أحدهما في غرفة جلوس شقتهما، وتركيب الثاني في بسطة الطابق الأول من درج البناية. طفق يشرح لهم الأمر من باب إلى آخر: "أنّ بإمكان الجميع استخدامه." وأبدى السكان ابتهاجهم؛ فقد أمضوا كل تلك السنين ينظفون أسنانهم بماء مخزن يصبونه في أكوان.

في غضون ذلك كان السيد دالال يفكر في الأمر: " من المؤكد أن

وجود حوض غسيل في بئر السلم سيعجب الزوار، والآن بعد أن صار مدير شركة، فمن يعرف من قد يزور البناية؟"

كدح العمال لساعات، وركضوا أعلى الدرج وأسفله، تناولوا سندوتشاتهم متكئين على أعمدة الدرابزين. واستمروا في الطرق، والصياح، والبصق، والسب، ومسحوا عرقهم المتصبب بأطراف عماماتهم. وبشكل عام وجدت بوري ما استحالة في كنس الدرج في ذلك اليوم.

صعدت بوري ما إلى السطح لتمضية الوقت، وتحركت ذهابا وإيابا بين حواجز السطح، لكن أوراكها آلمتها نتيجة نومها فوق أوراق الصحف. وبعد أن مسحت الأفق في النواحي الأربع، أخذت تمزق ما تبقى من لُحفها إلى العديد من الشرائط، حيث قررت أن تلمع بها أعمدة الدرابزين في وقت لاحق.

في وقت مبكر من المساء تجمع السكان للإعجاب بما أنجزه العمال. حتى بوري ما استُحثت لكي تغسل يديها في ذلك الماء الجاري النظيف. وتنشقت أنفها قائلة: "كانت مياه حماماتنا معطرة بالورود والعطور. صدقوني، لا تصدقوني، فقد كانت تلك رفاهية لا يمكنكم حتى الحلم بها."

تابع السيد دالال استعراض مزايا الحوض المختلفة، فأغلق

وفتح كل صنبور حتى النهاية، ثم فتح الصنبورين معا في الوقت ذاته ليبين الفرق في ضغط المياه، رافعا عتلة صغيرة بين الصنبورين لتجميع المياه في الحوض إن رُغب في ذلك.

" إنها آخر صرعة في الأناقة." هكذا ختم الرجل استعراضه.

" إنها علامة أكيدة على تبدل الأزمنة." يقال أن السيد شاترجي اعترف من فوق شرفته.

مع ذلك سرعان ما دب التذمر بين الزوجات. فعند وقوفهن في طابور صباحي لجلي أسنانهن شعرت كل منهن بالإحباط لاضطرارها انتظار دورها، ولأن تمسح الصنابير بعد كل استخدام، وكذلك لعدم تمكنها من ترك صابونها ومعجون أسنانها على حاشية الحوض الضيقة. لقد كان لعائلة دالال حوضهم الخاص، فلماذا يتوجب على بقيتهم المشاركة؟

" ليس في مقدورنا شراء أي أحواض." انفجرت إحداهن في النهاية ذات صباح.

وتساءلت أخرى." هل آل دالال هم الوحيدون الذين بإمكانهم تحسين وضعية هذه البناية؟"

بدأت الإشاعات تنتشر وكانت من قبيل: بعد شجارهما أرضى السيد دالال زوجته بأن اشترى لها كيلوين من زيت المسطردة،

وشال كشميري، وعشر قطع من صابون خشب الصندل؛ وأن السيد دالال كتب نموذجا لطلب خط هاتفي، وأن السيدة دالال لا تفعل شيئا طوال اليوم سوى القيام بغسل يديها في حوضها الخاص. كأن ذلك لم يكن كافيا، فقد توقفت في صباح اليوم التالي سيارة أجرة وحشرت عجلاتها في الزقاق. كانت وجهتها محطة قطارات هاوراه، وقال السيد دالال إنهم مسافرون إلى سملا، لمدة عشرة أيام.

" لم أنسك يا بوري ما، وسأحضر لك بطانية من صوف الغنم من صنع سكان الجبال." صاحت السيدة دالال عبر نافذة سيارة الأجرة المفتوحة، وكانت ممسكة بحقيبة جلدية في حجرها يماثل لونها الحواشي الفيروزية للساري الذي ترتديه.

" سنحضر لك اثنتين منها،" صاح السيد دالال الجالس بجانب زوجته، وفي الوقت نفسه فتش جيوبه للتأكد من وجود محفظته.

من بين كل سكان البناية، بوري ما هي الوحيدة التي كانت تقف بجانب البوابة المهترئة عند رحيلهم وتمنت لهم رحلة آمنة.

ما أن قرّر آل دالال الرحيل حتى بدأت بقية الزوجات في التخطيط للقيام بتحويرات خاصة بهن. حيث قررت إحداهن أن تقايض مجموعة من أساور عرسها للبدء في عملية طلاء بئر السلم باللون الأبيض، ورهنت أخرى آلة حياكتها لاستدعاء متخصص في

رش المبيدات، وذهبت ثالثة إلى صانع فضة فباعته مجموعة من الأواني الفضية لأنها رغبت في طلاء مصاريع النوافذ باللون الأصفر.

بدأ العمال يشغلون هذه البناية بالذات ليلا ونهارا. ومن أجل تجنب الازدحام أخذت بوري ما، تنام فوق السطح. وهكذا أخذ الكثير من الناس يمرون عبر البوابة المهترئة، وسدّ كثيرون غيرهم الزقاق في كافة الأوقات، فلم يكن هناك طائل من متابعتهم.

بعد أيام نقلت بوري ما سلالها ودلو طبخها إلى السطح أيضا. ولم يكن بها حاجة لاستخدام حوض الغسيل في الأسفل، حيث يمكنها الغسل، كما فعلت دائما، من صنبور الصهريج. وهي ما تزال عازمة على تلميع أعمدة الدرابزين بالقطع التي مزقتها من لحفها، كما استمرت في النوم فوق أوراق الصحف.

هطل المزيد من المطر، وتحت المظلة التي يقطر منها الماء جلست بوري ما القرفصاء وقد وضعت صحيفة فوق رأسها، وأخذت في مراقبة نمل المونسون أثناء سيره على حبل الغسيل، حاملا بيوضه في أفواهه، بينما كانت رياح رطبة تنعش ظهوره. لقد بدأت أوراق الصحف التي لديها تتناقص منها الآن.

كانت صباحاتها طويلة، وعشياتها أكثر طولا، ولا يمكنها تذكّر آخر كوب شاي تناولته. لم تكن تفكر في ما تواجهه من

صعوبات، ولا في الأيام الخوالي، ولكنها تساءلت متى يعود آل دالال بفراشها الجديد.

بدأ الضجر يتسرب إليها، ومن أجل القيام ببعض التمارين فقد بدأت تتجوّل في المنطقة في أوقات العشية، حاملة مقشة القصب في يدها، وساريها ملطخ بأخبار الصحف. صارت تتسكع في الأسواق، وبدأت تنفق من مدخرات عمرها على مباهج بسيطة: اليوم على علبة من الأرز المقلي، وغدا على بعض ثمار الكاشو، والذي يليه على كوب من عصير قصب السكر. في أحد الأيام مشت كثيرا، فقادتها قدماها إلى أكشاك بيع الكتب في شارع الجامعة، وفي اليوم الذي تلاه مشت أبعد من ذلك إلى أسواق المنتجات في بازار بابو. وهناك كانت تقف في منطقة التسوق تمعن النظر في ثمار الجاك، والبيرسمون فشعرت بشيء يشد على الطرف المسدل من ساريها. وعندما نظرت وجدت أن مدخرات عمرها ومفاتيحها قد اختفت.

في تلك العشية كان سكان البناية ينتظرون عودة بوري ما، عند البوابة المهترئة. ترددت أصداء صيحات حانقة أعلى وأسفل بئر السلم، وكلها تردد الأخبار: لقد سُرق الحوض من بئر السلم. كانت هناك حفرة كبيرة في الجدار المطلي حديثا باللون الأبيض، وقد برزت منه مجموعة من الأنابيب والتوصيلات المطاطية، وغطت المصطبة قطع كبيرة من قشرة الجدار. قبضت بوري ما على مقشتها بقوة ولم

تقل شيئا. وفي معرض عجلتهم حمل السكان بوري ما بالفعل أعلى الدرج ونحو السطح، حيث ثبتوها إلى جانب من حبل الغسيل وأمطروها بوابل من الصراخ من الجانب الآخر.

" كل هذا من صنيعها." صرخت إحداهن، مشيرة إلى بوري ما. "لقد أخبرت اللصوص. فأين كانت حين توجّب عليها حراسة البوابة؟"

" لأيام كانت تجوب الشوارع، وتتحدث إلى الغرباء." قالت أخرى.

" لقد قاسمناها فحمنا، وأعطيناها مكانا تنام فيه، فكيف تخوننا بهذا الشكل؟" أرادت ثالثة أن تعرف.

ورغم أن أيا منهن لم تخاطب بوري ما مباشرة، إلا أنها أجابت: "صدقوني، صدقوني، لم أخبر اللصوص."

"لقد تحملنا كذبك لسنين، وتتوقعين منا أن نصدقك؟" كان ردهن.

تواصلت اتهاماتهن. فكيف يمكنهم شرح الأمر لآل دالال؟ وفي النهاية طلبن نصيحة السيد شاترجي. فوجدنه جالسا في شرفته يراقب ازدحام المرور.

قالت إحدى ساكنات الطابق الثاني. "لقد عرّضت بوري ما أمن البناية للخطر. ولدينا أشياء ثمينة هنا. فالأرملة السيدة ميسرا تعيش وحيدة مع جهاز هاتفها. ماذا نفعل الآن؟"

تملى السيد شاترجي في الأقوال المختلفة. وبينما كان يتمعن في الأمر، عدل من وضعية الشال الذي يلف به كتفيه، وحدق في ستارة أغصان الخيزران الذي يحيط الآن بشرفته. فمصاريع النافذة من خلفه التي لا يذكر لها لونا أبدا، صار لونها أصفر الآن. أخيرا قال:

"فم بوري ما مليء بالرماد، ولكن هذا ليس بالجديد، الجديد هو مظهر البناية. فبناية بمثل هذا الشكل في حاجة إلى خفير مناسب."

وهكذا رمي السكان دلوها، وسلالها، ومقشتها أسفل الدرج، مرورا بصناديق البريد وعبر البوابة المهترئة نحو الزقاق. ثم ألحقوا ذلك ببوري ما. لقد كانوا جميعا في لهفة للبدء في بحث عن خفير مناسب.

من كل كومة مقتنياتها، لم تحتفظ سوى بالمقشة. "صدقوني، صدقوني،" قالت مرة أخرى بينما كان خيالها يبتعد. وهزت الجزء المسدل من ساريها لكنها لم تسمع رنينا.

عندما يأتي السيد بيرزادا للعشاء

في خريف عام 1971 اعتاد رجلٌ الحضور إلى بيتنا، يحمل الحلويات في جيبه وآمالٌ في تلقي تأكيد عن وفاة أفراد عائلته أو بقائهم على قيد الحياة. كان اسمه السيد بيرزادا، وهو من دكا عاصمة بنغلاديش الآن؛ لكنها حينذاك كانت جزءا من باكستان التي شهدت حربا أهلية في ذلك العام. كانت الجبهة الشرقية حيث تقع دكا، تقاتل للحصول على استقلالها من النظام الحاكم في الجزء الغربي. وفي شهر مارس تعرضت دكّا للغزو، وأحرقت، وقُصفت من قبل الجيش الباكستاني؛ وكان المعلمون يُسحبون إلى الشوارع ويجري إطلاق النار عليهم، أما النساء فيسحبن إلى المعسكرات ويُغتصبن. ومع نهاية الصيف يقال أن ثلاثمائة ألف إنسان قد أزهقت أرواحهم. كان للسيد بيرزادا في دكا بيت من ثلاثة طوابق، يشغل وظيفة محاضر في علم النباتات في الجامعة، وله زوجة لعشرين عاما، وسبع بنات بين السادسة من العمر والسادسة عشر، تبدأ أسماؤهن جميعا بالحرف أ. " تلك فكرة أمهن." كما شرح لهم ذات يوم، وهو يُخرج من محفظته صورة بالأبيض والأسود لسبع بنات في نزهة، يربطن جدائلهن بأشرطة، ويجلسن في صف وقد صالبن سيقانهن، يأكلن

طبيخ الدجاج من فوق أوراق مون. "كيف لي أن أميّز بين آيشة، وأميرة، وأمينة، وأزيزة، فأنتم ترون صعوبة الأمر."

في كل أسبوع يكتب السيد بيرزادا رسالة لزوجته، ويبعث بكتب رسوم كرتونية لكل واحدة من بناته السبع. لكن منظومة البريد كما هي أغلب الأشياء في دكا قد انهارت، ولم يسمع شيئا عنهم لأكثر من ستة أشهر... في هذا الوقت كان السيد بيرزادا متواجدا في أمريكا لمدة عام، حيث تحصل على منحة من حكومة باكستان لدراسة نبات الزينة في نيو إنغلاند. في الربيع والصيف قام بتجميع معلومات من ولايتي فيرمونت وماين، وفي الخريف انتقل إلى جامعة في شمال بوسطن، حيث كنا نعيش، وذلك ليضع كتابا موجزا عن اكتشافاته. عُدّت المنحة تعدّ شرفاً عظيماً، لكن عند تحويلها إلى دولارات فهي ليست بذلك الكرم، ونتيجة لذلك كان السيد بيرزادا يسكن في عنابر للطلبة الخريجين، ولا يملك غاز طبخ مناسب أو جهاز تلفزيون خاص به، وهكذا كان يأتي إلى بيتنا لتناول العشاء ومشاهدة الأخبار المسائية في التلفزيون.

في بادئ الأمر لم أعرف شيئا عن أسباب زياراته لنا. كنت في العاشرة من عمري، ولم يفاجئني أن يقوم والداي وهما من الهند، ولهما العديد من المعارف بين الهنود في الجامعة، بدعوة السيد بيرزادا لمقاسمتنا وجباتنا. كنا نقطن تجمعا سكنيا صغيرا، له ممرات ضيقة

من الطوب، ومبان بأعمدة بيضاء، تقع في ضواحي ما يبدو أنها قرية أصغر حجما. لا يوجد سوق القرية زيت المسطردة، ولم يقم الأطباء بعيادة المرضى في بيوتهم، أو يقم الجيران بالزيارات أبدا دون دعوة؛ وغالبا ما تذمر والداي من هذه الأشياء. في معرض بحثهما عن أشخاص من وطنهما، كانا مع بداية كل فصل دراسي يتتبعان بأصابعهما قوائم الأسماء في دليل الجامعة، ويضعان علامة على ألقاب الأشخاص المألوفة في ذلك الجزء من العالم الذي جاءا منه. وبهذا الأسلوب اكتشفا السيد بيرزادا، وقدما له الدعوة لزيارتنا في البيت.

لا أذكر زيارته الأولى لنا، أو الثانية، أو الثالثة، ولكن مع نهاية سبتمبر كنت قد تعوّدت على وجوده في غرفة معيشتنا وعندما كنت ألقي بكعوب من الثلج في حافظة الماء طلبتُ من أمي أن تعطيني كوبا رابعا من خزانة بعيدة عن متناول يدي. كانت أمي مشغولة عند موقد الطبخ تشرف على قلي طبق من السبانخ والفجل، ولم تتمكن من سماعي بسبب الضوضاء الصادرة من مروحة التهوية، وصوت الخرط الذي تحدثه الحركة المحمومة لملعقة التحريك. التفتُّ نحو أبي الذي كان يتكئ على البراد، ويلتهم حبات الكاشيو المبهّرة من قبضة يده.

"ما الأمر يا ليليا؟"

" أريد كوبا للرجل الهندي."

" لن يأتي السيد بيرزادا اليوم، أما الأكثر أهمية فإنه لا يعتبر من الهنود بعد الآن." أعلن أبي وهو ينفض ملح حبوب الكاشيو عن لحيته السوداء المشذبة. "ليس منذ الانفصال، فقد قُسمت بلادنا في العام 1947."

عندما قلت إنني اعتقدت أن هذا هو تاريخ استقلال الهند عن بريطانيا، قال أبي، "وهو كذلك أيضا، في لحظة كنا أحرارا، ثم جرى تقطيع أوصالنا." شرح لي وهو يرسم حرف x على سطح النضد " لقد قُطعنا كما تقطع الكعكة، الهندوس هنا، والمسلمون هناك. ودكا لم تعد تتبع بلادنا." أخبرني أبي إن المسلمين والهندوس كانوا يضرمون النار في بيوت بعضهم أثناء الانفصال، ولسنين طوال كانت فكرة أن يشارك بعضهم الطعام مع غيرهم تبدو بعيدة عن الحسبان.

لم يبدُ الأمر معقولا بالنسبة لي، فالسيد بيرزادا ووالدي كانا يتحدثان اللغة نفسها، ويضحكان للنكات نفسها، ويبدوان متشابهين بشكل أو آخر. كانا يتناولان مخلل المانغو مع وجباتهما، ويستخدمان أيديهما في تناول الأرز مع العشاء في كل ليلة. ومثل والدي كان السيد بيرزادا يخلع نعليه قبل دخوله إلى إحدى الغرف، ويمضغ بذور الشمار بعد الوجبات للمساعدة في الهضم، ولا يتعاطى الكحول، وللتحلية كان يغطس بسكويت أوستري في عدد متتال من أكواب الشاي. مع ذلك أصر أبي على أن أفهم الفارق بيننا، وقادني نحو خريطة للعالم معلقة

على الجدار خلف مكتبه. كان يبدو مشغولا بأن السيد بيرزادا قد يشعر بالإهانة إن أشرت إليه بأنه هندي، بالرغم من أنني لا أتخيل حقا أن السيد بيرزادا قد يشعر بالإهانة لأي سبب. "السيد بيرزادا بنغالي، لكنه مسلم." أخبرني أبي، "ولهذا فهو يعيش في باكستان الشرقية، وليس في الهند." مرّ بإصبعه فوق الأطلنطي عبر أوروبا والبحر المتوسط، ثم الشرق الأوسط، وأخير وصل إلى شكل الماسة البرتقالية الممتدة في غير اتساق التي أخبرتني أمي ذات مرة بأنها تشبه امرأة ترتدي الساري وذراعها اليسرى ممدودة. وضعت دوائر على مجموعة من المدن ومُدت خطوط تصلها ببعضها لتبيين الرحلات التي قام بها والداي، والمكان الذي ولدا فيه، كلكوتا، التي مُيزت بوضع نجمة فضية عليها. لقد ذهبتُ إلى هناك مرة فقط ولا أحمل أية ذكريات عن الرحلة. قال أبي "كما ترين يا ليليا فهي بلد مختلف، ولها لون مختلف." كانت باكستان باللون الأصفر وليس البرتقالي، ولاحظت أنها تتكون من منطقتين مختلفتين، إحداهما أكبر من الأخرى بكثير، ويفصلهما عن بعضهما امتداد شاسع من الأرض الهندية؛ كما لو أن ولايتي كاليفورنيا، وكونيتكت تكوّنان دولة واحدة منفصلة عن الولايات المتحدة.

نقر أبي براجم يده على قبعة رأسه."تعرفين بالطبع الوضع السائد الآن؟ وتعرفين عن كفاح باكستان الشرقية من أجل الاستقلال؟"

أومأتُ برأسي، وأنا غير عارفة بالوضع.

عدنا للمطبخ، حيث كانت أمي تصفي قدرا من الأرز في المصفي. وفتح أبي العلبة الموجودة فوق النضد ناظرا نحوي بتمعن من فوق إطار نظارته أثناء التهامه حبات الكاشيو. "ماذا بالضبط يعلمونك في المدرسة؟ هل تدرسين التاريخ؟ والجغرافيا؟"

قالت أمي، " لدي ليليا الكثير لتتعلمه في المدرسة، فقد ولدت هنا، ونحن نعيش هنا الآن." كانت تبدو وكأنها فخورة فعلا بهذه الحقيقة، كما لو أنها انعكاس لشخصيتي. وعرفت أنه وفقا لتقديرها، فقد ضمنتُ حياة آمنة، وسهلة، وتعليما راقيا، ومُنحتُ كل الفرص. فلن أضطر أبدا للحصول على الطعام بنظام التقنين، أو الالتزام بأنظمة منع التجول، أو مشاهدة أعمال الشغب من سطح البيت، أو أن أخفي الجيران في صهاريج الماء لأحميهم من الرمي بالرصاص كما فعلت هي وأبي. "تخيل محاولة إلحاقها بمدرسة محترمة، وتخيلها تحاول القراءة بين فترات انقطاع التيار على ضوء مصابيح الكيروسين، تخيل الضغوطات، والمعلمين، والامتحانات التي لا تنتهي." مررت يدا خلال شعرها، الذي قصته ليكون طوله مناسبا لعملها الإضافي كموظفة في مصرف. "كيف تتوقع معرفتها لشيء عن الانفصال؟ وابتعد عن حبات الكاشيو هذه."

" لكن ما الذي تعلمتهُ عن العالم؟" وهز أبي علبة الكاشيو في يده. " ما الذي تتعلمهُ؟"

بالطبع كنا ندرس التاريخ الأمريكي، وجغرافية أمريكا. هذا العام، وفي كل الأعوام على ما يبدو، بدأنا الدراسة عن حرب الثورة الأمريكية، ونُقلنا في حافلات مدرسية لزيارة صخرة بلايموث، وللسير فوق ممر الحرية، ولنتسلق قمة تذكار بنكر هيل. أعددنا صور اليورما من ورق تصنيع ملوّن تمثلُ جورج واشنطن أثناء عبوره المياه المضطربة لنهر ديلاوار، كما صنعنا دمى للملك جورج مرتديا سروالا أبيض ضيقا وربطة فراشية فوق شعره. خلال الاختبارات كانوا يقدمون لنا خرائط بدون معالم للمقاطعات الثلاث عشرة، ويطلبون إلينا أن نضع الأسماء والتواريخ، والعواصم. وكان أستطيع القيام بذلك وعيناي مغلقتان.

في المساء التالي وصل السيد بيرزادا كالعادة في الساعة السادسة. ورغم أنهما لم يعودا غريبان عن بعضهما، فقد واظب هو وأبي على المصافحة عند كل لقاء.

" تفضل يا سيدي، خذي معطف السيد بيرزادا من فضلك يا ليليا."

خطا داخل الردهة مرتديا بذلة تخلو من العيوب، ووشاحا مع ربطة عنق حريرية. في كل مساء كان يظهر مرتديا طقما من الألوان الكمثرية، والزيتية، والبنية الغامقة. كان مكتنزا، وبالرغم من أن ساقيه منبعجتان بشكل دائم وبطنه منتفخ قليلا، إلا أنه حافظ مع ذلك على وضع جسماني منتصب، وكأنه يوازن في كلتا يديه حقيبتين

متماثلتين في الوزن. كانت أذناه معزولتين بخصلات من الشعر الأشيب الذي بدا وكأنه يصد عنهما زحام الحياة غير المرغوب فيه. له أهدابٌ كثيفة مظللة بمسحة من الكافور، وشنب ضخم يرتفع قليلا عند الأطراف، وشامة بدت مثل حبة زبيب مطعوجة في وسط خده الأيسر. ارتدى فوق رأسه قبعة سوداء مطوية من صوف الخروف الفارسي، مثبتة بدبابيس شعر مسطحة. ولم يحدث أن رأيته من دون هذا اللباس. ورغم أن أبي عرض على الدوام أن يحضره إلينا بسيارته، إلا أن السيد بيرزادا فضل المشي من مقر إقامته في العنابر إلى منطقتنا، وهي مسافة تستغرق عشرين دقيقة مشيا، يتأمل خلالها الأشجار، وأسوار شجيرات الأجمة المشذبة. وعندما يدخل بيتنا تكون براجم يديه قد تحوّلت إلى اللون الوردي بفعل نسيم الخريف البارد.

" للأسف فما هو إلا لاجئ آخر في أرض هندية."

" لقد قُدّر عددهم بتسعة ملايين في التعداد الأخير." قال أبي.

سلمني السيد بيرزادا معطفه، لأنه كان من مهامي أن أعلقه على المشجب عند قاع الدرج. كان المعطف مصنوعا من مربعات زرقاء ورمادية من الصوف الرائع، ببطانة مخططة وأزرار مصنوعة من قرون الماشية، كما يحوي في ثناياه رائحة طفيفة من الليمون. لا توجد بداخله أية علامات واضحة سوى قطعة قماشية خيط عليها باليد جملة: " ز. سيّد، للحياكة" بخط مزخرف متصل، وبخيطٍ أسود

لامـع. وفي أيـام معيـنة تجـدُ ورقـة قـيقب أو بـتولا مدسوسـة بإحـدى الجيوب. يفك رباط حذائه ويصفّه بجانب الخزانة، فترى طبقة من وحل ذهبي اللون يلتصق بالنعلين، جاءت من أثر المشي فوق مَمرنا المبلل غير المرصوف. بعد تحلله مما يعيق حركته؛ بخفة يلمس عنقي بأصابعه القصيرة التي لا تهدأ، مثلما يتحسس شخص متانة جدار ما قبل أن يدق فيه مسمارا. وبعد ذلك يتبع أبي إلى غرفة المعيشة حيث التلفزيون على محطة الأخبار المحلية. وما أن جلسا حتى خرجت أمي من المطبخ حاملة طبقا من الكباب، مع طبيخ الكزبرة، فقذف السيد بيرزادا إحدى قطع الكباب في فمه.

قال وهو يمد يده إلى قطعة أخرى، "لا يملك المرء إلا أن يأمل بأن لاجئي دكا يحصلون على مثل هذا الغذاء الجيد، الأمر الذي يذكّرني - " ثم أدخل يده في جيب بذلته، وقدم لي بيضة بلاستيكية صغيرة مليئة بقلوب القرفة. "هذه لسيدة البيت،" قال أثناء قيامه بانحناءة بسيطة لا تكاد تدرك .

احتجّت أمي، "حقا يا سيد بيرزادا، فأنت تدللها ليلة بعد الأخرى."

" لا أقوم بتدليل سوى الأطفال غير القابلين التدليل."

لقد كانت تلك لحظة غريبة بالنسبة لي، فمن ناحية ما

انتظرتها بمتعة. لقد كنت مأخوذة بالحضور المعلن لأناقة السيد بيرزادا، كما أسعدني اهتمامه الذي يتخذ شكلا ممسرحا بسيطا. مع ذلك أقلقتني السهولة الشديدة التي يؤدي بها حركاته، وهو ما جعلني على سبيل المثال مثل الغريبة في بيتي. لقد أصبح ذلك ديدننا، ولعدة أسابيع قبل أن نعتد بعضنا، فذلك هو الوقت الوحيد الذي يحادثني فيه مباشرة. لم يكن لدي رد، ولم أقدم أية ملاحظة، أو أبين أي رد فعل ظاهر على التدفق المتواصل لحبات الحلوى المملوءة بالعسل، وكمآت التوت، والملفوفات الدقيقة من معجنات لها طعم حامض. لم أتمكن حتى من تقديم الشكر له، وعندما شكرته مرة على حلوى الكراميل الكبيرة المثبتة في طرف عود والملفوفة في ورق سولوفان مزهر، رد على الفور، "ما معنى أشكرك؟ فموظفة المصرف تشكرني، ومحصلة النقود في السوق تشكرني، والمكتباتية تشكرني عندما أعيد لها الكتب التي بقيت لدي أكثر من الوقت المقرر، وعاملة الخطوط الدولية في مصلحة الهواتف تشكرني أثناء محاولتها الفاشلة إيصالي بدكا، وإذا ما دُفنت في هذه البلاد، لابد وأنهم سيقدمون لي الشكر أثناء مراسم دفني."

من وجهة نظري، لم يكن من اللائق أن أستهلك الحلوى التي يقدمها لي السيد بيرزادا بالشكل المعتاد. لقد تعاملت مع الكنز الذي أحصل عليه في كل ليلة كما أتعامل مع جواهر، أو مع قطعة عملة

أثرية تعود إلى مملكة مندثرة ما: وهكذا كنت أضعها في صندوق صغير من خشب الصندل المنقوش بجانب سريري، وهو الصندوق نفسه الذي كانت جدتي منذ زمن طويل تخزن فيه حبوب الهريسة المسحوقة وتأكلها بعد حمّام الصباح. لقد مثل تذكاري الوحيد من جدة لم أعرفها قط؛ وحتى مجيء السيد بيرزادا إلى بيتنا لم أعثر على شيء يستحق أن أضعه في الصندوق. وكنت قبل جلي أسناني وتجهيز ثياب المدرسة لليوم التالي، غالبا ما أفتح الصندوق والتهم شيئا من حلوياته.

في تلك الليلة، ومثل كل ليلة، لم نتناول عشاءنا على طاولة الأكل حيث يصعب مشاهدة التلفزيون منها. بدلا من ذلك تحلقنا حول طاولة صالون الجلوس الصغيرة، بدون تبادل الأحاديث، وضعنا صحون الطعام على حواف ركبنا. ومن المطبخ كانت أمي تأتي بسيل من أطباق العدس مع البصل المقلي، والفاصوليا الخضراء مع جوز الهند، والسمك المجهز مع الزبيب في الزبادي. كنت أتبعها بأكواب الماء، وطبق يحوي شرائح الليمون، وقرون الفلفل التي يتم شراؤها خلال زيارات شهرية إلى الحي الصيني، ثم تحفظ مجزأة ومكيّسة في المجمدة حيث يحبون تمزيقها وإذابتها في طعامهم.

قبل الأكل عادة ما يقوم السيد بيرزادا بفعل غريب، حيث يُخرج من جيبه الداخلي ساعة يد فضية بدون سير، ويضعها لبعض

الـوقـت فـوق أذنـيـه المـشعرتين، ثـم يملـؤها بـثلاث لفـات سـريعة مـن إبهامـه وسـبابته. وقـد فـسر لـي بأنـه خلافـا للـساعة التـي يـضعها في معصمه، فإن ساعة الجيب معدّلة على التوقيت المحلي في مدينة دكا، وهـو توقـيت مـتقدم عنـا بأربـع عشرة سـاعة. طـوال فترة تـناول الطعـام بقيـت الـساعة فـوق مـنديل ورقـي على الطاولـة الـصغيرة؛ ولم يـبدُ عليه أبدا أنه ينظر إليها.

الآن وبعـد أن علمـت بأنـه لـيس هـنديـا، بـدأت في دراسـته بـتأن أكثـر، في محـاولـة لمعـرفة مـا يجعلـه يـبدو مخـتلفا؛ ورأيـت أن الـساعة الإضـافية هـي إحـدى هـذه الأشـيـاء. عـندمـا شـاهدتها تلـك اللـيلة وهـو يملـؤها ويـرتب وضعها فـوق الطاولـة، تملكنـي إحـساس بعـدم الـراحة، لأنـنـي اكتـشفت أن الحـيـاة تـبدأ في دكـا أولا. تخـيلت ابنتـي الـسيد بـيرزادا وهمـا تنهـضان مـن الـنوم، وتـربطان شـعرهما بـالأشـرطة اسـتعدادا للإفطـار والـذهاب إلى المدرسـة. إذاً، فوجـبـات طعامـنـا، وأفعالـنـا، مـا هـي إلا ظـل لما قد حدث هنـاك بـالفعل؛ شبح متأخر عن المكان الذي ينتمي إليه السيد بيرزادا بـالفعل.

في الـسادسة والـنصف، موعد نـشرة الأخـبار الـوطنية، يرفع أبي صـوت التلـفزيون ويعـدل وضـع الهوائـي. عـادة مـا أشـغل نفـسي بقـراءة كتـاب، لكـن في تلك الليلة أصر أبـي على أن أعير انتبـاهي للتلفزيون، فكـان أن شـاهدت على الـشاشة بـنـايات مهدمـة، ودبـابـات تـسير عبر

شوارع مغبرة، وغابات مجهولة هرب إليها اللاجئون من باكستان الشرقية بحثا عن الأمان وراء الحدود الهندية. رأيت قوارب بأشرعة هوائية تطفو على سطح أنهار عريضة يشبه لون مياهها القهوة، ورأيت جامعات محاطة بالمتاريس، ومكاتب صحيفة جرى حرقها وتدميرها. التفت لأنظر إلى السيد بيرزادا، ورأيت الصور تنعكس مصغرة في عينيه. أثناء مشاهدته للمناظر، بدا وجهه ثابتا وقد ارتسم عليه تعبير لا يتغير؛ هادئ لكنه متيقظ، وكأن أحدا يقدم له التوجيهات للوصول إلى مكان مجهول.

أثناء الإعلان دخلت أمي إلى المطبخ لتحضر المزيد من الأرز، وتباحث السيد بيرزادا مع أبي حول سياسات جنرال يدعى يحي خان. تحدثا حول مكائد لم أعلم بها، وكارثة لم أستوعب أبعادها "انظري، إنهم أطفال في مثل سنك، وما يقومون به هو ليتمكنوا من المقاومة." قال أبي وهو يقدم لي قطعة إضافية من السمك، لكني لم أستطع تناول المزيد من الطعام. لم يكن بوسعي إلا استراق النظر نحو السيد بيرزادا الجالس بجانبي مرتديا بذلته بلونها الأخضر الزيتي بينما كان يسوّي بكل هدوء حفرة في كوم أرزه ليفسح مكانا لغَرفة إضافية من العدس. إنه لا يمثل فكرتي عن رجل مثقل بمثل هذه الاهتمامات الجدية، وتساءلت إن كان السبب في ارتدائه للملابس الأنيقة هو استعداد منه لأن يتحمل بوقار أي أخبار يمكن أن

تفاجئه، وربما حتى حضور جنازة في وقت وجيز. تساءلت أيضا عما يمكن أن يحدث لو ظهرت بناته السبع فجأة على الشاشة يبتسمن ويلوحن مرسلات القبل لأبيهن من شرفتهن. وتخيلت أيضا كم سيريحه ذلك؛ لكن هذا الأمر لم يحدث أبدا.

في تلك الليلة عندما وضعت الكيس البلاستيكي المملوء بقلوب حلوى القرفة في العلبة المجاورة لسريري، لم يراودني ذلك الرضا الاحتفالي الذي عادة ما أشعر به. حاولتُ التفكير في السيد بيرزادا مرتديا معطفه العابق برائحة الليمون، وحاولت ربطه بهذا العالم الجموح الهائج الذي شاهدناه منذ ساعات في غرفة معيشتنا المضيئة المفروشة بالسجاد. مع ذلك فهو كل ما فكرت به للحظات عديدة. أحسست بتقلص في معدتي عند شغلتني مسألة إذا ما كانت زوجته وبناته الآن ضمن ذلك الحشد الصاخب الهائم على وجهه والذي ظهر على الشاشة في فترات متقطعة. وفي محاولة لإبعاد تلك الصورة نظرت إلى الغرفة من حولي، إلى السرير الأصفر المغطى بالناموسية، وإلى المناظر المؤطرة المعلقة فوق جدران مغطاة بورق أبيض وأرجواني، وإلى الكتابة بقلم رصاص عند باب الخزانة، حيث اعتاد أبي تسجيل بيانات عن طولي في كل أعياد ميلادي. وكلما حاولت إلهاء نفسي، كلما بدأت أقنعها أكثر بأن عائلة السيد بيرزادا قد قضت في أغلب الأحوال. في النهاية أخذتُ قطعة شوكولا مربعة من

العلبة وفعلت شيئا لم أفعله من قبل. وضعت الشوكولا في فمي وتركتها تترطب حتى آخر لحظة ممكنة، ثم وبينما أنا أهضمها ببطء، صليت لأجل أمن وسلامة عائلة السيد بيرزادا. لم أصل من قبل أبدا لأي سبب كان، فلم يتم تدريبي على ذلك، أو إجباري على الصلاة. لكنني قرأت أن الظروف تحتم عليّ ذلك؛ وفي تلك الليلة عندما توجهت إلى الحمام، تظاهرت فقط بغسل أسناني لأنني بشكل ما خفت أن أغسل الصلوات التي تلوتها أيضا. بللت فرشاة الأسنان، وأعدت ترتيب أنبوب المعجون لتفادي توجيه أبوي أية أسئلة، ثم ذهبت إلى الفراش وطعم السكر في فمي.

لم يتحدث أحد في المدرسة عن الحرب التي يجري تتبعها بكل اهتمام داخل غرفة معيشتنا. فقد واصلنا دارسة تاريخ الثورة الأمريكية، وأخبرونا عن مدى الظلم في فرض الضرائب دون تفويض، وحفظنا عن ظهر قلب مقاطع من وثيقة إعلان الاستقلال. أثناء الاستراحة يقسّم الأولاد أنفسهم إلى مجموعتين، المعاطف الحمراء ضد المستعمرات، حيث تطارد إحداهما الأخرى بعنف حول المراجيح والنوّاسات. أما داخل الفصل فغالبا ما تشير معلمتنا، السيدة كنيون، إلى خريطة تظهر من فوق السبورة مثل شاشة سينما، موضحا عليها المناطق التي تنبت فيها زهرة النوار، وترشدنا إلى موقع جرس الحرية. وفي كل أسبوع يقدم لنا تلميذان من الفصل تقريرا عن جانب

معين من الثورة الأمريكية؛ وهكذا أرسلتُ ذات يوم مع صديقتي لورا إلى مكتبة المدرسة لمعرفة كيف جرت أحداث الاستسلام في يورك تاون. سلمتنا السيدة كنيون قصاصة ورق كتب عليها أسماء ثلاثة كتب للبحث عنها في دليل المصنفات. وجدناها على الفور، وجلسنا على طاولة خفيضة للقراءة وتدوين الملاحظات، لكنني لم أتمكن من التركيز. عدت ثانية إلى أرفف الخشب الأشقر، وبالتحديد إلى قسم تحت عنوان (آسيا)؛ وجدت فيه كتبا عن الصين، والهند، وإندونيسيا،وكوريا. وفي النهاية وجدت كتابا بعنوان باكستان: الأرض وشعبها. جلست على مقعد بدون مسند، وفتحت الكتاب فأحدث الغلاف المكسو بالورق صوتا بين أصابعي؛ ثم بدأت أقلب الصفحات التي تعج بصور الأنهار، وحقول الأرز، ورجال يرتدون بزات عسكرية. وجدت فصلا عن دكا وبدأت في القراءة عن معدلات سقوط الأمطار فيها، وعن إنتاجها من القنب. وكنت أتفحص خريطة التوزيع السكاني عندما ظهرت دورا في ممر المكتبة.

" ماذا تفعلين هناك، لقد جاءت السيدة كنيون لتفقدنا."

أغلقتُ الكتاب بصوت عال، وظهرت السيدة كنيون فملأت رائحة عطرها الممر الضيق، ورفعت الكتاب من قمة ظهره كأنه شعرة تلتصق بكنزتي. ثم نظرت فيه قائلة:

" هل لهذا الكتاب علاقة بتقريرك يا ليليا؟"

" كلا يا سيدة كنيون."

" لا أرى سببا إذاً لمراجعته، أليس كذلك؟" ثم أعادته إلى الفجوة الصغيرة في رف الكتب.

* * * *

مع مرور الأسابيع قلت أكثر فأكثر رؤية مشاهد عن دكا في نشرات الأخبار. وعادة ما يأتي الخبر عنها بعد مجموعة الإعلانات الأولى أو الثانية. تعرضت الصحافة هناك للرقابة والمنع، فحُد من عملها، وجرى تغيير الأحبار. ففي بعض الأحيان، بل في الكثير منها، لا يعلن سوى عن حصيلة القتلى، مسبوقة بإعادة للموقف العام. جرى أيضا إعدام الكثير من الشعراء، وحرق المزيد من القرى. بالرغم من كل ذلك، وليلة بعد الأخرى، ما يزال أبواي والسيد بيرزادا يستمتعون بتناول وجبات طويلة متمهلة. بعد إغلاق التلفزيون، وغسل الأطباق وتجفيفها، يتبادلون النكات والقصص، ويغمسون قطع البسكويت في شايهم؛ وعندما يرهقهم النقاش في السياسة، تتحول وجهته إلى ما يحرزه السيد بيرزادا من تقدم في كتابه حول لحاء الأشجار سريعة الزوال في نيو إنغلاند، وعن ترشيح أبي للقيام بالتدريس، وعن عادات الأكل الغريبة لزملاء أمي في المصرف. في النهاية أبلغُ بالصعود إلى الطابق العلوي لأداء وظائفي المدرسية، لكن ما يزال بإمكاني

سماعهم عبر الأرضية، يرشفون المزيد من الشاي، ويستمعون إلى أشرطة كيشور كومار، ويلعبون السكرابل على طاولة الشاي الصغيرة ضاحكين ومتجادلين حول صحة تهجي كلمات إنكليزية. أردت الانضمام إليهم، وأكثر من أي شيء أردتُ مواساة السيد بيرزادا بشكل ما؛ لكن ليس بوسعي القيام بأي شيء أكثر من التهام قطعة حلوى من أجل عائلته، والصلاة من أجل سلامتهم. أما هم فيستمرون في لعب السكرابل حتى موعد أخبار الحادية عشر، وعند منتصف الليل تقريبا يعود السيد بيرزادا إلى مقر إقامته. ولهذا السبب لم أشاهده مطلقا أثناء مغادرته المكان؛ لكن في كل مرة يجرفني فيها النعاس، تتناهى إلى سمعي نقاشاتهم حول مولد أمّة جديدة في الجانب الثاني من هذا العالم.

ذات يوم من أكتوبر سأل السيد بيرزادا فور وصوله: "ما هذه الخضار البرتقالية الكبيرة الموجودة على أعتاب بيوت الناس؟ هل هي نوع من القرع؟"

أجابت أمي " نعم، وذكريني يا ليليا أن أشتري واحدة من السوق."

" وما الغرض منها؟"

" تصنع منها مصباحا بوجه بشري " أجبته وأنا أكشر وجهي، "مثل هذا، لإخافة الناس."

أجاب وهو يردّ لي التكشيرة، " لقد فهمتُ، إنها تصلح لهذا الغرض."

في اليوم التالي أشترت أمي يقطينة مدورة وممتلئة تزن عشرة أرطال، ووضعتها على طاولة الأكل. قبل العشاء وبينما كان أبي والسيد بيرزادا يشاهدان نشرة الأخبار المحلية، أمرتني بتزيين القرعة بأقلام الخطاط، لكنني أردت حفرها بشكل صحيح كما رأيتها في الحي.

قال السيد بيرزادا وهو ينهض عن الأريكة، " نعم، هيا نحفرها، فلنرجئ الأخبار الليلة." وبدون أن يسأل أحدا توجه إلى المطبخ، وفتح درجا، ثم عاد يحمل سكينا طويلا مشرشرا ونظر إلى طالبا موافقتي وقال " هل أبدأ؟"

هززت رأسي. وللمرة الأولى اجتمعنا حول طاولة الأكل؛ وبينما كان التلفزيون يبث برامجه بدون مشاهدين، قمنا بتغطية الطاولة بأوراق الصحف. أما السيد بيرزادا فوضع سترته فوق ظهر الكرسي من خلفه، ونزع زوجا من أزرار الأوبال في أكمامه، ثم شمر عن ساعديه.

" أولا تدور حول قمتها هكذا،" قلت ، مبينة له بسبابتي.

قام بقطع أولي، ثم سحب السكين على استدارة اليقطينة. وعندما أكمل دورة كاملة رفع الغطاء بحد السكين فترك مكانه دون

عناء، ثم انحنى فوقها لبعض الوقت لفحص محتوياتها وتنشقها. قدمت له أمي ملعقة معدنية طويلة خرط بها محتويات اليقطينة إلى أن أخرج كل ما تبقى من العروق والبذور. في الوقت نفسه فصل أبي البذور عن الكتلة ووضعها لتجف فوق لوح لإعداد الكعك، بحيث يمكننا تحميصها فيما بعد. قمت برسم مثلثين فوق السطح الصلب للعينين، وقام بحفرهما بكل امتثال، مع هلالين للحواجب، ومثلث إضافي للأنف. لم يتبق إلا الفم، وقد مثلت الأسنان تحديا لي، فترددت.

" ابتسامة أم تكشيرة؟ " وجهتُ السؤال.

" الخيار لك، " قال السيد بيرزادا.

كحل وسط، رسمتُ عليها نوعا من التقطيبة التي لم تكن ودية أو حزينة. وبدأ السيد بيرزادا في الحفر دون مشقة كأنه يصنع مشاعل اليقطين طوال حياته. بدأت الأخبار العالمية عندما كان يوشك على الانتهاء من عمله، وذكر المراسل اسم دكا، فاستدرنا جميعا للإنصات لما يقول: أعلن مسؤول هندي أنه ما لم يقدّم العالم مساعداته لرفع العبء عن اللاجئين من باكستان الشرقية، فستضطر الهند للدخول في حرب مع باكستان. كان وجه المراسل يقطر عرقا أثناء نقله الخبر؛ لم يكن يرتدي سترة أو ربطة عنق، وملابسه توحي كأنه سيشارك في المعركة، ويخفي وجهه الذي لفحته الشمس بينما كان يصيح مقابل الكاميرا. فانزلق السكين من يد السيد بيرزادا وأحدث قطعا في قعر اليقطينة.

" أرجـو المعـذرة،" رفـع يـده إلى جانـب وجهـه، وكـأن أحـدهم صـفعه هـنـاك. "أنـا ــ هـذا أمـرٌ مـزعج. سأشـتري واحـدة غيرهـا. وسنحاول من جديد."

" إطلاقا، إطلاقـا،" قـال أبـي وهو يأخذ السكين منه، قام بحفر حول القطع وسوّاه، فأزال تماما الأسنان التي رسمتُها. ما نتج عن ذلك هو حفرة كبيرة غير متناسقة في حجم الليمونة، وهكذا ارتدى مصباحنا اليقطيني تعبير اندهاش هادئ، ولم تعد الحواجب تنم عن غضب، بل تطفو في تفاجؤ مجمد فوق نظرة جامدة خالية من التعبير.

في عيد الهلوين لعبتُ دور الساحرة، وكانت دورا ساحرة أيضا وشريكتي في المطالبة بالحلويات. لبسنا أردية سوداء صنعناها من أغلفة الوسائد المصبوغة، وقبعات قمعية بحواف كرتونية؛ ظللنا وجوهنا باللون الأخضر مستخدمين ظل عيون مكسوركان ملكا لأم دورا، بينما أعطتنا أمي كيسين من الخيش يستخدما لحفظ الأرز الباسمتي، لكي نجمع فيها الحلويات. في هذه السنة قرر أهلنا أننا قد كبرنا بما يكفي للتجول في الحي دون مصاحبة. وقضت خطتنا المشي من بيتي إلى بيت دورا، ومن هناك أهاتف أهلي لإبلاغهم عن وصولي بسلام، ثم تقوم أمها بتوصيلي إلى بيتنا فيما بعد بالسيارة. جهزنا أبي بكشافات يدوية، وكان على ارتداء ساعة يدي لتوليفها مع ساعته، بشرط ألا نتأخر عن الساعة التاسعة.

عند وصول السيد بيرزادا في تلك الأمسية قدم لي علبة من الشوكولا المغلفة بالنعناع.

" ضعها هنا!" قلت له وأنا أفتح كيسي الخيشي." هدية أو مقلب!"

" أعرف أنك لن تكوني في حاجة لمساهمتي هذه الليلة." قال وهو يضع العلبة في الكيس. حملق في وجهي الأخضر وفي القبعة المربوطة بخيط تحت ذقني. وبحذر شديد رفع طرف الرداء الذي كنت أرتدي كنزتي تحته، وسترة صوفية مغلقة بالسحّاب. " هل ستكونين دافئة بما يكفي؟"

هززت رأسي فمالت القبعة إلى الجانب.

عدّل من وضعها. " ربما من الأفضل أن تقفي ساكنة."

كان قاع درجنا محاطا بسلال من الشموع الصغيرة، وعندما نزع السيد بيرزادا حذاءه لم يضعه حيث اعتاد أن يفعل، ولكن بداخل الخزانة. بدأ في فك أزرار معطفه وانتظرت لاستلامه منه، لكن دورا نادتني من الحمام طالبة مساعدتي في رسم شامة على ذقنها. وعندما جهزنا في النهاية، التقطت لنا أمي صورة أمام المدفأة، ثم فتحت الباب الأمامي لنغادر، بينما كان أبي والسيد بيرزادا يحومان في الردهة ولم يتوجها إلى غرفة المعيشة بعد. عم الظلام في الخارج،

وامتلأ الجو برائحة الأوراق المبللة، بينما كان مصباحنا اليقطيني يومض بشكل يثير الإعجاب على خلفية جنبات الباب. من بعيد جاءت أصوات عدوُ أقدام، وصيحات الأولاد الأكبر سنا الذين لم يرتدوا لباسا للمناسبة سوى قناع وجه مطاطي، وأصوات حفيف كساء الأطفال الأصغر سنا؛ بعضهم بالغ الصغر بحيث كان على أبويهم حملهم من باب بيت إلى آخر.

صاح أبي محذرا، " لا تدخلي أي بيت لا تعرفينه."

عقد السيد بيرزادا حاجبيه، " هل ثمة خطر عليها؟"

طمأنته أمي " لا، لا، كل الأطفال سيكونون في الخارج، فهو تقليد."

" ربما عليّ أن أصحبهم." اقترح السيد بيرزادا. فجأة بدا متعبا وصغير الحجم وهو يقف هناك بأقدامه المنفرجة المجوربة، وحوت عيناه ذعرا لم ألحظه من قبل قط. وبالرغم من حالة البرد فقد بدأت أتعرق داخل كنزتي.

قالت أمي، "حقا يا سيد بيرزادا، ستكون ليليا بكل خير مع صديقتها."

" لكن إذا أمطرت فسيظلان طريقهما."

" لا تقلق،" كانت المرة الأولى التي أتفوه فيها بهذه الكلمات

للسيد بيرزادا، كلمتين بسيطتين حاولت لأسابيع أن أقولهما له ولكني فشلت في ذلك، ولم أتلفظ بهما إلا أثناء صلواتي. أحسستُ بخجل الآن بعد أن قلتهما من أجلي أنا.

وضع إحدى أصابعه الغليظة فوق خدي، ثم ضغطه على قفا يده فترك أثرا طفيفا للون الأخضر. "إن أصرّت السيدة،" قال مستسلما، وهو يؤدي انحناءة طفيفة.

غادرنا متعثرين قليلا في أحذيتنا السود المدببة من سوق الأشياء المستعملة، وعندما التفتنا عند نهاية طريق المرآب لنلوح مودعين، كان السيد بيرزادا يقف في مدخل الباب، هيئة قصيرة بين والدي، وكان يرد التحية.

" لماذا أراد الرجل أن يأتي معنا؟" سألت دورا.

" بناته مفقودات." وبمجرد نطقي بتلك الكلمات، تمنيت لو لم أفعل. فقد شعرت أن مجرد قولي لها يجعلها حقيقة، وأن بناته مفقودات بالفعل، وأنه لن يراهن من جديد أبدا.

" تعني أنهن اختطفن من المنتزه أو شيء من هذا القبيل؟"

" لا أقصد أنهن مفقودات، بل قصدت إنه يفتقدهن، فهن يعشن في بلد مختلف، ولم يرهن لبعض الوقت، هذا كل شيء."

عندما تنقلنا من بيت إلى آخر، نسير فوق الممرات ونقرع

أجراس الأبواب؛ وجدنا أن بعضهم قد أطفأ أضواء بيته تماما، أو علق خفافيش مطاطية في النوافذ. في بيت آل ماكلنتري كان هناك تابوت أمام الباب الرئيس، والسيد ماكلنتري ينهض منه في صمت، وجهه مغطى بالطباشير، ووضع حفنة من الحلوى في أكياسنا. كما أخبرني عدد من الناس بأنهم لم يروا ساحرة هندية من قبل، بينما قام بعضهم بمنح الحلوى في صمت. وفي الوقت الذي شققنا فيه طريقنا على هدي الأنوار المتوازية لكشافاتنا اليدوية رأينا بعض البيض المكسور في منتصف الطريق، ورأينا السيارات مغطاة برغوة الحلاقة، وورق حمام يكلل أغصان الأشجار. في الوقت الذي وصلنا فيه إلى بيت دورا كانت أكياسنا الخيشية المكتنزة قد تركت أثرا في أيدينا، وأقدامنا المنتفخة تؤلمنا؛ أعطتنا أمها ضمادات لقروحنا وقدمت لنا شراب التفاح الدافئ والفشار بالكاراميل؛ ثم ذكرتني أن أهاتف والدي لأخبرهما عن وصولي بسلام، وعندما فعلت أمكنني سماع صوت التلفزيون في الخلفية؛ ولم يبد في صوت أمي إحساس كبير بالراحة أثناء مكالمتي لها. عندما أعدت السماعة خطر لي أن التلفزيون غير مدار في بيت دورا، فقد كان أبوها يستلقي على الأريكة متصفحا مجلة ما، وعلى الطاولة أمامه يوجد كأس نبيذ، بينما تصدح موسيقى الساكسافون من مشغل الاسطوانات.

بعد أن فحصنا غنائمنا وأحصينا وعاينا وتبادلنا الموجودات

حتى رضينا، أقلتني أم دورا إلى بيتنا، فشكرتها وانتظرتني إلى أن وصلت إلى باب البيت. في البهرة الصادرة عن أضواء سيارتها رأيت أن مصباحنا اليقطيني قد تكسر إلى أجزاء، وكانت القشرة السميكة منثورة فوق العشب. أحسست بلسعة الدموع في عيني، وألم مفاجئ في حنجرتي كأنما هي مملوءة بحصي حادة دقيقة تنطحن مع كل خطوة أقوم بها على أقدامي المتقرحة. فتحت الباب متوقعة أن أرى ثلاثتهم واقفين في الردهة، وأنهم ينتظرون وصولي لمواساتي بخصوص قرعتنا المهشمة، لكن لم أجد أحدا. في غرفة المعيشة كان السيد بيرزادا وأبي وأمي يجلسون متجاورين على الأريكة. كان التلفزيون مغلقا، والسيد بيرزادا يضع وجهه بين راحتيه.

ما سمعوه في تلك الليلة وفي ليال عديدة تلتها أن الهند وباكستان يقتربان أكثر فأكثر من الدخول في الحرب. وأن القوات من الجانبين تصطف على الحدود، ودكا لا تقبل عن الاستقلال بديلا. كانت الحرب ستقع على أراضي باكستان الشرقية. وكانت الولايات المتحدة تقف مع باكستان الغربية، بينما يقف الاتحاد السوفييتي خلف الهند، وما ستصبحُ قريبا دولة بنغلاديش. أعلنت الحرب رسميا في الرابع من ديسمبر، وبعد اثني عشر يوما استسلم الجيش الباكستاني الذي أضعف كثيرا بعد أن اضطر لخوض حرب على بعد ثلاثة آلاف ميل من قواعد إمداده الرئيسة. كل هذه الحقائق لم

أعرفها إلا الآن لأنها متوفرة من خلال كتب التاريخ في أية مكتبة. لكنها مع ذلك ذكرتني في غالبيتها بأحجية تدور أحداثها في مكان بعيد، ومفاتيح حلها تأتي كيفما اتفق. ما أذكره عن أيام الحرب الاثني عشر تلك أن أبي لم يعد يطلب مني مشاهدة الأخبار معهم، وأن السيد بيرزادا لم يعد يأتي لي بالحلوى، وأن أمي امتنعت عن تقديم أكثر من طبق الأرز مع البيض على العشاء. أتذكر أيضا أنني كنت أساعدها في بعض الليالي لوضع الملاءات والبطاطين فوق أريكة الجلوس لينام عليها السيد بيرزادا، وأتذكر سماع أصوات حادة صارخة في جوف الليل عندما كان أبي يهاتف أقاربنا في كلكوتا لمعرفة تفاصيل أكثر عن الوضع. أكثر من ذلك أتذكر ثلاثتهم يعملون في ذلك الوقت وكأنهم شخص واحد، يتقاسمون وجبة واحدة، وجسما واحدا، وصمتا واحدا، وخوفا واحدا.

في يناير عاد السيد بيرزادا إلى بيته ذي الطوابق الثلاثة في دكا، ليرى ما الذي تبقى منه. لم نره كثيرا في الأسابيع الأخيرة من ذلك العام، فقد كان منشغلا باستكمال مسودة كتابه، وذهبنا نحن إلى فيلادلفيا لقضاء عيد الميلاد مع أصدقاء لوالدي؛ وكما أنني لا أحمل ذكريات عن زيارته الأولى لنا، فلا أحمل ذكريات أيضا عن زيارته الأخيرة. كان أبي قد نقله إلى المطار أثناء تواجدي في المدرسة، ولم نسمع عنه شيئا لمدة طويلة. استمرت أمسياتنا كالمعتاد، نتناول

عشاءنا أمام التلفزيون؛ والفارق الوحيد هو أن السيد بيرزادا وساعته الإضافية لم يكونا متواجدين معنا. وفقا لتقارير الأخبار كانت دكا تتعافى من محنتها ببطء، بعد تشكيل حكومة برلمانية جديدة؛ وكان الشيخ مجيب الرحمن، القائد الجديد الذي أطلق سراحه أخيرا من السجن قد طلب من الدول مواد بناء لتشييد بديل لأكثر من مليون بيت دمرتها الحرب. أعداد غفيرة من اللاجئين الذي فروا إلى الهند عادوا إلى وطنهم لتستقبلهم البطالة وشبح المجاعة. في كل مرة كنت أتمعن في الخريطة الموضوعة فوق مكتب أبي، وأتخيل تواجد السيد بيرزادا في هذه البقعة الصفراء الصغيرة، يتعرقُ بغزارة مرتديا إحدى بزاته، ويبحث عن عائلته. بالطبع كانت الخريطة قد أصبحت عديمة الصلاحية آنذاك.

في النهاية تسلمنا من السيد بيرزادا بطاقة بمناسبة السنة الهجرية الجديدة مصحوبة برسالة جاء فيها أن شمله قد التأم أخيرا بزوجه وأطفاله، وأنهم جميعا بخير بعد نجاتهم من أحداث السنة الماضية حيث أقاموا في أرض مملوكة لعائلة زوجته في جبال شيلونغ. كتب أيضا بأن بناته صرن أطول قامة؛ وفيما خلا ذلك بقي كل شيء على حاله، وما يزال غير قادر على ترتيب أسمائهن حسب الأعمار. في نهاية رسالته قدم لنا الشكر على حسن ضيافتنا، قائلا أنه رغم معرفته الآن بمعنى كلمة "أشكرك" إلا أنه لا يراها كافية للتعبير عن

امتنانه تجاهنا. وللاحتفال بالأخبار الجديدة، أعدت لنا أمي عشاء خاصا في تلك الأمسية وعند جلوسنا للأكل على الطاولة الصغيرة رفعنا كؤوس الماء لشرب النخب، لكنني لم أكن في مزاج احتفالي. فرغم أنني لم أره منذ شهور؛ إلا أنني لم أكتشف غياب السيد بيرزادا إلا في هذا الوقت. حينذاك فقط، وأثناء رفعي للكأس لأشرب نخبه، عرفت معنى افتقاد شخص ما يبعد بالفعل أميالا وساعات كثيرة عني، بالقدر نفسه الذي كان يفتقد فيه زوجته وبناته لشهور طوال. لم يكن لديه سبب للعودة إلينا، فقد كان تنبؤ والدي صحيحا، وهو أننا لن نره بعد ذلك مطلقا. منذ يناير، وفي كل ليلة قبل الذهاب إلى فراشي استمررت في تناول قطعة من الحلوى التي وفرتها من عيد الهلوين في تلك الليلة من أجل عائلة السيد بيرزادا. لكن في هذه الليلة لم يعد هناك حاجة للقيام بذلك، وفي نهاية المطاف رميتُها بعيداً.

مثيرة

كان ذلك أسوأ كابوس يمكن أن تمر به أية زوجة. فبعد تسع سنوات من الزواج أخبرت لاكسمي، ميراندا بأن زوج ابنة عمها يحب امرأة غيرها كان قد جلس بجوارها في مقعد طائرة تقلهم من دلهي إلى مونتريال، وبدلا من العودة إلى بيته وزوجته وابنه، نزل مع المرأة في مطار هيثرو بلندن. من هناك اتصل بزوجته، ليخبرها بأنه تبادل حديثا غيّر مجرى حياته، وبأنه يحتاج لبعض الوقت للتمعن في الأمور. فكان أن سقطت ابنة عم لاكسمي طريحة الفراش.

" ليس أنني ألومها على ذلك،" قالت وهي تمد يدها للخليط الساخن الذي تمضغه طوال اليوم والذي بدا لميراندا مثل حبوب برتقالية مغبرة. "تخيلي ذلك، فتاة إنغليزية في نصف عمره." لم تكن لاكسمي أكبر من ميراندا إلا بضع سنين، لكنها متزوجة وتحتفظ بصورة لها ولزوجها يجلسان فوق مقعد أبيض طويل أبيض أمام تاج محل ملصقة داخل المقصورة المجاورة لمقصورة ميراندا. كانت لاكسمي تتحدث بالهاتف لأكثر من ساعة، محاولة تهدئة ابنة عمها. ولم يلحظهما أحد، فهما تعملان في قسم جمع التبرعات في محطة

إذاعة عامة، وكانتا محاطتين بأشخاص يمضون أغلب نهارهم على الهاتف لجمع التبرعات.

" أشعر بأسى أكثر على الصبي،" أضافت لاكسمي. "لقد مكث في البيت لأيام وتقول ابنة عمي أنها لا تستطيع الذهاب به إلى المدرسة."

" يبدو ذلك مروّعا،" قالت ميراندا. عادة ما تشوّش مكالمات لاكسمي - أغلبها لزوجها، وتتعلق بماذا ستطبخ على العشاء - عليها أثناء طباعتها للرسائل التي تدعو فيها مستمعي المحطة إلى زيادة تبرعاتهم السنوية من أجل الحصول على حقيبة أو مظلة. بإمكانها سماع لاكسمي عبر الجدار الفاصل بين مكتبيهما بكل وضوح، حيث تخلط جملها أحيانا بكلمة هندية. لكنها لم تكن تنصت في تلك العشية، فقد كانت هي نفسها تهاتف ديف، ليقررا أين سيلتقيان لاحقا في المساء.

" لكن في واقع الحال لن يضره بقاء عدة أيام في البيت." التهمت لاكسمي المزيد من الخلطة الساخنة، ثم وضعتها في أحد الأدراج. "فهو عبقري إلى حد ما. أمه من البنجاب وأبوه بنغالي، ولأنه تعلم الإنغليزية والفرنسية في المدرسة، فهو يجيد الآن أربع لغات. أعتقد أنه قد ربح عامين دراسيين."

كان ديف بنغاليا أيضا. في البداية اعتقدت ميراندا أنها ديانة ما، لكنه أشار لها نحو مكان في الهند يدعى البنغال في خريطة نشرت في مجلة الإيكونمست. كان قد جلب المجلة خصيصا إلى شقتها لأنها لا تملك أطلس الجغرافيا، أو أي كتب أخرى تحوي خرائط. أشار لها إلى المدينة التي أبصر النور فيها، وإلى مدينة أخرى حيث ولد أبوه. إحدى تلك المدن على الخريطة كانت داخل مربع، قصد منه لفت انتباه القارئ. وعندما سألته ميراندا عن المغزى من ذلك، لفلف المجلة وخبط بها فوق رأسها مازحا، " لا شيء يستحق أن تنشغلي به."

قبل أن يغادر شقتها قذف المجلة في سلة المهملات بالإضافة إلى ثلاثة أعقاب سغائر دخنها خلال زيارته؛ لكن بعد أن راقبت اختفاء سيارته في طريق الكومنويلث، عائدا إلى بيته في الضاحية حيث يعيش مع زوجته، استعادت ميراندا المجلة، فنفضت عنها هباب السغائر ولفتها في الاتجاه المعاكس لتسويتها من جديد؛ استلقت على الفراش الذي مازال متغضنا من أثر ممارستهما الحب، وأخذت تدرُس حدود البنغال. هناك خليجٌ وهناك جبال من فوقه. والخريطة مرتبطة بمقال حول شيء يسمى ضفة غرامن؛ قلبت الصفحة أملا في العثور على صورة للمدينة التي ولد فيها ديف، لكن كل ما عثرت عليه هو رسوم بيانية وجداول؛ مع ذلك أمعنت فيها النظر وعقلها مشغول طوال الوقت بديف الذي كان معها في الفراش منذ ربع ساعة فقط يخبرها بأنه لا يشبع منها أبدا.

التقت به منذ أسبوع في متجر فايلن حين تواجدت هناك أثناء استراحة الغداء، تشتري جوارب مخفضة الثمن من قبو المتجر. بعد ذلك ركبت السلم المتحرك صعودا إلى السوق الرئيس حيث يوجد قسم مواد التجميل وحيث تعرض أنواع الصابون والكريمات كما تعرض المجوهرات، ومظللات العيون والمساحيق التي تومض بخفة مثل فراشات مشبوكة خلف زجاج واق. ورغم أن ميراندا لا تبتاع أي شيء عدا أحمر الشفاه، إلا أنها أحبت المشي في شبكة الممرات المزدحمة التي كانت مألوفة لديها بالقدر الذي لم تصبح فيه مدينة بوسطن نفسها مألوفة بعد. لقد أحبت المرور على النساء المنزرعات في كل زاوية من المتجر، يقمن برش بطاقات بالعطور ثم يلوحن بها في الهواء؛ أحيانا تعثر على بطاقة بعد أيام، مطوية في جيب معطفها ما تزال تحتفظ بنزر يسير من العطر الفواح، وهو ما يمنحها دفئا أثناء انتظارها لمترو الأنفاق.

في ذلك اليوم، وبينما توقفت لتنهل من عبير إحدى البطاقات المعطرة لاحظت رجلا يقف عند أحد نُضد البيع، ممسكا بقسيمة ورق في يد أنثوية دقيقة التفاصيل. ألقت البائعة نظرة على القسيمة ثم بدأت في فتح الأدراج وأخرجت قطعة صابون مستطيلة داخل غلاف أسود؛ وقنينة قناع الهيدرات؛ وقارورة من قطرات تجديد حيوية الخلايا، وأنبوبتين من كريم الوجه. كان الرجل قد لفحته الشمس،

بشعر أسود يبدو ظاهرا في براجم يده؛ يرتدي قميصا ورديا من الفلامنكو، وبذلة كُحْلية، ومعطفا بطبقتين له أزرار جلدية لامعة؛ وليتمكن من دفع الحساب قام بخلع قفازيه الجلديين فظهرت أوراق نقدية جديدة من محفظة بورغندي، ولم يكن يرتدي خاتم زواج.

" ماذا يمكنني أن أحضر لك يا عزيزتي؟" سألت البائعة ميراندا، وهي تنظر من فوق نظارتها المصنوعة من صدف السلحفاة لتتبين نوع بشرتها.

لم تدر ميراندا ماذا تريد، كل ما تعرفه أنها لا تريد أن يذهب الرجل بعيدا. بدا لها متمهلا، ومنتظرا إياها مع البائعة لتقول شيئا. فحدقت في بعض القناني، بعضها قصير، وأخرى طويلة، مرتبة فوق صحن بيضاوي، مثل عائلة تتهيأ لالتقاط صورة لها.

" بعض الكريمة،" قالت ميراندا أخيرا.

" كم عمرك؟"

" اثنان وعشرون."

هزت البائعة رأسها وهي تفتح قنينة مكسوة بالجليد: "قد يبدو هذا أقوى قليلا مما كنت تستخدمين من قبل، ولكن لو كنت مكانك لبدأت من الآن. فستبدأ كل تجاعيدك في الظهور في سن الخامسة والعشرين. وبعد ذلك تأخذ في الظهور باستمرار."

في الوقت الذي نشرت فيه البائعة الكريمة فوق وجه ميراندا، وقف الرجل بجوارهما ليراقب؛ وبينما أخبرت ميراندا عن الطريقة المثلى لاستخدامه على شكل تمسيدات فوقية سريعة بادئة بقاعدة عنقها، كان الرجل يدوّر أنبوبة أحمر الشفاه. ضغط على أنبوب يحتوي على جل لتغذية الخلايا وقام بدعكه فوق قفا يده غير المقفزة. ثم فتح قارورة، ومال فوقها كثيرا حتى أن شيئا من الكريم رقط أنفه.

ابتسمت ميراندا ولكن ابتسامتها حجبتها فرشاة كبيرة كانت البائعة تمسح بها وجهها. "هذا المورّد رقم اثنين، وهو يعطي وجهك شيئا من الحيوية."

أومأت ميراندا وهي تلقي نظرة على انعكاس صورتها في إحدى المرايا الزاويّة المحيطة بنضد البيع. كان لها عينان يشعان بلون الفضة وبشرة باهتة كما الورق؛ وقد أدي التباين مع شعرها الفاحم اللماع في لون القهوة المحمصة إلى وصف الناس لها بالأخاذة. كما كان لها رأس دقيق يأخذ شكل بيضة يرتفع إلى نقطة جلية. تقاطيع وجهها أيضا كانت دقيقة، بفتحتي أنف من الصغر حتى ليظهر أنهما قد ضغطتا بملقط غسيل. الآن يشع وجهها، وصارت خدودها محمرة؛ والمنطقة تحت حاجب العين بلون دخاني، وشفتاها تلمعان.

الرجل كان ينظر إلى المرآة أيضا، وبسرعة يمسح الكريم عن أنفه. وتساءلت في نفسها من أي بلد هو. اعتقدت أنه ربما يكون

أسبانيا، أو لبنانيا. وعندما فتح قارورة أخرى، قال دون توجيه حديثه لشخص بعينه، "رائحة هذا مثل الأناناس،" وعندها تبينت أثرا طفيفا للكنة أجنبية.

" هل تريدين شيئا آخر غير هذا، اليوم ؟" سألت البائعة وهي تقبل بطاقة الائتمان.

" كلا أشكرك."

لفت المرأة الكريم في طبقات عدة من الورق الأحمر. "ستكونين مسرورة جدا من هذا النوع." وكانت يد ميراندا غير ثابتة وهي توقع إيصال الشراء. أما الرجل فلم يتزحزح.

" لقد وضعتُ عينة من جل العيون الجديد لدينا." أضافت المرأة وهي تسلمها حقيبة تسوّق صغيرة. ثم نظرت إلى بطاقة ائتمانها قبل أن تدفعها إليها عبر النضد، " مع السلامة، يا ميراندا."

بدأت في المشي. في البداية أسرعت الخطو، ثم لاحظت أبواب السوق التي تقود إلى تقاطع وسط البلد، فأبطأت في سيرها.

" جانب من اسمك هندي،" قال الرجل وهو يحاذيها الخطو.

توقفت، كما توقف هو عند طاولة دائرية مكوم عليها الفانلات المحاطة بأربطة العنق الفراشية والقمعية. "ميراندا؟"

" ميرا. لدي عمة اسمها ميرا."

اسمه ديف، ويعمل في مصرف استثماري في هذا الاتجاه. أخبرها وهو يميّل رأسه في اتجاه محطة الجنوب. كأن أول رجل تعرفه بشنب، وتراه وسيما.

سارا معا نحو محطة شارع بارك، مرورا بالأكشاك التي تبيع حقائب وأحزمة رخيصة. وقد أفسدت ريح ينايرية عنيفة تسريحة شعرها، فبحثت عن مشبك في جيب معطفها، وسقطت عيناها على حقيبة تسوّقه فقالت. "وماذا عن هذه، هل هي لها؟"

" من؟"

" عمتك، ميرا."

" هي لزوجتي،" أخرج الكلمات ببطء، وهو يحتوي نظرتها. "ستغادر إلى الهند لبضعة أسابيع، وهي مدمنة على هذه الأشياء." قال مدوّرا عينيه.

بشكل ما، ودون وجود الزوجة لم يبدُ الأمر خاطئا. في البداية أمضيا كل لياليهما سوية، تقريبا. فقد فسر لها بأنه لا يمكنه قضاء الليلة بطولها في بيتها، لأن زوجته تتصل به من الهند يوميا في السادسة صباحا، حين يكون الوقت هناك الرابعة بعد الظهر؛ وهكذا يغادر شقتها في الثانية أو الثالثة، وأحيانا يتأخر حتى الرابعة صباحا، ويقود سيارته إلى بيته في الضواحي. خلال النهار كان

يهاتفها كل ساعة، من مكان عمله أو من هاتفة النقال. وما أن عرف توقيتاتها حتى أمسى يترك لها رسالة في كل مساء عند الخامسة والنصف، عندما تكون في قطار المترو عائدة إلى البيت، قائلا أن ذلك لكي تسمع صوته بمجرد دخولها من الباب. يقول لها في الشريط، "أفكر فيك دائما، ولا أطيق صبرا لأراك." أخبرها إنه يحب قضاء الوقت في شقتها، بنضد مطبخها الذي لا يزيد عرضه عن حافظة الخبز، وأرضياتها المخربشة المائلة، وبجرس في الردهة كان على الدوام يصدر صوتا مربكا في كل مرة يضغط عليه. أخبرها إنه معجب بانتقالها إلى بوسطن حيث لا تعرف أحدا، بدلا من بقائها في متشغان حيث ترعرعت ودرست الجامعة. وعندما أخبرته بأن لا شيء في ذلك يستحق الإعجاب، وأنها انتقلت إلى بوسطن لهذا السبب بالذات. هز رأسه قائلا، " أعرف معنى أن يكون المرء وحيدا،" بدا عليه الجِد فجأة، وفي تلك اللحظة أحست ميراندا أنه يفهم مشاعرها ـ يفهم مشاعرها في بعض الليالي في مترو الأنفاق، بعد مشاهدة السينما وحيدة، أو الذهاب إلى المكتبة لقراءة المجلات، أو تناول كؤوس من الشراب مع لاكسمي، التي عليها دائما أن تلتقي زوجها في محطة ألوايف. في أوقات أقل جدية أخبرها بأنه أحب فيها أن ساقيها أطول من جذعها، وهو أمر لاحظه في أول مرة عبرت فيها الغرفة عارية. " أنت الأولى،" أخبرها مطريا إياها من فوق السرير. "أول امرأة أعرفها لها ساقان بهذا الطول."

كان ديف أول من أخبرها بهذا الأمر. وخلافا للفتية الذين رافقتهم في الجامعة، والذين كانوا أشكالا أطول وأثقل من الذين رافقتهم في المدرسة الثانوية، فهو دائما أول من يدفع ثمن الأشياء، ويفتح لها الأبواب، ويميل فوق طاولة المطعم لتقبيل يدها. كان أول من يحضر لها باقة زهور من الضخامة بحيث اضطرت إلى تقسيمها على كل أكواب الشرب الستة التي تملكها. وهو الأول الذي كرر الهمس باسمها أثناء ممارستهما الحب. بعد أيام من لقائها به، وعند تواجدها في العمل، صارت تتمنى لو أن لها صورة معه تعلقها داخل مقصورتها، مثل صورة لاكسمي وزوجها أمام تاج محل. لم تخبر لاكسمي عن ديف، ولم تخبر أي شخص آخر عنه. أراد جانب منها أن يخبر لاكسمي، ولو لمجرد أنها هندية أيضا، لكنها كانت دائما على الخط مع ابنة عمها هذه الأيام، والتي ما تزال طريحة الفراش، وما يزال زوجها في لندن، وابنها لا يذهب إلى المدرسة. "لابد أن تأكلي شيئا،" كانت تحث ابنة عمها،" ولا يجب أن تفقدي صحتك." وعندما لا تتحدث مع ابنة عمها، تتصل بزوجها، وعندها تكون المحادثات أقصر طولا، وتختمها بالجدل معه حول إذا ما كانا سيتناولان لحم الدجاج أو الخروف على العشاء، وسمعتها ذات مرة تعتذر، " هذا الأمر برمته يجعلني منفصمة الشخصية قليلا."

لم يتشاجر ميراندا وديف أبدا. فقد ارتادا السينما في نكلديون

وتبادلا القبل معظم الوقت. تناولا لحم البورك المسحوب مع خبز الذرة في ميدان ديفز، وكان منديل ورقي قد وُضع في ياقة قميص ديف مثل ربطة عنق. ارتشفا السانغريا في حانة مطعم أسباني، فيما كان رأس خنزير مكشر يشهد على حديثهما. ذهبا إلى متحف الفنون الجميلة واختارا صورة لزهور الماء لتعليقها في غرفة نومها. في يوم السبت، وبعد عزف في صالة الموسيقى، دلها على مكانه المفضل في المدينة؛ القبة الجغرافية في المركز التابع للكنيسة الأم، حيث يقفان داخل غرفة مصنوعة من ألواح زجاجية ملونة وهاجة، وهي مُعدة بشكل الكرة الأرضية من الداخل، لكنها بدت أيضا كأنها كوكب الأرض من الخارج. في وسط الغرفة هناك جسرٌ شفاف، بحيث يشعر المتواجد فوقه وكأنه يقف في مركز العالم. أشار ديف إلى الهند التي كانت باللون الأحمر، وبتفاصيل تزيد كثيرا عن الخريطة التي نشرتها مجلة الإيكونمست. شرح لها بأن الكثير من البلدان مثل سيام، والصومال الإيطالي، لم تعد موجودة بالكيفية نفسها؛ فالأسماء تغيرت الآن. كان البحر في زرقة صدر طاووس، وظهر في درجتين من اللون، وفقا لعمق المياه. دلها على أعمق نقطة فوق الأرض التي بلغت سبعة أميال بجانب جزر المارينا. كما ألقيا نظرة من فوق الجسر فشاهدا أرخبيل القطب الجنوبي ؛ ومطا عنقيهما فشاهدا نجمة معدنية ضخمة فوق رأسيهما. كان صوت ديف يرتد بقوة من سطح الزجاج، أحيانا يكون مرتفعا، وأحيانا أخرى في هدوء، وأحيانا يبدو

وكأنـه يحـط في صدر ميرانـدا، وفي أخـرى يـراوغ أذنـيها تماما. عـندما سارت جماعة من السواح فوق الجسر، أمكنها سماعهم أثناء تسريح حناجرهم، وكأنما يتم ذلك عبر ناقل صوت. ففسر لها ديف ذلك بأنه يعود إلى خصائص انتقال الأصوات عبر الأثير.

عثرت ميراندا على لندن حيث يوجد زوج ابنة عم لاكسمي مع المرأة التـي قابلها على الطائرة. وتساءلت في نفسها عن المدينة التي تتواجد فيها زوجة ديف. أبعدُ مكان ذهبت إليه كان جزر الباهاما عندما كانت طفلة وبحثت عن الجزر لكنها لم تجدها على الألـواح الـزجاجية. وعندما غادر السواح بقيت في المكان لـوحدها مع ديف الـذي طلـب إليها الوقـوف في نهايـة الجسر، وأخبرها بأنـه يمكـنهما سماع همس بعضهما بالرغم من مسافة الثلاثين قدما التي تفصلهما.

" لا أصدقك،" قالت له. كانت المرة الأولى التـي تقول فيها شيئا منذ دخـولهما إلى المكـان؛ وأحـست كمـا لـو أن مكـبرات صـوت قـد طُمرت في أذنيها.

" هيا ابدئي،" قال وهو يتراجع نحو الناحية المقابلة من الجسر. انخفـض صـوته إلى همـس: "قولـي شـيئا،" راقـبت شـفتيه أثـناء تـشكيلهما للكلمـات؛ وفي الـوقت ذاتـه سمعـتهما بوضـوح حتـى أنهـا أحـست بهـا تنـساب تحـت جلـدها، وتحـت معطفهـا الـشتوي، كانـت غاية في القرب والدفء حتى أنها أحست بجسمها يسخن.

" هاي،" همست غير واثقة مما يجب أن تقول.

" أنت مثيرة،" ردّ هامسا.

في مكان عملها خلال الأسبوع الذي تلاه، أخبرت لاكسمي ميراندا بأن تلك ليست المرة الأولى التي يقيم فيها زوج ابنة عمها علاقة غرامية. "لقد قررت أن تعيده إلى رشده،" قالت لها ذات مساء وهما تستعدان لمغادرة المكتب. " تقول بأن ذلك كان من أجل الولد، وهي مستعدة للصفح عنه لهذا السبب." وانتظرتها ميراندا كي تغلق حاسوبها. قالت لاكسمي هازة رأسها، "سيعود زاحفا على ركبتيه، وستقبل ذلك منه، لكن أنا غير ذلك، فلو أن زوجي ينظر فقط إلى امرأة أخرى، سأغير أقفال البيت." تمعنت في الصورة الملصقة في مقصورتها، كان زوج لاكسمي يضع ذراعه فوق كتفها، بينما تميل ركبته نحوها على المقعد. التفتت نحو ميراندا، " ألا تقومين بالشيء نفسه؟"

أومأت برأسها. ستأتي زوجة ديف من الهند في اليوم التالي. وفي هذه العشية هاتفها ديف في مقر العمل ليخبرها بأنه ذاهب إلى المطار لاستقبالها، كما وعدها بأن يتصل بها بأسرع ما أمكنه.

" كيف يبدو تاج محل؟" سألت لاكسمي.

توهج وجهها بالذكريات، " إنه المكان الأكثر رومانسية في العالم، وهو تمثال دائم على المحبة."

أثناء تواجد ديف في المطار، ذهبت ميراندا إلى قبو فايلين لابتياع أشياء رأت وجوب تواجدها في حوزة أية عشيقة. وجدت زوجا من الأحذية السود بكعب عال، وإبزيم أصغر حجما من سن طفل. وجدت أيضا كلسونا من الساتان بحواف مخرمة، وروباً حريريا يصل إلى مستوى الركبة. بدلا من الجورب الكلسوني الذي عادة ما تلبسه إلى العمل؛ عثرت على جوارب شفافة مدروزة. بحثت في الأكوام وتجولت بين الأرفف، تزيح مشجب ملابس بعد الآخر حتى عثرت على لباس سهرة مصنوع من مادة انسلالية فضية تتوافق مع لون عينيها، وله سلسلة من الأربطة الصغيرة. أثناء تسوقها فكرت في ديف، وفي ما قاله لها في القبة الجغرافية. كانت تلك المرة الأولى التي يقول لها رجلٌ أنها مثيرة، وعندما أغمضت عينيها كانت ما تزال تحس بهمسه ينساب خلال جسدها، وتحت جلدها. في غرفة تجريب الملابس التي هي عبارة عن حجرة كبيرة بمرايا على الجدران، وجدت لها مكانا بالقرب من امرأة أكبر سنا، لها وجه مشرق وشعر خشن متيبس. وقفت المرأة حافية في لباسها الداخلي، وهي تقلب وتشد جوربا لحميا بين أصابعها.

" من الأفضل دائما البحث عن أي عيوب." نصحتها المرأة.

أخرجت ميراندا كلسون الساتان ذا الحواف المخرمة، وفردته على صدرها.

هزت المرأة رأسها في استحسان، " رائع!"

" وهذا؟" ثم أمسكت بلباس السهرة الفضي.

" تماما،" قالت المرأة، "سيرغب في تمزيقه من فوقك."

تصورتهما ميراندا معا في المطعم عند ساوث إند الذي ارتاداه، حيث طلب وجبة فطر الترفاس وحساء معدا بالشمبانيا وتوت العليق. تصورت نفسها مرتدية لباس السهرة، وديف مرتديا إحدى بدلاته، يقبل يدها عبر الطاولة. ولكن في المرة التي جاء فيها بعد ذلك لزيارتها كان يرتدي ملابس التريض. بعد مجيء زوجته كان هذا هو عذره: في أيام الآحاد يقود سيارته إلى بوسطن، ويركض على طول طريق تشارلز. وفي أول يوم أحد زارها فيه فتحت له الباب مرتدية الروب الذي يصل إلى ركبتيها، لكنه لم يلحظ ذلك؛ وحملها إلى الفراش مرتديا لباس وحذاء التريض، ومارس الحب دون أن ينطق بكلمة. فيما بعد لبست الروب عندما عبرت الغرفة لتجلب صحنا يضع فيه رماد سغائره، لكنه تذمر من أنها تحرمه من منظر سيقانها الطويلة، وطلب منها أن تخلعه. وهكذا لم تهتم في الأحد القادم. ارتدت سروال جينز، وأبقت ثوب النوم في الجانب الخلفي من درج الخزانة، خلف جواربها وما ترتديه يوميا من ألبسة داخلية. ظل لباس السهرة الفضي معلقا في خزانتها، وماركة الصنع تتدلى من العروة. وفي الصباح غالبا ما يكون اللباس مكوّما فوق الأرض، حيث تنزلق الأربطة من فوق المشجب المعدني.

مع ذلك فقد كانت ميراندا تنتظر أيام الآحاد. في الأصباح تتوجه إلى أحد متاجر الديلي وتشتري الأكياس والمعلبات التي يحب ديف تناولها، مثل سمك الرنكة المخلل، وسلطة البطاطس، وتورتات البيستو، وجبن الماسكربون. كان يأكلان في الفراش، فيلتقطان الرنكة بأصابعهما، ويمزقان الأكياس بأيديهما. أخبرها ديف حكايات عن طفولته، عندما كان يعود من المدرسة ويشرب عصير المانغو الذي يقدم له في سفرة، ثم يلعب الكريكت عند البحيرة، مرتديا ملابس بيضاء. أخبرها كيف أرسِل في سن الثامنة عشر إلى الجامعة في شمال نيويورك في زمن ما سُمي بالأزمة، وكيف استغرق الأمر سنة قبل أن يفهم اللهجة الأمريكية في الأفلام بالرغم من دراسته في المرحلة المتوسطة باللغة الإنغليزية. وأثناء حديثة استهلك ثلاث سغائر، سحق أعقابها في صحن الفنجان بجانب السرير. أحيانا كان يوجه لها أسئلة من قبيل كم عشيقا كان لها (ثلاثة) وكم كان عمرها في المرة الأولى (تسعة عشر). بعد الغداء مارسا الحب فوق ملاءات مغطاة بفتات الخبز، وبعد ذلك راح في إغفاءة دامت اثنتا عشرة دقيقة. لم تعرف ميراندا راشدا من قبل يحصل على القيلولة، لكن ديف قال إنه تعوّد على ذلك في الهند، حيث كان الجو من السخونة فيترك الناس بيوتهم مفتوحة حتى غروب الشمس. "بالإضافة إلى أنها تسمح لنا أن ننام سوية،" تمتم بخبث وهو يلف ذراعه حول جسمها مثل إسورة كبيرة.

لكن النوم جفاها. كانت تراقب الساعة الموجودة فوق طاولة السرير، أو تضغط وجهها على أصابع يده المتشابكة مع أصابعها، وقد نبتت في برجم كل إصبع منها نصف دستة أو نحو ذلك من الشعرات. بعد ست دقائق تستدير لتواجهه وهي تئن وتتمطى لاختبار مدى استغراقه في النوم. وكان دائما مستغرقا في نومه. تظهر أضلاعه تحت جلده أثناء تنفسه، ومع ذلك فقد بدأ كرشه في الظهور. كان يتذمر من الشعر النابت فوق منكبيه، لكن ميراندا رأت أنه مثالي التكوين، ورفضت تخيله في أية صورة أخرى مغايرة.

في نهاية الدقائق الاثنتي عشرة يفتح عينيه ويبتسم لها، كأنه كان مستيقظا طوال الليل، يبدو لها مشبعا باطمئنان تمنت لو أنها شعرت به هي نفسها. ثم يقول وهو يتحسس بيده خلف ربلة ساقها "أفضل اثنتي عشرة دقيقة في الأسبوع.". بعد ذلك ينط من الفراش، مرتديا ملابس تريّضه، يربط حذاءه؛ ويتوجه إلى الحمام ليجلي أسنانه بسبابته، وأخبرها بأن هذا أمر اعتاد كل الهنود القيام به للتخلص من أثر الدخان في أفواههم. عندما يقبلها مودعا، أحيانا تشم رائحتها في شعره، لكنها تعرف ما سيتعذر به، فقضاؤه العشية في الركض يسمح له بالاستحمام لحظة دخوله البيت.

ما عدا لاكسمي وديف، كان الهنود الوحيدون الذين عرفتهم ميراندا هم عائلة في الحي الذي نشأت فيه، تسمى دكست.

ولاستغراب أطفال الحي بمن فيهم ميراندا، باستثناء أطفال دكست، كان السيد دكست يمارس الركض كل مساء في الشوارع المسطحة الكثيرة المنعطفات المحيطة بحيهم مرتديا ملابسه المعتادة المكونة من سروال وقميص. التزامه الوحيد بالمظهر الرياضي كان من خلال ارتداء حذاء كيد من النوع الرخيص. وفي كل نهاية أسبوع، تتكوم العائلة المكونة من الأب والأم وولدين وبنت في سيارتهم فيذهبون بعيدا إلى حيث لا يعرف أحد. تذمر الآباء في الجيرة من عدم قيام السيد دكست بتسميد المساحة العشبية أمام بيته كما يجب، ومن عدم قيامه بجمع أوراق الأشجار المتساقطة في موعدها، واتفقوا على أن بيت آل دكست، هو الوحيد في الجيرة الذي كان له جنبات من الفينيل وأنه يُقلل من جمال وتناسق المكان. لم تكن الأمهات تدعو السيدة دكست لمشاركتهن الجلوس حول حمام سباحة أرمسترونغ. وأثناء انتظارهم لركوب الحافلة المدرسية مع أطفال دكست الذين يقفون منفصلين عن البقية، كان الأطفال يقولون فيما بينهم " عائلة دكست تحب القذارة،" ثم ينفجرون بالضحك.

ذات مرة دُعي أطفال الجيران لحضور حفل عيد ميلاد ابنة آل دكست. تذكرت ميراندا تلك الرائحة العبقة من البخور والبصل داخل البيت، وكوم من الأحذية عند مدخل الباب الأمامي، لكن أكثر شيء تذكرته هو قطعة قماش معلقة من وتد خشبي عند قاعدة الدرج،

وهـي لامـرأة عاريـة بـوجه أحمـر مـثل درع فـارس، لهـا عـيون بيـضاء واسعة تميل نحو صدغيها، ومجـرد نقـاط عند العانة. أشارت دائرتـان تتوسطهما النقاط نفسها إلى ثدييها. في إحدى يديها تحمل خنجرا؛ وبإحدى قدميها تـسحق رجلا على الأرض؛ حـول رقبـتها يـوجد عقـد محمل بـرؤوس تنـزف، وقد لُضمت معاً مثل سلسلة من حبوب الذرة؛ وكانت تخرج لسانها لميراندا.

" إنهـا آلهـة كالي،" شـرحت لهـا السيدة دكسـت مبتسمة، وهـي تحـرك الـوتد الخشبي قليلا لتعديل وضـع الصورة. كانـت يـدا الـسيدة دكست مرسـومتـان بالحنـاء، وأنمـاط متـشابكة مـن الخطوط المتعرجة والنجوم. "تعالي من فضلك، فقد حان وقت تقطيع الكيكة."

ميرانـدا في عامهـا التاسـع كانـت غايـة في الخـوف لـتأكل مـن الكيكة، ولعدة شهور بعد ذلك تملكها الخوف حتى من المشي في الجهة نفسها مـن الشارع حيث يـوجد بيت آل دكسـت، الـذي كـان عليها المرور أمامه مرتين في اليوم عند التوجه إلى حيث تقف الحافلة وعند العـودة إلى البـيت. ولـبعض الـوقت قامـت بإمـساك أنفاسـها حتـى وصولها إلى المساحة الخضراء التالية، كمـا كانـت تفعل عـندما تمـر الحافلة المدرسية بالمقبرة.

أصبحت تشعر بالخجل من ذلك. الآن عندما يمارسـان الحـب، تغلق عينيها وتـرى صحـاري وأفيال، ومقـصورات مرمـرية تطفـو علـى

بحيرات يشرق عليها بدر في تمامه. ذات سبت، لم يكن لديها ما تفعله، فمشت كل المسافة إلى ميدان سنترال، دخلت مطعماً هندياً، وطلبت طبقا من دجاج التندوري. وأثناء تناولها الطعام حاولت أن تحفظ الجمل المكتوبة أسفل قائمة الطعام التي تشير إلى أشياء مثل "لذيذ" و "ماء" و "الحساب من فضلك". لم تتمكن من حفظ تلك الجمل، وهكذا بدأت تتوقف أحيانا في قسم اللغات الأجنبية لمكتبة في ميدان كينمور، حيث درست الأبجدية البنغالية في سلسلة (تعلم بنفسك) وذات مرة وصلت إلى حد محاولة نسخ الجزء الهندي من اسمها "ميرا" في دفتر ملاحظات. كانت يدها تتحرك في اتجاهات غير معتادة لها، تتوقف، وتدور، وترفع قلمها حيث لم تتوقع. ومتتبعة الأسهم في الكتاب، رسمت خطا من الشمال إلى اليمين، حيث تُعلق فيه الحروف: أحدها بدا لها رقما أكثر منه حرفا، وآخر مثل مثلث يقع على جنبه. تطلب منها الأمر عدة محاولات قبل أن تكتب حروف اسمها مثل النموذج الذي في الكتاب، ومع ذلك لم تكن على بينة إن كانت قد كتبت ميرا أو مارا. بالنسبة لها فقد كان ذلك مجرد خربشة، لكنها أيقنت مصدومة، بأنها تعني شيئا في مكان ما من هذا العالم.

خلال الأسبوع لم تكن الأمور سيئة. فقد أبقاها العمل مشغولة، وبدأت هي ولاكسمي تتناولان الغداء سوية في مطعم هندي جديد عند زاوية الشارع، وخلال ذلك قدمت لها لاكسمي آخر موقف عن زواج ابنة

عمها. حاولت ميراندا أحيانا تغيير الموضوع. لقد جعلها ذلك تحس بالطريقة نفسها التي شعرت بها ذات مرة في الجامعة، عندما خرجت مع صديقها من مطعم مزدحم للفطائر دون أن يسددا الثمن، لمجرد اختبار إن كان سيفلتان بفعلهما ذاك. لكن لاكسمي لم تتحدث في أي موضوع سواه؛ وأعلنت لها ذات يوم، "لو كنت مكانها لطرت إلى لندن وأطلقتُ عليهما الرصاص،" شطرت رقيقة خبز إلى نصفين وغمستها في الصلصة، "لا أعرف كيف يمكنها مجرد الانتظار بهذا الشكل."

لكن ميراندا تعرف كيف تنتظر. في الأماسي تجلس إلى طاولة الأكل وتطلي أظافرها بملمع شفاف، تتناول السلطة مباشرة من وعائها، تشاهد التلفزيون، وتنتظر يوم الأحد. أيام السبت هي الأسوأ عندها لأن ما أن تحل حتى يبدو لها أن الأحد لن يأتي أبدا. وعندما اتصل بها ديف في وقت متأخر من يوم السبت، سمعت ضحكا وحديث أشخاص في الخلفية، وكانوا من الكثرة حتى أنها سألته إن كان متواجدا في صالة عرض، لكنه كان يهاتفها من بيته في الضاحية. قال لها، "لا يمكنني سماعك جيدا، فلدينا ضيوف. هل تشتاقين إلي؟" نظرت إلى شاشة التلفزيون، حيث قطعت الصوت عندما دق جرس الهاتف. تصورته هامسا في هاتفه النقال، في غرفة ما في الطابق العلوي، ويد على مقبض الباب، والردهة مملوءة بالضيوف. "ميراندا، هل تشتاقين إلي؟" سأل من جديد، فأخبرته بأنها تشتاق إليه.

في اليوم التالي عندما جاء لزيارتها، سألته عن شكل زوجته وكانت عصبية لسؤالها. انتظرت حتى انتهي من تدخين سيغارته الأخيرة، وسحقها بلوية قوية في الصحن. ثم سألته إن كانا يتشاجران؛ لكنه لم يتفاجأ بالسؤال. أخبرها وهو يطرح المزيد من السمك الأبيض المدخن فوق رقيقة خبز، بأن زوجته تشبه ممثلة في بومباي تسمى مدهوري دكست.

للحظة توقف قلب ميراندا عن النبض. لكن لا، فبنت آل دكست كان اسمها مختلفا، شيء يبدأ بحرف (بي) مع ذلك فقد تساءلت إن كانت الممثلة وبنت آل دكست ذواتا قربى. لقد كانت الفتاة عادية، تسرح شعرها في ضفيرتين طوال فترة الدراسة الثانوية.

بعد أيام توجهت إلى دكان البقالة الهندي في ميدان سنترال الذي يؤجر أشرطة فيديو أيضا. انفتح الباب على أصوات قرع مجموعة معقدة من الأجراس. كان وقت العشاء، وهي الزبونة الوحيدة في المحل. ثمة شريط يدور في التلفزيون المعلق في زاوية المتجر: صف من الصبايا يرتدين سراويل الحريم الفضفاضة ويلوين أوساطهن في تناغم على الشاطئ.

" هل يمكنني مساعدتك؟" سألها الرجل الواقف عند آلة تحصيل النقود. كان يتناول الساموسا، ويغمسها في نوع من الحساء البني الغامق في صحن ورقي. تحت النضد الزجاجي على مستوي

خصره تواجدت سفرة من الساموسا المتلثة، وما بدا أنه قطع من الكيك مغطاة بورق الألومونيوم، وشيء من المعجنات البرتقالية البراقة تطفو في عصير ما. "هل تريدين بعض أشرطة الفيديو؟"

فتحت ميراندا دفتر ملاحظاتها حيث دونت اسم موتاري دكست، ونظرت في الأشرطة فوق الأرفف من خلف النضد. رأت نساء يرتدين تنانير ويجلسن على أردافهن، قمصانهن مربوطة مثل مناديل الباندانا بين أثدائهن. وكان بعضهن يتكئ على صخرة أو شجرة أو حائط ما. كن مليحات، وطريقة رقصهن على الشاطئ جميلة، بشعورهن الطويلة وعيونهن المملوءة بالكحل. فعرفت حينها أن مدهوري دكست كانت جميلة أيضا.

" لدينا نسخ مترجمة يا آنسة." أستمر الرجل يقول، ثم مسح رؤوس أصابعه على قميصه بسرعة، وسحب ثلاثة أشرطة.

قالت ميراندا، " لا، شكرا لك، لا أريد." ثم تجولت في المحل، متمعنة في الأرفف المكدسة بأكياس ومعلبات بدون علامات تجارية. كما كانت المجمدة مملوءة بأكياس من خبز البيتة وأنواع من الخضار لم تعرفها من قبل. الشيء الوحيد الذي عرفته هو رف معبأ بأكياس وأكياس من الخليط الحار التي دائما ما تأكله لاكسمي. وفكرت في ابتياع شيء منها لها، ثم ترددت، فكيف ستشرح سبب وجودها في محل بقالة هندي.

" إنها مفلفلة جدا، " قال الرجل هازا رأسه، وعيناه تتجولان فوق جسمها. " مفلفلة أكثر من اللازم بالنسبة لك."

جاء فبراير، ولم يثب زوج ابنة عم لاكسمي إلى رشده بعد. فقد عاد إلى مونتريال، وتجادل بعنف مع زوجته طوال أسبوعين، ثم جهز حقيبتي سفر وطار عائدا إلى لندن. لقد أراد الطلاق منها.

جلست ميراندا في مقصورتها وأنصتت بينما كانت لاكسمي تخبر ابنة عمها أن هناك رجالا أفضل منه في هذا العالم، يتحينون الفرصة للظهور من مكامنهم. في اليوم التالي أعلنت ابنة العم أنها ستذهب مع ابنها إلى بيت والديها في كاليفورنيا للنقاهة، وطلبت منها لاكسمي أن ترتب لقضاء عطلة نهاية الأسبوع معها في بوسطن. "تغييرٌ سريع في المكان سيكون مفيدا لك؛ بالإضافة إلى أنني لم أرك لسنين." أصرت عليها بلطف.

نظرت ميراندا إلى جهاز هاتفها متمنية أن يتصل بها ديف، فقد مرت أيام أربعة منذ محادثتهما الأخيرة. وسمعت لاكسمي تطلب مساعدة دليل الهاتف لتسأل عن أرقام هواتف صالونات التجميل وطلبت "شيئا لتلطيف البشرة،" ورتبت مواعيد للقيام بتدليك ومعالجة الوجه والعناية بالأظافر والأقدام؛ ثم حجزت طاولة للغداء في مطعم الفصول الأربعة. وفي معرض إصرارها على الترويح عن ابنة عمها، نسيت أمر الصبي، فطرقت براجم قبضتها على فاصل الصفيح بينهما. "هل أنت مشغولة يوم السبت؟"

كان الفتى نحيلا، وارتدى حقيبة ظهرية وسروالا رماديا في لون الرنكة، وكنزة حمراء برقبة مثلثة، وحذاء من الجلد الأسود. سرّح شعره في خصلات متهدلة فوق عينيه اللتين لاحظت وجود هالات سوداء تحتهما. كانتا أول ما لاحظت فيه، وجعلتاه يبدو منهكا كأنه دخن الكثير من السغائر ولم ينم إلا قليلا، بالرغم من كونه في السابعة من عمره. أمسك في يده كراسة مسودة كبيرة لها ظهر حلزوني، وكان اسمه روهن.

" اسأليني عن عاصمة ما،" قال محدقا فوق نحو ميراندا.

حدقت فيه بالمقابل؛ كانت الساعة الثامنة والنصف من صباح السبت ثم رشفت من قهوتها، "ماذا؟"

" إنها لعبة يمارسها، تسألينه عن العاصمة فيخبرك باسم البلد." شرحت لها ابنة عم لاكسمي. كانت امرأة نحيلة مثل ابنها، لها وجه طويل، والهالات السوداء نفسها تحت عينيها. فوق كتفيها يرتمي بثقله معطف بلون الصدأ، شعرها الأسود به بعض الخصلات الرمادية عند صدغيها، وكان مشدودا للخلف مثل راقصات الباليه.

قالت لاكسمي، "كان يجب أن تسمعيه في السيارة، فقد حفظ كل أوروبا."

قال روهن، " ليست لعبة، فأنا أخوض مسابقة مع ولد في المدرسة تتعلق بحفظ أسماء كل العواصم، وسأنتصر عليه."

هزت ميراندا رأسها، " أوكي، ما هي عاصمة الهند؟"

" هذا لا ينفع." ومشى بعيدا مطوحا بذراعيه مثل جندي دمية. ثـم قفـل عائـدا إلى ابـنة عـم لاكـسمي، وجـذب جيـبا في معطفهـا، "اسأليني عن شيء صعب."

" السنغال،" قالت له.

" داكـار!" صاح منتصرا، وبدأ يركض في دوائر أوسع فأوسع. في النهاية ركض نحو المطبخ، وسمعته ميراندا يفتح باب البراد ويغلقه.

" روهن لا تلمس شيئا بدون إذن،" صاحت ابنة عم لاكسمي بإعياء، وتمكنت من رسم ابتسامة لميرانـدا. "لا تقلقي، سينام خلال ساعات، وشكرا لرعايتك له."

" سنعود في الثالثة، فلا يمكننا أن نتأخر" قالت لاكسمي وهي تختفي مع ابنة عمها في الردهة.

وضعت ميراندا سلسلة التأمين على الباب الخارجي، وذهبت تبحث عن روهن في المطبخ لكنها وجدته في غرفة المعيشة عند طاولة الأكل، يجثو على أحد المقاعد الكبيرة. كان قد فتح حقيبته الظهرية وأزاح جانبا سلة ميراندا التي توجد بها أدوات العناية بالأظافر، ثم بسط أقلامه على سطح الطاولة. وقفت خلف ظهره وراقبته أثناء إمساكه بالقلم الأزرق ورسمه لشكل طائرة.

" رائع،" قالت، ولكن عندما لم يجبها ذهبت إلى المطبخ لتصب لها فنجانا من القهوة.

" أعطني شيئا منها، لو سمحت."

التفتت نحو غرفة المعيشة، "شيئا من ماذا؟"

" القهوة، فقد رأيت أن هناك ما يكفي في السخان."

توجهت إلى الطاولة، وجلست قبالته. وتقريبا وقف لالتقاط أحد الأقلام، لقد بدا ضئيلا في الكرسي الكبير.

" ما زلت صغيرا على تناول القهوة."

انحنى فوق كراسة الرسم حتى كاد صدره وكتفاه الصغيران أن يلامسانها؛ ثم أمال رأسه إلى ناحية. "سمحت لي المضيفة بتناول القهوة التي أعدتها مع الحليب والكثير من السكر." ثم اعتدل في جلسته مبينا وجه امرأة بجانب الطائرة لها شعر مجعد طويل وعيون مثل النجوم. وقال مضيفا، " كان شعرها أكثر لمعانا، وأبي أيضا التقي بامرأة جميلة أثناء رحلة بالطائرة." نظر إلى ميراندا، واكفهر وجهه وهو يراقبها ترشف القهوة. "ألا يمكنني الحصول ولو على قليل من القهوة، من فضلك؟"

تساءلت في نفسها إن كان من النوعية الذي ينطلق في نوبة غضب بالرغم من مظهره المتماسك، وتعبير الهدوء على وجهه. تخيلته

وهو يركلها بحذائه الجلدي صارخا في طلب القهوة حتى تأتي أمه ولاكسمي لاصطحابه. بعد ذلك ذهبت إلى المطبخ وأعدت له قهوة حسب طلبه، واختارت فنجانا لن تهتم إن كسره.

" أشكرك،" قال عندما وضعته أمامه فوق الطاولة، وأمسك بالفنجان بين يديه، وبكل ثقة.

جلست معه أثناء قيامه بالرسم، واحتج عندما حاولت وضع طبقة من الطلاء فوق أظافرها. بدلا من ذلك أخرج كتاب أطلس العالم من حقيبته وطلب منها أن تمتحنه. كانت البلدان مرتبة حسب القارات التي تتبعها، ستة في كل صفحة، والعواصم كُتبت بخط داكن، متبوعة بنبذة قصيرة عن السكان، وطبيعة نظام الحكم، وإحصاءات أخرى. فتحت على صفحة في قسم أفريقيا وبدأت تعلن القائمة.

" مالي،" سألته

" باماكو،" أجابها على الفور.

" مالاوي،"

" لايلونغوي،"

تذكرت عندما نظرت إلى أفريقيا في القبة الجغرافية، وتذكرت بأن أغلبها تغطيه الخضرة.

" استمري،"

" موريتانيا."

" نواكشوط."

" موريشيوس."

توقف لوهلة، وأغمض عينية بقوة، ثم فتحهما من جديد وقد هُزم، " لا أتذكر."

"بورت لويس." أخبرته.

" بورت لويس،" أخذ يرددها مرات، كأنما يغني بصوت خفيض.

عندما وصلا إلى أخر بلد في أفريقيا، أبدى رغبته في مشاهدة الرسوم المتحركة، وأخبرها بأن تشاهدها معه. وعندما انتهت الرسوم تبعها إلى المطبخ ووقف بجوارها أثناء إعدادها المزيد من القهوة. لم يتبعها عندما ذهبت إلى الحمام بعد دقائق، لكنها فوجئت عندما فتحت الباب ووجدته يقف خارجه.

" هل تريد الدخول؟"

هز رأسه، لكنه دخل على أي حال. أنزل غطاء المقعد ثم اعتلاه، وتفحص الرف الزجاجي الموجود فوق الحوض الذي توجد فوقه أدوات زينتها وفرشاة أسنانها.

" فيم تستخدم هذه؟" سألها وهو يمسك بعينة جل العيون الذي حصلت عليه يوم التقت ديف.

" للانتفاخ."

" وما هو الانتفاخ؟"

" هنا." وأشارت إلى عينيها.

" بعد أن تبكي؟"

" أعتقد ذلك."

فتح الأنبوب وشمه، ثم عصر منه نقطة فوق إصبعه، ودعكها في يده. " إنه يلسع." ثم تفحص قفا يده عن قرب، وكأنه يتوقع تغير لونها. "أمي بها انتفاخ في العيون وتقول إن ذلك بسبب البرد لكنها في الحقيقة تبكي، وأحيانا يدوم بكاؤها ساعات، أحيانا تبكي حتى أثناء العشاء؛ وأحيانا تبكي بحرقة فتنتفخ عيناها مثل الضفادع."

تساءلت إن كان يجب عليها أن تقدم له طعاما واكتشفت وجود كيس به كيك الأرز مع بعض السلطة في المطبخ. عرضت عليه أن تخرج لتبتاع شيئا من المتجر، لكنه قال إنه لا يشعر بجوع شديد، وقبل أن يتناول إحدى كعكات الأرز. " وأنت أيضا كلي واحدة." ثم جلسا إلى الطاولة والكعكات بينهما. فتح على صفحة جديدة من كراسة رسمه وقال، " ارسمي،"

اختارت القلم الأزرق، " وماذا علي أن أرسم؟"

فكر لوهلة ثم قال، " أعرفُ ماذا سترسمين." وأخبرها بأن ترسم أشياء في غرفة المعيشة، أريكة الجلوس، والكراسي الكبيرة، والتلفزيون، والهاتف. "بهذه الطريقة يمكنني التذكر."

" تذكّر ماذا؟"

" لأننا لن نرى بعضنا مرة أخرى مطلقا."

فاجأتها مدى دقة الجملة، فنظرت إليه وهي تشعر بقليل من الكآبة. لم تبد الكآبة عليه، فنقر على الصفحة قائلا " هيا ابدئي."

وهكذا رسمت أشياء بأفضل ما أمكنها ـ الأريكة، والكرسي الكبير، والتلفزيون، والهاتف. مشي جانبيا نحوها، وكان من القرب حتى أنها وجدت صعوبة أحيانا في رؤية ما تفعل. وضع يده السمراء الصغيرة فوق يدها، " والآن جاء دوري."

قدمت له قلم الرسم.

هز رأسه، "لا. بل ارسميني."

" لا أستطيع، فلن يشبهك الرسم." بدأت نظرة الاكتئاب تنتشر من جديد فوق وجهه، كما حدث عندما رفضت إعطاءه القهوة. "أرجوك؟"

رسمت وجهه، محددة رأسه وخصلة شعره الكثيفة. جلس أمامها في سكون تام وقد بدا على وجهه تعبير كآبة وانقباض، وثبّت وجهه إلى جانب واحد. تمنت لو أن بإمكانها أن ترسم شيئا قريبا من الأصل، فتحركت يدها في توافق مع عينيها، كما حدث ذلك اليوم في المكتبة عندما نسخت اسمها بالحروف البنغالية. لكن الرسم لم يبد شبيها به. كانت ترسم أنفه عندما ابتعد عن الطاولة.

" أشعر بالسأم." أعلن وهو يتجه نحو غرفة النوم. وسمعته يفتح الباب، ويفتح أدراج مكتبها ثم يغلقها من جديد.

عندما التحقت به، كان في وسط خزانة الملابس. بعد لحظة خرج من الدولاب وقد نكت شعره، ويمسك بفستان السهرة. " كان مرميا على الأرض."

" عادة ما يسقط من المشجب."

نظر إلى الفستان، ثم إلى جسمها ، "البسيه."

" عفوا؟"

" البسيه."

لم يكن هناك سبب يدفعها لارتدائه. وفيما عدا غرفة قياس الملابس في المحل لم تلبسه أبدا. كما تعرف أنها لن تلبسه أبدا طالما كانت ترافق ديف. تعرفُ أيضا أنهما لن يذهبا إلى المطاعم مطلقا،

حيث سيقترب منها ويقبل يدها عبر الطاولة. سيتقابلان في شقتها أيام الآحاد، هو يرتدي بذلة الرياضة، وهي سروال الجينز. أخذت الفستان من روهن وهزته قليلا رغم أن المادة المصنوع منها لا تتغضن أبدا، ومدت يدها نحو الخزانة بحثا عن مشجب جديد.

" أرجوك، البسيه." قال فجأة وهو يقف خلفها. ألصق وجهه بجسمها، وطوق خصرها بذراعيه النحيلتين. " أرجوك؟"

" سأفعل." قالت وقد فوجئت بقوة مسكته.

ابتسم راضيا وجلس على حافة الفراش.

" عليك الانتظار في الخارج،" أخبرته مشيرة إلى الباب، "سأخرج إليك عندما أكون مستعدة."

" لكن أمي دائما تخلع ملابسها أمامي."

" حقا؟"

" وهي لا تقوم حتى بالتقاطها بعد ذلك، وتتركها مكومة فوق الأرضية."

استمر يقول، " ذات يوم نامت في فراشي، وقالت بأنها تراه أفضل من فراشها الآن بعد أن غادر أبي."

" لستُ أمك،" ورفعته من إبطيه عن سريرها، وعندما رفض

الوقوف، رفعته. كان أثقل وزنا مما توقعت، وتعلق بها بقوة محيطا ردفيها بساقيه، ورأسه يستكين على صدرها. أنزلته وأقفلت الباب، كما أغلقت الرتاج كاحتياط إضافي؛ ثم لبست الفستان وهي تتطلع في المرآة الكبيرة بحجم جسمها الملصقة خلف الباب. جواربها التي تصل إلى ركبتها بدت لها غير لائقة، وهكذا فتحت درجا ووجدت الجوارب الأخرى. بحثت بعد ذلك في الجانب الخلفي من الخزانة وارتدت حذاء الكعب العالي ذا الإبزيم المتناهي في الصغر. كانت تشعر بأربطة الفستان فوق عنقها في خفة الورق؛ وكان فضفاضا عليها فلم تتمكن من ضم سحابه بنفسها.

بدأ روهن يطرق الباب، " هل يمكنني الدخول الآن؟"

فتحت الباب ووجدته ممسكا بتقويمه في يده، ويتمتم بشيء ما. اتسعت عيناه عند رؤيته لها. قالت وهي تجلس على حافة الفراش، " احتاج لمساعدة في ربط السحاب."

شدّ السحّاب إلى فوق، ثم وقفت وقامت بدورة حول نفسها. فوضع روهن التقويم من يده وأعلن، "أنت مثيرة."

" ماذا قلت؟"

" أنت مثيرة."

جلست على السرير من جديد. ورغم معرفتها أن ذلك لم يعن

شيئا إلا أن قلبها قد فوّت إحدى دقاته. فمن المحتمل أنه يشير إلى كل النساء بأنهن مثيرات، وربما يكون قد سمع الكلمة من التلفزيون، أو رآها على غلاف مجلة ما. تذكرت ذلك اليوم في القبة الجغرافية، وهي تقف فوق الجسر مقابل ديف. حينذاك اعتقدت بأنها تعرف ما الذي تعينه كلماته، لقد كان لها معنى. ثم ثنت ذراعيها فوق صدرها، ونظرت في عينيه، " أخبرني شيئا."

التزم روهن الصمت

" ما معنى ذلك؟"

" ماذا ؟"

" كلمة ' مثيرة '. ما معناها؟"

نظر إلى تحت، وقد أحس بالخجل فجأة. " لا أستطيع أن أخبرك."

" لماذا ؟"

" لأنه سر." وزم شفتيه بقوة حتى أن قسما منها صار أبيض اللون.

" أخبرني عن السر، أريد أن أعرف."

جلس على السرير بجانبها وبدأ يضرب حافة الفراش بعقب حذائه، ثم قهقه بعصبية وجسمه ينتفض كأنما يتعرض لدغدغة.

" أخبرني." ثم انحنت وأمسكت ركبتيه لمنع قدميه من الحركة.

نظر إليها بعينين ضيقتين مثل شق طولي، وقاوم لتحرير قدميه ليتمكن من ضرب السرير من جديد، لكنها ضغطت فوقه. سقط إلى الوراء فوق السرير، ووضع يديه فوق فمه، ثم همس لها، "تعني أن تحب شخصا لا تعرفه."

أحست بكلمات روهن تنساب تحد جلدها مثلما أحست بكلمات ديف. لكن بدلا من الإحساس بالدفء شعرت بخدر. لقد ذكرتها بما أحست به في دكان البقالة الهندي بمجرد أن عرفت ودون أن تنظر إلى الصورة، بأن مدهوري دكست التي تشبهها زوجة ديف كانت جميلة.

استمر روهن، "هذا ما فعله أبي، لقد جلس إلى جوار امرأة لا يعرفها، امرأة مثيرة، والآن يحبها أكثر مما يحب أمي."

خلع نعليه، ووضعهما متجاورين على الأرض، ثم أزاح اللحاف ودخل في فراش ميراندا مع تقويمه. بعد لحظة سقط الكتاب من يده وأغمض عينيه. راقبته وهو يستغرق في النوم، واللحاف يعلو ويهبط أثناء تنفسه ولم يستيقظ بعد اثنتي عشرة دقيقة كما يفعل ديف، أو حتى بعد عشرين. لم يفتح عينيه وهي تخلع عنها فستان السهرة الفضي، وترتدي سروالها الجينز، وتعيد حذاء الكعب العالي مجددا إلى جوف الخزانة، وتلف الجورب اللحمي لتعيده إلى الدرج.

جلست على السرير عندما رتبت وضع كل شيء في مكانه، ومالت نحوه لتلتقط التقويم. كانت من القرب لترى أثر بعض الدقيق الأبيض من كعكة الأرز ملتصقا بزوايا فمه؛ وأثناء تقليبها الصفحات تخيلت كم عدد المشاحنات التي سمعها في بيته بمونتريال. "هل هي جميلة؟" توجّه أمه السؤال إلى أبيه وهي ترتدي ثوب الحمام نفسه الذي واظبت على ارتدائه لأسابيع، وقد غلفت الضغينة وجهها المليح. "هل هي مثيرة؟" سينكر والده ذلك في البداية، محاولا تغيير الموضوع. "أخبرني،" تزعق أم روهن، " أخبرني إن كانت مثيرة." في النهاية سيعترف أبوه بأنها كذلك، وستنخرط أمه في نوبة بكاء فوق سرير محاط بخليط من الملابس المكومة، وعيناها منتفخة مثل عيني ضفدع. "كيف طاوعتك نفسك، كيف يمكن أن تحب امرأة لا تعرفها؟" تقول منتحبة.

وبينما تخيلت ميراندا المشهد، أخذت تبكي قليلا هي نفسها. في القبة الجغرافية ذلك اليوم، بدت لها كل البلدان من القرب حتى تكاد تلامسها، وصوت ديف ينط بحرية فوق الزجاج. فوق الجسر وعبر مسافة ثلاثين قدما، وصلت كلماته إلى أذنيها، وكانت من القرب والدفء حتى أنها انسابت تحت جلدها لعدة أيام. ازدادت حدة بكائها ولم تستطع التوقف لكن روهن ما يزال نائما، وخمنت بأنه قد اعتاد ذلك الآن، أعتاد سماع صوت امرأة تنتحب.

يوم الأحد هاتفها ديف ليخبرها بأنه في طريقه إليها. " أكاد أجهز، وسأكون عندك في الساعة الثانية."

كانت تشاهد برنامج طهو في التلفزيون، تشير فيه المرأة إلى صف من ثمار التفاح، وتشرح أيها الأفضل لطبخها في الفرن. " لا يجب أن تأتي اليوم."

" ولم لا؟"

" لدي نزلة برد،" قالت كاذبة، لكنها لم تبتعد عن الحقيقة ، فقد ترك البكاء عيونها محتقنة. "لقد لزمت الفراش طوال الصباح."

" يبدو من صوتك أنك لست على ما يرام،" مرت فترة صمت، "هل تحتاجين شيئا؟"

" أنا بخير."

" تناولي الكثير من السوائل."

" ديف؟"

" نعم يا ميراندا."

" هل تذكر ذلك اليوم عندما ذهبنا إلى القبة الجغرافية؟"

" بالطبع."

" هل تذكر كيف همسنا لبعضنا؟ "

" أتذكر،" وهمس لها مداعبا.

" هل تذكر ما قلته لي؟ "

مرت فترة صمت،" قلت لك هيا نعود إلى بيتك،" وضحك في هدوء، " سنلتقي الأحد القادم إذاً؟ "

بينما كانت تنتحب في اليوم السابق، اعتقدت بأنها لن تنسى أي شيء - ولا حتى الطريقة التي كُتب بها اسمها بالحروف البنغالية. كانت قد نامت بجوار روهن، وعندما استيقظت وجدته صاحيا يرسم طائرة على نسخة مجلة الإيكونمست التي احتفظت بها مخبأة تحت السرير. " من هو ديفاجت ميترا؟ " سألها، وهو ينظر إلى العنوان على المجلة.

تخيلته ميراندا مرتديا بذلته الرياضية وحذاءه الخفيف يضحك عبر التلفون. بعد قليل سيهبط السلالم إلى حيث توجد زوجته، ويخبرها بأنه لن يذهب للركض هذا اليوم. سيخبرها أنه تعرض لشد عضلي أثناء الإحماء، وسينتهي به المطاف لقراءة الصحيفة. ورغما عنها فقد أحست بشوق إليه. وقررت بأنها ستقابله ليوم أحد إضافي فقط، وربما اثنان. بعد ذلك ستخبره بالأمور التي عرفتها كلها، وبأن هذا الوضع ليس عادلا بالنسبة لها أو لزوجته، وبأنهما يستحقان أفضل من هذا الوضع، وأنه لا مبرر لاستمرار علاقتهما.

لكن في الأحد التالي سقطت الثلوج بغزارة إلى الحد الذي لم يكن بإمكان ديف إخبار زوجته بأنه ذاهب للتريض في منطقة تشارلز. وفي الأحد الذي تلاه، ذابت الثلوج لكن ميراندا رسمت مخططا للذهاب إلى السينما مع لاكسمي، وعندما أخبرته عبر الهاتف، لم يطلب منها إلغاء ذلك. في الأحد الثالث نهضت من نومها مبكرا وخرجت لتتمشى. كان الجو باردا لكنه نهار مشمس وهكذا مشت كل المسافة إلى طريق الكومنولث، مارة بالمطاعم حيث قبّلها ديف، ثم مشت كل المسافة حتى ميدان الكرستيان ساينس. كانت القبة الجغرافية مغلقة، لكنها ابتاعت فنجان قهوة بالقرب منها، وجلست على أحد الكراسي الحجرية في السوق خارج الكنيسة، تنظر إلى الأعمدة الضخمة وإلى قبتها الهائلة، ونحو السماء الصافية التي تظلل فوق المدينة.

عند السيدة سِن

استمر إليوت يذهب إلى السيدة سِن لمدة شهر كامل منذ أن بدأت الدراسة في سبتمبر. في العام السابق كان تحت رعاية طالبة جامعية اسمها آبي، وهي فتاة نحيلة منمشة، تقرأ كتبا بدون صور على أغلفتها، وترفض أن تعد لإليوت أي طعام يحتوي على لحوم. قبلها رعته امرأة أكبر سنا، هي السيدة ليندين، وكانت تقوم بتحيته في كل مرة يأتي إلى البيت في العشية وهي ترشف القهوة من ترمس وتحل الكلمات المتقاطعة، بينما يقوم إليوت باللعب لوحده. تحصلت آبي على شهادتها وانتقلت إلى جامعة أخرى، وطُردت السيدة ليندن عندما اكتشفت أم إليوت بأن ترمسها يحتوي على الوسكي أكثر مما يحوي القهوة. أما السيدة سِن فقد جاءتهم عبر إعلان مكتوب بقلم منمق وُضع فوق دليل البطاقات خارج السوق العام: "زوجة بروفيسور، ملتزمة وعطوفة، يمكنني العناية بطفلكم في بيتي." على الهاتف قالت أم إليوت للسيدة سِن، بأن جليسات الأطفال السابقات هن من أتى إلى بيتها. "إليوت في الحادية عشر، وبإمكانه إطعام نفسه واللعب منفردا، كل ما أريده هو وجود شخص راشد في البيت تحسبا لأي طارئ."

قالت السيدة سِن أثناء لقائهما الأول، "كما ترين فبيتنا نظيف وآمن كثيرا بالنسبة إلى طفل."؛ والبيت عبارة عن شقة جامعية في أطراف المدينة الجامعية. للردهة الخارجية للبناية بلاط أرضي على شكل مربعات تخلو من الجاذبية، وصفٌ من صناديق البريد المعلمة بشريط لاصق أو علامات أسماء بيضاء. داخل الشقة، تجمدت ظلال متشابكة من أثر استخدام المكنسة الكهربية فوق سجادة أرضية بلون خوخي؛ كما تواجدت بقايا سجادات أخرى غير متناسقة الشكل أمام أريكة الجلوس والمقاعد، مثل تواجد مداسات الأرجل الأرضية التي توضع حيث يُعتقد أن أرجل الشخص ستلامس الأرض. تحيط بالأريكة وسائد بيضاء تشبه الطبول وما تزال ملفوفة بورق بلاستيكي من المصنع، وتغطي التلفزيون والهاتف قطع من قماش أصفر له حافة مطرزة. هناك شاي في الإبريق الرمادي الطويل، بالإضافة إلى أكواب للشرب، وبسكويت الزبد فوق السفرة؛ كما تواجد السيد سِن في البيت أيضا، وهو رجلٌ مكتنز قصير القامة بعينين جاحظتين قليلا، يرتدي نظارات بإطارات سود مستطيلة. صالب ساقية بشيء من المعاناة، وأمسك فنجانه بكلتا يديه قريبا من فمه حتى أثناء توقفه عن الشرب منه. لم يرتد السيد والسيدة سِن أحذيتهما، وإنما لبسا الشباشب، ولاحظ إليوت عدة أزواج من الأحذية مصفوفة فوق أرفف مكتبة صغيرة عند الباب الأمامي. "يقوم السيد س

بتدريس مادة الرياضيات في الجامعة." قالت السيدة سِن على سبيل التقديم وكأنهما لا يعرفان بعضهما إلا قليلا.

كانت في حوالي الثلاثين من عمرها، لها فلج صغير بين أسنانها وأثر بثور جدري فوق ذقنها؛ لكن لها عينان جميلتان بحاجبين كثيفين وزخرفة بمادة سائلة تخطت الاتساع الطبيعي للجفنين. ارتدت ساري أبيض لّماعا ومرقطا بزركشة البيسلي البرتقالية، وكان يليق أكثر لسهرة مسائية أكثر منه لهذه العشية الممطرة قليلا من شهر أغسطس. ولاستكمال الصورة طلت شفتيها بلون مرجاني لماع، فانساب قليل من الطلاء خلف حدوده المرسومة.

مع ذلك رأى إليوت أن أمه بسروالها القصير المكوي، وحذائها ذي الكعب القنبي الذي يبدو غريبا، وشعرها القصير الذي يتماشى مع لون سروالها هي التي بدت هزيلة جدا ومتكلفة؛ ففي هذه الغرفة حيث كافة الأشياء مغطاة بعناية، كانت رُكبتاها وفخذاها الحليقتان مكشوفة أكثر مما ينبغي. كما استمرت في رفض تناول قطعة بسكويت في كل مرة تمد السيدة سِن الطبق نحوها، مطلقة سيلا من الأسئلة لتدوّن أجوبتها في مفكرة صغيرة. هل سيكون هناك المزيد من الأطفال في الشقة؟ وهل رعت السيدة سِن أطفالا من قبل؟ وكم مضى عليها في هذه البلاد؟ وأكثر ما أقلقها هو عدم تمكن السيدة سِن من قيادة السيارات. كانت أمه تعمل في مكتب يبعد خمسين

ميلا إلى الشمال، وآخر ما تناهى إلى سمعه عن أبيه أنه يعيش على بعد ألفي ميل إلى الغرب.

" في واقع الحال، كنت أعطيها دروسا في القيادة." قال السيد سن وهو يضع كوبه فوق طاولة القهوة، وكانت المرة الأولى التي يتحدث فيها. "حسب تقديراتي، ستحصل على رخصتها بحلول شهر ديسمبر."

" حقا؟" وسجلت أم إليوت المعلومة في مفكرتها.

" نعم أتلقى دروسا في قيادة السيارة، لكنني طالبة بطيئة التعلم، وكما تعرفين فقد كان لدينا سائق في أرض الوطن."

" تعنين شوفير؟"

نظرت إلى السيد سن الذي أومأ لها برأسه.

أم إليوت أومأت أيضا وهي تلقي نظرة من حولها على الغرفة، "وهذا كل شيء ... في الهند؟"

" نعم،" أجابتها السيدة سِن، وبدا أن ذكر الكلمة يثير شيئا في كوامنها. رتبت وضع ساريها الذي ارتفع بشكل مائل عند صدرها؛ وهي أيضا نظرت من حولها في الغرفة، كأنها لاحظت في الوناسات، وفي إبريق الشاي، وفي الظلال المجمدة فوق السجادة شيئا لم تلحظه من قبل. "كل شيء هناك."

لم يمانع إليوت في الذهاب إلى السيدة سِن بعد المدرسة. وبحلول سبتمبر صار البيت الصغير عند الشاطئ الذي يعيش فيه مع أمه باردا، فكان عليهما حمل المدفأة المتنقلة كلما احتاجا للتنقل من غرفة إلى أخرى، كما اضطرا إلى سد النوافذ بصفائح بلاستيكية. كان الشاطئ مهجورا وباهتا ليلعب فيه بمفرده؛ والجيران الوحيدون الذين لم يغادروا المكان في عطلة عيد العمال هما زوجان شابان لا أولاد لهما؛ ولم يعد يجدُ متعة في جمع الأصداف البحرية في دلوه، أو يفرد الأعشاب البحرية لتكون مثل أشرطة من اللازانيا الزمردية فوق الرمال. كانت شقة السيدة سِن تتمتع بدفء، بل أحيانا كانت شديدة الدفء؛ تئز فيها الدفايات باستمرار مثل طناجر الضغط. وتعلّم إليوت أن يخلع نعليه عند باب شقة السيدة سِن، ويضعهما فوق الرف بالقرب من شباشبها بنعالها المسطحة التي تبدو مثل الورق المقوى، وبدائرة من الجلد يستقر فيها إصبع قدمها الكبير.

كان يستمتع على الأخص بمراقبة السيدة سِن وهي تفرم الأشياء أثناء جلوسها فوق أوراق الصحف في غرفة المعيشة. فبدلا من السكين استخدمت المرأة شفرة مقوسة مثل مقدمة سفينة الفايكنغ المبحرة نحو المعركة في بحار بعيدة. كانت الشفرة متصلة من طرفيها إلى مقبض خشبي رفيع، والمعدن يميل إلى السواد أكثر منه إلى اللون الفضي، بسطح غير منتظم الاستواء له قمة مشرشرة، أخبرته أنها

لغرض البشر. وفي كل عشية تقوم برفع الشفرة وتثبيتها في المكان المحدد، لكي تلتقي بالقاعدة عند زاوية معينة. كانت تجلس في مواجهة الحافة الحادة دون أن تلمسها، وتمسك بالخضار بين يديها ثم تقطعها إلى شطرين: كرنب الزهرة، والملفوف، والجوز الأرمد، وكانت تقطع الأشياء إلى أنصاص، ثم على أرباع، فتحصل بسرعة على المكعبات، والزهيرات، والشرائح، والقطع الصغيرة. ويمكنها تقشير الباطا في ثوان؛ أحيانا تجلس متصالبة الساقين، وأحيانا تبسطهما، محاطة بتنوع من المصافي والصحون المسطحة، وصحاف ماء تغطس فيها المحتويات المفرومة.

أثناء عملها كانت عيناها على التلفزيون وعلى إليوت، لكن لم يبدُ أبدا أنها تنظر إلى الشفرة. ومع ذلك فقد رفضت أن تدع إليوت يغيب عن نظرها أثناء قيامها بالفرم. " اجلس فقط، اجلس من فضلك ولن يطول الأمر أكثر من دقيقتين." تقول مشيرة إلى الأريكة التي يتواجد فوقها في كل الأوقات مفرش سرير باللونين الأخضر والأسود رسمت عليه صفوف من الفيلة تحمل محفات فوق ظهورها. يدوم هذا الترتيب اليومي نحو ساعة، ولكي تشغل وقته، تعطيه قسم الرسوم الساخرة من الصحيفة اليومية، وقطع بسكويت مغطاة بزبد الكاكاوية، وأحيانا تقدم له بوظة مثلجة أو جزرة تقشرها بشفرتها؛ لو كان بإمكانها لأحاطت منطقة جلوسهما بالحبال. ومع ذلك

قامت ذات مرة بخرق قانونها بنفسها. فنظرا لحاجتها إلى المزيد من المواد، ولترددها في النهوض وترك هذه الفوضى الكارثية المحيطة بها، طلبت منه أن يُحضر لها شيئا من المطبخ. "لو سمحت، هناك وعاء بلاستيكي واسع بما يكفي لحمل هذه السبانخ، ستجده في الخزانة الملاصقة للبراد." ونبهته وهو يقترب منها "حذار يا إلهي حذارا، ضعه فوق طاولة القهوة، حيث يمكنني الوصول إليه."

كانت قد جلبت الشفرة من الهند، حيث يبدو وجود واحدة منها على الأقل في كل بيت هناك. قالت لإليوت ذات يوم. "عندما يقام عرسٌ في العائلة أو احتفال كبير من أي نوع، تقوم أمي في المساء بإبلاغ كل الجارات لإحضار الشفرات المماثلة لهذه، ثم يجلسن فوق سقف بنايتنا، يضحكن ويتبادلن الشائعات، ويفرمن خمسين كيلوغراما من الخضار طوال الليل." كانت هيئتها مهيمنة بالكامل على منتجاتها: خليط من الخيار، والباذنجان، وقشور البصل المكومة من حولها. "من المستحيل الحصول على قسط من النوم في تلك الليالي أثناء الإنصات لهذرهن،" توقفت لتنظر إلى صورة مؤطرة لشجرة صنوبر، معلقة عند نافذة غرفة المعيشة. "لكن هنا، في هذا المكان حيث أتى بي السيد سن، لا أستطيع النوم أحيانا وسط هذا الصمت الهائل."

في يوم غيره جلست تسلخ الجلد الأصفر المشحم ذا البثور عن

قطع الدجاج، ثم تقطعها بين الساق والفخذ. كانت أساورها الذهبية تهتز بينما العظامُ تطقطق تحت ثقل شفرتها، ولمعت ذراعاها أثناء تنفسها بصوت مسموع عبر أنفها. عند نقطة معينة توقفت، ممسكة الدجاجة بكلتا يديها، وحدقت بنظرها خارج النافذة. كان الشحم والألياف يلتصق بأصابعها.

" إليوت ... إن بدأت في الصراخ الآن بأعلى صوتي، هل سيسمعني أي أحد؟"

" ما خطبك يا سيدة سِن؟"

" لا شيء، أنا فقط أسأل إن كان سيسمعني أحد؟"

" ربما." وهز كتفيه.

" في بيتنا، هذا ما عليك أن تفعل. فليس لدى الجميع هواتف، وكل ما عليك هو أن ترفع صوتك قليلا لتعبر عن الأسى أو السعادة، وسيحضر إليك كل سكان الحي، ونصف سكان الحي المجاور لمشاركتك الحدث، وتقديم المساعدة."

في هذا الوقت عرف بأنها كانت تعني الهند عندما تتحدث عن بيتها، وليس البيت الذي تجلس فيه الآن وتقطع الخضار. فكر في بيته الذي لا يبعد سوى خمسة أميال، وفي الزوجين الشابين الذين يلوحان له من حين لآخر أثناء ركضهما على الشاطئ عند الغروب.

في عطلة عيد العمال حضرت إلى بيتهما مجموعة من الأشخاص الذين اكتظت بهم الشرفات وكانوا يأكلون ويشربون، وصوتهم يعلو فوق صوت الأمواج الواهن. لم يُدع إليوت وأمه إلى الحفل، وذلك كان من الأيام القليلة التي تمكث فيها أمه في البيت، لكنهما لم يذهبا إلى أي مكان. غسلت الملابس وراجعت حسابات المصروفات، وقدم لها المساعدة في تنظيف السيارة بالمكنسة الكهربية. اقترح عليها الذهاب إلى مركز غسيل السيارات الذي يبعد عنهم أميالا قليلة كما يفعلان أحيانا، حيث يمكنهما الجلوس بداخل السيارة جافين وفي أمان، بينما تقوم دائرة ضخمة من نسيج الكنفا مع الماء والصابون بالسقوط بقوة على الزجاج الأمامي؛ لكنها قالت إنها متعبة واكتفت برش الماء على السيارة من خرطوم المياه. في المساء، وعندما بدأ الجمع المتواجد في شرفة بيت الجيران بالرقص، بحثت عن رقم هاتفهم، وطلبت منهم تهدئة الصوت.

في النهاية أخبرها إليوت، "ربما يتصل الجيران بك هنا، ولكن قد يكون للشكوى بأنك تصدرين الكثير من الضوضاء."

من حيث جلس فوق الأريكة أمكنه أن يشم رائحة الكمون وكريات النفتالين الغريبة عنه، وأن يرى كذلك المفرق المتناسق تماما في منتصف شعرها المظفور الذي أسبغت عليه صبغة كبريت الزئبق شيئا من اللون فبدا قليل الاحمرار. في البداية تساءل إن كانت قد

جرحت فروة رأسها، أو أن شيئا قد قرصها هناك. لكن ذات يوم رآها تقف أمام مرآة الحمام، تُعمِل عودا بإبهامها، وتضع مقدارا جديدا من البودرة القرمزية التي تخزنها في قارورة مربى صغيرة. سقطت بعض جزيئات البودرة فوق أرنبة أنفها، واستخدمت العود لرسم نقطة فوق حاجبيها. " لابد أن أضع هذه البودرة يوميا،" قالت له عندما سألها ذات يوم عن الغرض منها، "طوال فترة زواجي."

" تعنين مثل خاتم زواج."

" تماما يا إليوت، مثل خاتم الزواج، لكن دون الخوف من فقده في غسالة الصحون."

مع الوقت الذي تصل فيه أمه عند السادسة والثلث، تحرص السيدة سِن دائما على التخلص من كافة الأدلة على قيامها بالتقطيع. فهي تجلي الشفرة، وتغسلها وتجففها ثم تطويها وتضعها في الخزانة مستخدمة سلما صغير. وبمساعدة إليوت يتم هصر أوراق الصحف بما تحتويه من قشور الخضار وبذورها؛ ثم ترصفُ السلطانيات والمصافي فوق النضد، وتقاس مقادير المعاجين والبهارات فتخلط مع الطعام، وفي النهاية هناك تشكيلات من الحساء تغلي فوق نار زرقاء هادئة. لم يكن ذلك أبدا من أجل مناسبة خاصة، أو أنها تتوقع ضيوفا؛ فهو ليس إلا عشاء لها وللسيد سن كما يظهر من زوج الصحون والكؤوس بدون

مـنـاديل قماشـيـة أو شـوك وملاعـق، التـــي تـضعها علــى طاولـة الفورمايكا المربعة في طرف غرفة المعيشة.

أثـنـاء قـيامه بـرص أوراق الـصحف في سطل القمامـة، أحـس إليوت بأنـه والـسيدة سِـن يخـرقان نظامـا غير معلـن. ربمـا كـان ذلك بـسبب العجلـة التـي تنجـز بهـا الـسيدة سِـن كل شـيء، تقـرص الملـح والـسكر بين أصـابعها، وتـصب الماء على العدس، تنظف كل مـا يمكن تخيله من أسطح، وتغلق الخـزانـات والأدراج في تسلسل سريع. كـان سيُـصدم بعـض الـشيء لـرؤية أمـه في جـواربها الـشفافة، وسـتراتـها المحشوة الكتفين التي تـرتديها للعمل، تـبحلق في أنحـاء بيـت الـسيدة سِن. عـادة مـا تقـف في الجانـب البعيد من مدخل البـاب، منـادية عليه لكي يـرتدي حذاءه ويجمـع حـاجيـاته، لكن السيدة سِن لا تسمح بذلك. في كل مساء كانـت تـصر على جلوس أمه على الأريكة حيث تقدم لها شيئا تأكلـه: كـوب مـن اللبـنة الـوردية مـع شـراب الـورد، لحـم مفـروم ملبس بالخبز مع الزبيب، أو طبق من حلواء السميد.

" حقـا يـا سيدة سن، فعـادة مـا أتنـاول غدائـي في وقـت متأخـر، ولا يجب أن تتعبي نفسك لهذا الحد."

" لا يوجد تعب. مثل إليوت تماما، لا يوجد أي تعب."

تأخـذ أمـه في قـضم ملفـوفات الـسيدة سِـن، ونظـرها معلـق إلى

فوق في بحث عن شيء تقوله. تضغط ركبتيها سوية، وتضغط كعب حذائها العالي الذي لا تخلعه أبدا في السجادة الكمثرية. "لذيذ." تقول في نهاية الأمر، واضعة الطبق على الطاولة بعد قضمة أو اثنتين. كان إليوت يعرف أنها لا تحب مذاق الطعام كما أخبرته مرة في السيارة؛ ويعرف أيضا أنها لا تتناول طعاما خلال فترة عملها، لأن أول ما تقوم به عند وصولهما إلى البيت هو أن تصب لنفسها كوبا من النبيذ مع بعض الخبز أو الجبن، وأحيانا تتناول الكثير منها فلا تعود متلهفة لطبق البيتزا الذي يطلبانه عادة على العشاء. تجلس إلى الطاولة أثناء تناوله الطعام، تشرب المزيد من النبيذ وتسأله عما حدث في يومه، ولكن في النهاية تخرج إلى الشرفة لتدخين سيغارة، تاركة إياه يجهز على بقية الطعام.

* * * *

في كل عشية كانت السيدة سِن تقف عند فرجة بين أشجار الصنوبر على الطريق العام، حيث ينزل إليوت من الحافلة المدرسية مع اثنين أو ثلاثة من الأطفال القاطنين بالقرب منهم. لقد أحس دائما بأن السيدة سِن تنتظر في عين المكان لفترة طويلة وكأنها تتلهف للقاء شخص لم تره منذ مدة طويلة. كان الشعر فوق صدغيها يطيره النسيم، والصبغة قد وُضعت حديثا فوق جبهتها. ارتدت نظارات

شمسية بلون أزرق بحري، وهي كبيرة بعض الشيء على وجهها. أما ساريها، فمن نوع مختلف كل يوم، يرفرف تحت طرف معطفها ذي المربعات الصالح لكافة الأجواء. انتشرت الدبابير وجوز البلوط فوق الدائرة الإسفلتية المحيطة بمجمع من نحو عشرة من البيوت المتماثلة المشيدة من الآجر والمنزرعة في رقعة منفسحة من أشجار الغابة. أثناء سيرهما من المحطة إلى البيت، تُخرج من جيبها حقيبة شطائر، وتقدم له فصوص البرتقال المقشر، أو الكاكاوية المملحة قليلا التي تكون قد قشرتها بنفسها.

يتقدمان مباشرة نحو السيارة، وتتدرب السيدة سِن على قيادتها نحو عشرين دقيقة. كانت سيارة عائلية بلون الدبق ومقاعدها من الفينيل، لها راديو اف ام بمفاتيح من الكروم وفوق المقعد الخلفي وسائد، وعلبة مناديل ورقية، وجاروف للجليد. أخبرته بأنها لا ترتاح لتركه وحيدا في الشقة، لكنه يعرف بأنها تريد منه الجلوس بجانبها لأنها خائفة. كان يروعها صوت مفتاح الاشتعال وأثناء ضغطها على دواسة البنزين لإشعال المحرك تضع يديها فوق أذنيها لمنع الصوت عنهما.

" يقول السيد سن بأن كل شيء سيتحسن بمجرد حصولي على رخصة قيادتي. ماذا ترى يا إليوت؟ هل ستتحسن الأمور؟"

" سيمكنك الذهاب إلى أماكن مختلفة، تستطيع الذهاب إلى كل مكان."

" هل يمكنني القيادة طول المسافة إلى كلكوتا؟ وكم سيستغرق ذلك؟ عشرة آلاف ميل، بسرعة خمسين ميلا في الساعة؟"

لم يستطع حساب المدة في رأسه؛ وراقب السيدة سِن وهي تعدل مقعد السائق، والمرآة الخلفية، والنظارات الشمسية فوق رأسها. أدارت الراديو على محطة تذيع سمفونيات. "هل هذا بيتهوفن؟" ناطقة القسم الأول من اسم الموسيقار "P" وليس "B" ثم فتحت النافذة التي بجوارها وطلبت منه أن يفعل الشيء نفسه. أخيرا، وضعت قدمها على دواسة الفرامل، وتعاملت مع عتلة تبديل السرعة الأوتوماتيكية كأنما هي قلم ضخم ينقط حبرا، ثم تحركت للخلف بوصة وراء بوصة حتى خرجت من مكان الوقوف. دارت حول المجمع السكني مرة، ثم أخرى.

" كيف ترى أدائي يا إليوت، هل سأجتاز الامتحان؟"

كانت في حيرة مستمرة. توقفُ السيارة بدون تنبيه للاستماع إلى شيء ما في الراديو، أو لتحدق في شيء ما، أي شيء يقابلها في الطريق. إن مرت بشخص كانت تلوح له، وإن رأت طائرا على بعد عشرين قدما تزمر له وتنتظر حتى يطير بعيدا. قالت إن السائق في

الهند يجلس على يمين السيارة وليس في الجانب الشمالي. وببطء مرّا بمجموعة المراجيح، ومبنى المغسلة، وحاويات القمامة بلونها الأخضر الغامق، وبالسيارات الواقفة. في كل مرة يمران بمجموعة شجر البلوط حيث تلتقي الطريق الإسفلتية المحيطة بالمجمع مع الطريق الرئيسة، تميل إلى الأمام واضعة كل ثقلها على الفرامل بينما كانت السيارات تجتازهما مسرعة. كانت تلك طريقا ضيقة معلمة بخط أصفر، والمرور فيها أحادي في كلا الجانبين.

" مستحيل يا إليوت، كيف أذهب هناك؟"

" عليك الانتظار حتى ترين أن لا أحد يأتي من هناك."

" لم لا يبطئ أحدهم؟"

" لا يوجد أحد قادم الآن."

" لكن ماذا عن السيارة القادمة من جهة اليمين، هل تراها؟ وانظر، هناك شاحنة خلفها. على كل حال، لا يحق لي القيادة في الطريق الرئيس من دون مصاحبة السيد سن."

" عليك أن تسرعي." ذلك ما تفعله أمه، وكأنما بدون تفكير. لقد بدا الأمر حينها غاية في البساطة عندما يجلس بجوارها راكبين في المساء في طريق عودتهما إلى بيتهما على الشاطئ. حينذاك كانت الطريق طريقا فحسب، والسيارات الأخرى مجرد جزء من المشهد.

لكن عندما يجلس مع السيدة سِن، تحت شمس خريفيه تشع من خلال الأشجار بدون دفء، رأى كيف جعل هذا التدفق نفسه من السيارات براجم أصابعها تصبح باهتة، رسغاها يرتعشان، وتتلعثم أثناء الحديث.

" الجميع، وهؤلاء الناس، كثيرون في العالم."

عرف إليوت أن هناك شيئين يجعلان السيدة سِن سعيدة. أحدهما وصول رسالة من عائلتها؛ فقد كان من عادتها أن تفتش صندوق الرسائل بعد كل تدريب على السيارة. تفتحُ الصندوق لكنها تطلب من إليوت أن يمد يده ويبحث فيه، ثم تقفل عينيها وتحجبهما بيديها أثناء تفتيشه في فواتير الحساب والمجلات المعنونة باسم السيد سِن. في البداية لم يتمكن من فهم قلقها؛ لقد كان لأمه صندوق بريد في المدينة، حيث تجمع البريد بشكل غير منتظم، حتى أن الكهرباء قطعت ذات مرة عن بيتهم لثلاثة أيام. مرت أسابيع على تواجده مع السيدة سِن قبل أن يعثر لها على برقية في مظروف أزرق اللون ذي ملمس خشن، تغطيه أختام تُظهرُ رجلا أصلع الرأس يقف بمحاذاة عجلة دوّامة، كما طال السواد البرقية بفعل كثرة تداولها بين الأيدي.

" أهذا ما تبحثين عنه يا سيدة سن؟"

للمرة الأولى حضنته، وألصقت وجهه بساريها، فغمرته بروائح الكمون والنفتالين ثم أخذت منه البرقية.

بمجرد ولوجهما باب الشقة نزعت شبشبها كيفما اتفق، ونزعت مشبك المعدن من شعرها، ثم فتحت المظروف من الأعلى ومن الأجناب بثلاث حركات. وما أن انتهت من القراءة حتى أزالت المفرش الذي يغطي جهاز الهاتف، ثم أدارت رقما وسألت، "نعم، هل السيد سن موجود، أنا السيدة سِن ومن المهم جدا أن أحادثه."

بعد ذلك انطلقت في حديث بلغتها التي كانت سريعة وصاخبة على مسامعه؛ من الواضح أنها كانت تقرأ مضمون الرسالة كلمة بكلمة، وأثناء ذلك كان صوتها أعلى نبرة، وبدا عليه تحول في الطبقة. رغم أنها تتواجد أمامه بكل وضوح إلا أن أحساسا راوده بأنها لم تعد تتواجد في الغرفة ذات السجادة الكمثرية.

لاحقا لم تعد الشقة كبيرة بما يكفي لاحتوائها، فعبرا الطريق الرئيس قاطعين المسافة القصيرة نحو الحرم الجامعي، حيث تقرع أجراس في برج حجري كل ساعة. سارا عبر مقر اتحاد الطلاب، وسحبا بينهما سفرة على طول رف الكافتيريا، وفي وسط طلاب يتحدثون حول طاولات دائرية تناولا البطاطس المقلية المكومة في صحن من ورق مقوى. شرب إليوت الصودا من كوب ورقي بينما رشفت السيدة سِن كيس شاي مع السكر والقشدة. وبعد الأكل تجولا

في مبنى الفنون، ينظران إلى التماثيل والشاشات الفضية في ممرات مبردة فيها الهواء مثقل برائحة الصلصال والألوان الطازجة. ثم سارا نحو مبنى الرياضيات حيث يعطي السيد سن دروسه.

انتهى بهما المطاف في جناح في مبنى الرياضة يعبق برائحة الكلور، حيث شاهدا من خلال نافذة عريضة في الدور الرابع السابحين يقطعون المسافة من نهاية أحواض بلون الفيروز المتلألئ إلى النهاية الأخرى. ومن حقيبتها أخرجت البرقية التي وصلتها من الهند وتمعنت فيها من الأمام ومن الخلف، ثم فتحتها وقرأتها لنفسها، وهي تتنهد بين الفينة والأخرى، وعندما انتهت من القراءة حدقت بعض الوقت في السابحين.

" لقد رُزقت أختي بطفلة، وحين أراها في المستقبل، طبعا سيعتمد ذلك على تثبيت السيد سن في وظيفته، ستبلغ من العمر ثلاثا. وستكون خالتها ذاتها غريبة بالنسبة لها، وحتى لو جلسنا متجاورتين في القطار فلن تتعرف إلي." دست الرسالة في حقيبتها، ووضعت يدا فوق رأس إليوت، "هل تفتقد أمك يا إليوت، خلال هذه العشيات التي تقضيها معي؟"

لم يخطر له هذا الأمر على بال أبدا.

" لابد أن تفتقدها، وعندما أفكر فيك، وأنت لم تزل صبيا، منفصلا عن أمك أغلب ساعات النهار، أشعر بالخجل."

" لكنني أراها في الليل."

" عندما كنت في مثل سنك، لم أكن على دراية بأنني سأبتعد يوما ما كل هذه المسافة. لكنك أكثر حكمة من هذا يا إليوت، وقد بدأت تعرفُ الأمور كما هي عليه."

الشيء الآخر الذي يجعل السيدة سِن سعيدة هو شراء السمك من منطقة الشاطئ. وغالبا ما ترغب في الحصول على سمكة كاملة، وليس المحار، أو شرائح السمك التي شوتها أم إليوت ذات مساء منذ شهور عندما استضافت رجلا يعمل معها في المكتب - أمضى الرجل الليلة في غرفة أمه، لكن إليوت لم يره بعد ذلك قط. ذات مساء عندما أتت أم إليوت لاصطحابه، قدمت لها السيدة سِن كروكيت التن، وهي تشرح لها بأنه من المفترض أن تعد هذه الأكلة بسمك يُسمى بهتكي. "أمرٌ محبط للغاية،" اعتذرت السيدة سِن وهي تؤكد على مخارج اللفظة، "أن يعيش المرء بهذا القرب من المحيط، ولا يحصل على الكثير من السمك." كما قالت بأنها تحب خلال الصيف التوجه إلى السوق العام عند الشاطئ، مضيفة أنه رغم أن الأسماك لا تشبه مذاق أسماك الهند في شيء، لكنها على الأقل تتمتع بالطزاجة. أما الآن فقد بدأ موسم البرد، ولم تعد قوارب الصيد تخرج بصورة منتظمة، وأحيانا لا يعثر المرء على سمكة بحالها لأسابيع عدة.

" جرِّبي السوق العام." اقترحت عليها أم إليوت.

هزت السيدة سِن رأسها. "من السوق يمكنني إطعام أي قط اثنتين وثلاثين مرة من إحدى العلب الاثنتين والثلاثين، لكن لا يمكنني أبدا العثور على سمكة كاملة كما أريدها، إطلاقا." وقالت بأنها شبت على أكل السمك مرتين في اليوم، مضيفة بأن الناس في كلكوتا يأكلون السمك أول شيء في الصباح، وآخر شيء قبل النوم، وكوجبة أثناء الدراسة إن كانوا محظوظين. وهم يأكلون الذيل، وبيض السمك، وحتى الرأس؛ وأن هذه الأسماك متواجدة في أسواق صغيرة في كل الأوقات من الفجر حتى منتصف الليل. " كل ما عليك القيام به، هو مغادرة البيت والسير قليلا، فتجدين غايتك."

كل بضعة أيام تفتح السيدة سِن دليل الهواتف، وتطلب رقما تكون قد وضعت عليه إشارة في الهامش وتسأل عن مدى توفر أي أسماك كاملة، فإن كانت الإجابة بنعم تطلب منهم حجزها لها. "تحت اسم سن، السين تكتب كما في سام، والنون كما في نيويورك، وسيأتيكم السيد سِن لاستلامها." ثم تتصل بعد ذلك بالسيد سن في الجامعة. بعد دقائق يحضر فيريت على رأس إليوت، لكنه لا يقبّل السيدة سن، ثم يقرأ بريده فوق طاولة الفورمايكا، ويحتسي فنجانا من القهوة قبل خروجه. بعد نصف ساعة يعود حاملا حقيبة ورقية مرسوم عليها كركند مبتسم، ويسلمها إلى السيدة سِن؛ ثم يعود إلى الجامعة لإعطاء دروسه المسائية. وذات يوم عندما سلم الحقيبة الورقية لزوجته قال لها،

"أحتاج إلى الالتزام بمواعيد العمل، ولا حاجة للمزيد من السمك لبعض الوقت، اطبخي الدجاج الموجود في المجمدة."

خلال الأيام التالية وبدلا من الاتصال بسوق الأسماك قامت السيدة سِن بتذويب الثلج عن أوراك الدجاج في حوض الغسيل، ثم تقطيعها بشفرتها. وذات يوم أعدت طبيخا بالفاصوليا الخضراء والسردين المعلب. لكن في الأسبوع التالي هاتفها الرجل من سوق الأسماك الذي افترض بأنها ترغب في شراء سمك، وقال إنه سيحجزها باسمها حتى نهاية اليوم، فشعرت بالإطراء، "أليس هذا لطيفا منه يا إليوت؟ قال إنه بحث عن اسمي في دليل الهاتف وأنه لم يجد فيه إلا اسم سِن واحد. هل تعرف كم يوجد اسم سِن في دليل هواتف كلكوتا؟"

طلبت منه أن يرتدي حذاءه وسترته، ثم اتصلت بالسيد سِن في الجامعة. شد إليوت رباط حذائه الرياضي عند خزانة الأحذية ثم انتظرها للالتحاق به بعد أن تختار ما تنتعل من صف شباشبها. وبعد دقائق نادى عليها، وعندما لم تجبه فك رباط حذائه وعاد إلى غرفة المعيشة حيث وجدها تبكي فوق الأريكة. كانت تضع وجهها بين راحتيها والدموع تنساب من بين أصابعها، ومن خلال يديها ودموعها مرمرت شيئا حول اجتماع يتعين على السيد سن أن يحضره. ثم نهضت ببطء، وعدلت وضع المفرش فوق جهاز الهاتف؛

وتبعها وهو يمشي للمرة الأولى بحذائه فوق السجادة الكمثرية. حدقت فيه، فكان جفناها السفليان ممتلئين بحبات دمع وردية صغيرة. "أخبرني يا إليوت، هل كثير علي أن أطلب شيئا؟"

قبل أن يجيب، أمسكت بيده وقادته إلى غرفة النوم، التي عادة ما يظل بابها مغلقا. وفيما عدا السرير الذي كان بدون لوح رأسي، ليس في الغرفة سوى طاولة جانبية عليها جهاز هاتف، ولوحة لكي الملابس، ومكتبا. فتحت أدراج المكتب، وباب الخزانة المملوءة بسوار من كل نوع ولون يمكن تخيله، والمزينة بخيوط ذهبية وفضية. بعضها كان شفافا في سماكة منديل ورقي، وأخرى في سمك قماش الستائر بشرابات تزين أطرافها؛ ما يوجد منها في الخزانة كان معلقا في مشاجب، أما الموجود منها في الأدراج فقد طويت لتصبح مسطحة، أو لُفت بشدة فكانت مثل لفيفة من الورق. قامت بالبحث في الدرج فجعلت السواري تندلق من أطرافه، "متى كانت آخر مرة لبست فيها هذا؟ وهذا؟ وهذا؟" ورمت السواري واحدا تلو الآخر من الأدراج، ثم تفحصت عددا آخر من مشاجبها؛ فنزلت على السرير مثل كومة من الملاءات المتشابكة، وصارت الغرفة مملوءة برائحة النفتالين الحادة.

كتبوا لي، " ابعثي لنا صورا، ابعثي صورا لحياتك الجديدة، فأي صور يمكنني أن أرسلها لهم؟" جلست منهكة على حافة السرير حيث

بالكاد يوجد حيز للجلوس. "يظنون بأنني أعيش حياة الملكات، يا إليوت." ثم تفقدت جدران الغرفة الخالية من حولها، "يظنون بأنني أكبس زرا فيصبح البيت نظيفا، وبأنني أعيش في قصر."

رن جرس الهاتف وتركته يرن عدة مرات قبل أن ترفع الجهاز المحاذي للسرير. وخلال المحادثة بدت ترد على أمور تسمعها فقط، وتمسح وجهها بطرف أحد السواري. عندما انتهت من المكالمة رصت السواري مجددا في الدرج دون أن تطويها، ثم لبست هي وإليوت أحذيتهما وذهبا إلى السيارة حيث انتظرا أن يلاقيهما السيد سن.

" لم لا تقودين اليوم؟" سأل السيد سِن عند ظهوره، وهو ينقر ببراجمه على غطاء السيارة برفق. دائما يحدثان بعضهما بالإنغليزية عندما يكون إليوت موجودا.

" ليس اليوم، بل في يوم آخر."

" كيف تتوقعين اجتياز الامتحان إن كنت تمتنعين عن قيادة السيارة على الطريق مع بقية السيارات؟"

" إليوت معنا اليوم."

" إليوت هنا يوميا، وهذا لمصلحتك. إليوت، أخبرها بأن هذا لمصلحتها."

لكنها رفضت.

قادوا في صمت على الطرق نفسها التي كان يسلكها إليوت وأمه عائدين إلى بيت الشاطئ في كل ليلة. لكن في المقعد الخلفي لسيارة السيد والسيدة سِن لم تبد له الرحلة مألوفة، كما استغرقت وقتا أطول من المعتاد، والنوارس التي توقظه بصراخها الممل في كل صباح أمتعته الآن وهي تغطس وتصفق بأجنحتها عبر السماء. مروا بشاطئ بعد الآخر، وكانت الأكشاك التي تبيع الليمون المثلج وأصداف البطلينوس في الصيف مغلقة الآن؛ واحد منها فقط كان مفتوحا، إنه سوق السمك.

فتحت بابها والتفتت نحو زوجها الذي لم يفك رباط حزامه بعد. "هل ستأتي معنا؟"

لكنه سلمها بعض الأوراق النقدية من محفظته، "لدي اجتماع بعد عشرين دقيقة،" قال محدقا في لوحة مؤشرات السيارة أثناء حديثه، "أرجو ألا تضيعي الوقت."

رافقها إليوت إلى الدكان الصغير الشديد الرطوبة الذي غطيت جدرانه بشباك صيد ثبتت عليها نجوم البحر وعوامات الفلين. فيما كانت مجموعة من السوّاح بصواراتهم المعلقة حول أعناقهم يحتشدون بجانب نضد الخدمة، بعضهم ينتقي الرخويات المحشوة، وبعضهم يشير إلى خريطة تُظهر خمسين نوعا من أسماك شمال الأطلنطي. سحبت السيدة سِن تذكرة من الآلة الموجودة فوق النضد

وانتظرت في الطابور، بينما وقف إليوت عند الكركند التي كانت تتزاحم فوق بعضها في صهريجها المائي المضبب ومخالبها محاطة بأشرطة مطاطية صفراء. راقب المشهد وعندما أتى دور السيدة سِن في الطابور كانت تضحك وتتبادل الحديث مع رجل بوجه أحمر مشرق وأسنان صفراء، يرتدي مئزرا مطاطيا لونه أسود، ويمسك بكلتا يديه سمكة ماكاريل من الذيل.

" أنت متأكد أن ما تبيعه لي طازج جدا؟"

" لو كانت أكثر طزاجة ن هذا لأجابت عن سؤالك بنفسها."

وتحرك المؤشر إلى مستقره فوق الميزان.

" هل ترغبين في تنظيفها يا سيدة سن؟"

أومأت برأسها موافقة، "واترك الرؤوس من فضلك."

" لديك قطط في البيت؟"

" ليس ثمة قطط، وإنما زوجي."

داخل الشقة فيما بعد، سحبت الشفرة من الدولاب، وفرشت الصحف فوق السجادة ثم أخذت تفتش في كنزها. سحبت السمكات واحدة تلو الأخرى من ورق التغليف الذي كان مكرمشا ومنقطا بالدم. مسحت على الذيول، ونخست البطون، وبفضول تفحصت الأسماك

المنزوعة أحشائها. استخدمت مقصا لنزع الأجنحة، ووضعت إصبعها تحت الخياشيم التي كانت من الاحمرار حتى أن كبريت الزئبق فوق جبينها بدا باهتا بالمقارنة. ثم من النهايتين أمسكت بجسم السمكة المرسوم بخطوط حبرية، وعلَّمته بفواصل بواسطة شفرتها.

" لم تقومين بهذا ؟"

" لأرى كم شريحة تعمل، وإن قطعت هذه السمكة كما يجب، فستكفي لثلاث وجبات." ثم حزت الرأس ووضعته في طبق فطيرة.

مرت في نوفمبر أيام متعاقبة عندما رفضت السيدة سِن التدريب على القيادة. لم تخرج خلالها الشفرة قط من خزانتها، ولم تفرش أوراق الصحف على الأرضية. لم تهاتف محل الأسماك، أو هي قامت بإذابة الجليد عن الدجاج. كانت تعد في صمت قطع البسكويت مع زبد الكاكاوية لإليوت، ثم تجلس لقراءة برقيات مختلفة تخزنها في علبة أحذية. وعندما يحين موعد مغادرته تجمع حاجياته دون دعوة أمه للجلوس على الأريكة، وأن تأكل شيئا أولا. وفي النهاية عندما سألته أمه إن كان قد لاحظ تغيرا في تصرفات السيدة سِن، أجابها بالنفي. لم يخبرها بأنها كانت تذرع الشقة محدقة في الوناسات المغطاة بالبلاستيك وكأنها تراها للمرة الأولى؛ لم يخبرها بأنها تشعل جهاز التلفزيون لكنها لا تشاهده أبدا؛ أو أنها تعد لنفسها الشاي، لكنها تتركه حتى يبرد على طاولة القهوة. في أحد

الأيام أدارت شريطا لشيء أسمته راغا؛ وبدا له وكأن شخصا ما ينقر ببطء شديد على الكمان، ثم يتحول إلى سرعة عالية، وأخبرته أنه من المفترض ألا تُسمع هذه الموسيقى إلا في وقت متأخر من العشية عندما تبدأ الشمس في الغروب. بينما كانت الموسيقى تعزف، جلست على الأريكة نحو ساعة وعيناها مغلقتان. فيما بعد قالت له: " حتى إنها أكثر حزنا من بتهوفنكم، أليس كذلك؟" في يوم غيره، أدارت شريطا لأشخاص يتحدثون لغتها - أخبرته أنه هدية وداع أعدتها لها عائلتها، وبينما كانت الأصوات المختلفة تضحك، وتقول قولها، كانت السيدة سِن تعرّف بهم. "هذا عم أبي، وهذه ابنة عمي، وأبي، وجدي." انطلق أحد المتحدثين في أغنية، وألقى أخر قصيدة شعر، وكان آخر صوت على الشريط لأمّ السيدة سِن: الذي كان أكثر هدوءا وأكثر جدية من الأصوات الأخرى. هناك فاصل بعد كل جملة، وخلالها كانت السيدة سِن تترجم لإليوت: "ارتفع ثمن الماعز روبيتين، وثمار المانغو في السوق ليست حلوة المذاق كثيرا، وشارع الجامعة غطاه الفيضان." ثم أوقفت دوران الشريط. "كانت هذه هي الأحداث التي جرت في يوم مغادرتي للهند." في اليوم التالي أدارت الشريط بكامله من جديد، لكنها هذه المرة أوقفته عندما كان جدّها يتحدث. أخبرته بأنها تسلمت رسالة في نهاية الأسبوع تخبرها عن وفاته.

بعد أسبوع بدأت السيدة سِن تطبخ الطعام من جديد. وذات

يوم عندما كانت تقطع الملفوف على أرضية غرفة المعيشة اتصل بها السيد سن. أراد أن يصطحبها مع إليوت إلى شاطئ البحر. ولهذه المناسبة ارتدت ساري أحمر، وطلت شفتيها باللون الأحمر؛ أعادت إحياء اللطعة التي فوق جبينها، وضفرت شعرها. ربطت محرمة تحت ذقنها، كما أعادت ترتيب نظارتها الشمسية فوق رأسها، ثم وضعت صوارة جيب في محفظتها. عندما كان السيد سن يقود السيارة إلى الخلف للخروج من محطة الوقوف وضع ذراعه أعلى المقعد المجاور، فبدا وكأنه يلفها فوق السيدة سِن. "بدأ الجو يبرد بالنسبة لارتداء هذا المعطف، ولابد أن نجلب لك شيئا أكثر دفئا." قال لها في وقت ما. ابتاعوا من محل الأسماك الماكاريل والشبص. لكن في هذه المرة جاء السيد سن معهم إلى المحل، وهو من سأل إن كانت الأسماك طازجة، وطالب بأن تقطع بطريقة أو بأخرى. اشتروا الكثير من السمك بحيث اضطر إليوت إلى حمل أحد الأكياس معهما، وبعد وضعها في صندوق السيارة أعلن السيد سن بأنه يشعر بالجوع، فوافقته على ذلك، وعبروا الشارع نحو أحد المطاعم الذي كانت نافذة الخدمة الخارجية فيه مفتوحة، ثم جلسوا إلى إحدى طاولات المنتزه وتناولوا كعكتي بطلينوس، ووضعت السيدة سِن الكثير من حساء الشطة والفلفل الأسود على حصتها وقالت "مثل باكوراس الخضار المقلية،أليس كذلك؟" زال الطلاء الأحمر من شفتيها، وتورد وجهها، وكانت تضحك لكل ما يقوله السيد سن.

خلف المطعم هناك شاطئ صغير، وعندما انتهوا من الأكل تمشوا لبعض الوقت على الشاطئ في مواجهة ريح من القوة حتى أنهم اضطروا إلى السير قهقريا، وأشارت السيدة سِن إلى الماء قائلة بأن كل موجة تمثل أحد السواري المتروكة لتجف فوق حبل الغسيل. "مستحيل!" صاحت في النهاية وهي ترد على أعقابها ضاحكة، وعيناها تدمعان. "لا يمكنني الحركة." والتقطت صورة لإليوت والسيد سن يقفان فوق الرمال. "والآن واحد منا،" قالت وهي تضم إليوت إلى معطفها ذي المربعات، مُعطية الصوارة إلى السيد سن. ثم في النهاية سُلمت الصوارة إلى إليوت. "امسكها بثبات." قال له السيد سن، ونظر إليوت من خلال النافذة الصغيرة في الصوارة منتظرا أن يقترب الزوجان من بعضهما، لكنهما لم يفعلا. لم يمسكا بأيدي بعضهما، أو يضعا ذراعيهما على خصر الآخر. ابتسم كل منهما وأبقيا فميهما مغلقين، ومحدقين بقوة في وجه الريح، بينما ساري السيدة سِن يقفز مثل ألسنة اللهب تحت معطفها.

في السيارة، وقد شعروا بالدفء أخيرا، والتعب من مقاومة الرياح وتناول كعك البطلينوس، أبديا إعجابهما بكثبان الرمل، وبالسفن التي أمكنهما رؤيتها من بعيد، ومنظر المنارة البحرية، والشاطئ، والسماء البنفسجية. وبعد فترة خفف السيد سن من سرعته وتوقف على جانب الطريق.

" ما الأمر؟" سألته.

" ستقوين السيارة إلى البيت هذا اليوم."

" ليس اليوم."

" بل اليوم." ثم غادر السيارة وفتح باب السيدة سِن. انطلقت إلى الداخل ريح عاتية، مصحوبة بأصوات تكسر الأمواج فوق الشاطئ. أخيرا انزلقت إلى مقعد السائق، لكنها أمضت وقتا طويلا في ترتيب ساريها، وتعديل وضع نظارتها الشمسية. ثم التفت إليوت ونظر عبر النافذة الخلفية، فكانت الطريق خالية، وأدارت السيدة سِن الراديو فامتلأت السيارة بصوت موسيقى الكمان.

" لا حاجة لذلك،" قال السيد سن، وهو يغلق مفتاح الراديو.

" إنه يساعدني على التركيز،" قالت وهي تشعل الراديو من جديد.

" شغلي مؤشر دورانك."

" أعرف ما يتعين علي أن أفعل."

لمسافة ميل كانت على ما يرام، بالرغم من أنها أبطأ بكثير من السيارات التي كانت تجتازها. لكن عندما صاروا على مشارف البلدة ولاحت لهم الأضواء المرورية المعلقة في الأسلاك من بعيد، أبطأت أكثر من السابق.

" غيري الممر:" قال السيد سن، "ستحتاجين للتحول إلى اليسار عند جزيرة الدوران."

لكنها لم تفعل شيئا.

" أقول لك غيري الممر." ثم أطفأ الراديو " هل تسمعينني؟"

أطلقت إحدى السيارات منبهها، ثم تبعتها أخرى، فردت السيدة سِن بإطلاقَ منبهها في إجابة متحدية، ثم توقفت، وركنت إلى جانب الطريق دون إعطاء إشارة. "هذا يكفي." قالت وهي تريح جبهتها على المقود. "أكره هذا، أكره القيادة؛ ولن أواصلها."

توقفت عن القيادة بعد ذلك. لكن في المرة التي اتصل فيها محل الأسماك بعد ذلك، لم تهاتف السيد سن في مكتبه؛ بل قررت القيام بشيء جديد. كان ثمة حافلة تسعى بين الجامعة وشاطئ البحر كل ساعة. بعد الجامعة تتوقف في محطتين، الأولى عند بيت للرعاية، والثانية عند مكان للتسوق لا اسم له يتكون من مكتبة، ومحل أحذية، وصيدلية، ودكان لبيع الحيوانات الأليفة، وآخر للاسطوانات الموسيقية. على مقاعد طويلة تحت رواق المبنى المعمّد جلست نساء مسنات من بيت الرعاية في أزواج، مرتديات معاطف تصل إلى ركبهن لها أزرار أكبر من الحجم المعتاد، وكن يتناولن قطعا من حلوى المص.

" إليوت، هل ستضع أمك في بيت الرعاية عندما يتقدم بها العمر؟" سألته السيدة سِن أثناء جلوسهما في الحافلة.

" ربما، ولكني سأزورها كل يوم."

" تقول هذا الآن فقط، لكنك سترى عندما تصير رجلا، بأن حياتك ستدور في أمكنه لا يمكن أن تعرفها الآن." ثم أحصت على أصابع يديها. "سيكون لك زوجة، وأطفال، وسيرغبون في أن توصلهم إلى أماكن مختلفة في الوقت نفسه. ومهما تكن لطيفا معهم، سيتذمرون ذات يوم من زيارة أمك، وستتعب أنت أيضا من هذه الأمور يا إليوت. ستفوّت يوما، ثم آخر، وبعد ذلك ستضطر أمك إلى جرجرة نفسها إلى الحافلة فقط للحصول على علبة من المصاصات."

في محل الأسماك تكاد المسطحات الثلجية أن تخلو من السمك، كما هو الأمر مع أحواض الكركند، حيث يمكن رؤية لطخات بلون الصدأ من خلال الماء. وهناك إعلان يقول بأن المحل سيغلق أبوابه في نهاية الشهر خلال فترة الشتاء. ليس هناك سوى شخص واحد يقف خلف نضد البيع، وهو شاب لم يتعرف على السيدة سِن وهو يسلمها الكيس المحجوز باسمها.

" هل تم تقشيرها وتنظيفها؟" سألته السيد سن.

هز الفتى كتفيه " لقد غادر رب عملي مبكرا، وأوصى بتسليمك الكيس."

في الموقف تفحصت السيدة سِن جدول مرور الحافلة، ووجدت أن عليهما الانتظار ثلاثة أرباع الساعة لركوب الحافلة القادمة، وهكذا عبرا الشارع وابتاعا كعكات البطليموس من نافذة الخدمة الخارجية التي استخدماها في السابق. لم يجدا مكانا للجلوس، فلم تعد طاولات النزهة مستخدمة، وكانت مقاعدها مقلوبة ومربوطة إلى سلاسل فوقها.

في طريقهما إلى البيت ظلت سيدة مسنة في الحافلة ترقبهما، وتنتقل عيناها من السيدة سِن إلى إليوت إلى الحقيبة الملوثة بالدم بين قدميهما. ارتدت العجوز معطفا أسود، وفي حجرها كانت تمسك بيدين باهتتين شديدتي التغضن حقيبة بيضاء متجعدة من الصيدلية. والركاب الوحيدون غيرهم في الحافلة هما طالبا جامعة، صديق وصديقته، يرتديان كنزتين متشابهتين، وكانا يرتميان على المقعد الخلفي وأصابعهما متشابكة. في صمت تناول إليوت والسيدة سِن ما تبقى من كعكات البطليموس في الحقيبة.لقد نسيت السيدة سِن المناديل الورقية وكان أثر الزبادي موجودا فوق زوايا فمها. وعندما وصلوا إلى بيت الرعاية، وقفت المرأة المرتدية للمعطف، وقالت شيئا للسائق، ثم نزلت من الحافلة. فأدار السائق رأسه ملقيا نظرة نحو السيدة سِن وسألها، "ماذا في الحقيبة؟"

رفعت السيدة سِن وجهها متفاجئة.

" تتكلمين الإنغليزية؟" وبدأت الحافلة في التحرك من جديد، مما جعل السائق ينظر إليهما في مرآته الخلفية الضخمة.

" نعم يمكنني الحديث بها."

" إذاً، ماذا في الحقيبة؟"

" سمكة،" أجابته.

" يبدو أن الرائحة تزعج بقية الركاب يا فتى، وربما يتعين عليك فتح نافذتها أو شيء من هذا القبيل."

ذات عشية بعد عدة أيام رن جرس الهاتف. لقد وصلت على قوارب الصيد بعض أسماك الهاليبوت اللذيذة؛ فهل ترغب السيدة سِن في الحصول على واحدة منها؟ اتصلت بالسيد سن ولم تجده في مكتبه، حاولت للمرة الثانية ثم الثالثة. في النهاية توجهت إلى المطبخ وعادت تحمل الشفرة، وحبة باذنجان، وبعض أوراق الصحف. وبدون أن يطلب منه أخذ إليوت مكانه على الأريكة وراقب بينما قامت بقطع نهايتي الباذنجانة. قسمتها إلى شرائح طويلة رفيعة، ثم إلى مربعات صغيرة، ثم أصغر فأصغر، في مثل صغر مكعبات السكر.

" سأضع هذه في طبيخ سمك لذيذ للغاية مع موز أخضر، ولكن سأضطر للتخلي عن الموز الأخضر." قالت له.

" هل سنذهب لإحضار السمك؟"

" سنذهب لإحضار السمك."

" هل سينقلنا السيد سن؟"

" ارتد حذاءك،"

غادرا الشقة دون تنظيفها، وفي الخارج كان الجو شديد البرودة حتى أن إليوت أحس بالصقيع فوق أسّنانه. دلفا إلى السيارة، وقادتها السيدة سِن حول الدائرة الإسفلتية عدة مرات. في كل مرة كانت تتمهل بالقرب من مجموعة أشجار الصنوبر وتراقب حركة المرور على الطريق الرئيس، فاعتقد أنها كانت تتمرن أثناء انتظارهما للسيد سن، لكنها أرسلت إشارة واستدارت.

وقع الحادث بشكل سريع. فبعد حوالي ميل قامت بدوران نحو اليسار ما كان يجب أن تقوم به، وبالرغم من نجاح السيارة القادمة في الانحراف بعيدا عن طريقها، فقد جفلها صوت المنبه حتى أنها فقدت السيطرة على عجلة القيادة واصطدمت بعمود هاتف في الزاوية المقابلة. وصل شرطيٌ إلى المكان وطلب رؤية رخصة قيادتها، لكن لم يكن لديها واحدة لتبرزها له. "السيد سِن يعلّم الرياضيات في الجامعة،" هو كل ما نطقت به في معرض تفسيرها للأمر.

كان الضرر طفيفا، حيث جرحت السيدة سِن شفتها، واشتكي إليوت لوهلة من ألم في قفصه الصدري، كما احتاج مانع

الصدمات الأمامي إلى تسوية. اعتقد الشرطي أن السيدة سِن قد جرحت فروة رأسها أيضا، لكنها لم تكن سوى صبغة كبريت الزئبق. وعندما وصل السيد سن يقله أحد زملائه، تحدث مطولا مع الشرطي بينما كان يملأ بعض الاستمارات، لكنه لم يقل شيئا للسيدة سن وهو يقلهم إلى الشقة. وعندما غادروا السيارة، ربت على رأس إليوت: "يقول الشرطي أنك محظوظ جدا للخروج من هذا الحادث دون أي خدش."

بعد نزع شبشبها ووضعه في خزانة الأحذية، دست شفرة الفرم التي ما تزال فوق أرضية غرفة المعيشة، ورمت قطع الباذنجان وأوراق الصحف في سطل القمامة. ثم أعدت طبقا من البسكويت مع زبد الكاكاوية، وضعته فوق طاولة القهوة، وأدارت التلفزيون ليشاهده إليوت. "إن كان ما يزال جائعا، أعطه مثلج البوظة من الصندوق في المجمدة." قالت للسيد سن الذي جلس إلى طاولة الفورمايكا ينقب في البريد الوارد، ثم دخلت إلى غرفتها وأغلقت الباب. عندما حضرت أم إليوت في السادسة إلا ربعا، أخبرها السيد سن بتفاصيل الحادث، وعرض تحرير صك لإعادة رسوم شهر نوفمبر. وبينما كان يكتب الصك، اعتذر نيابة عن السيدة سِن الذي قال بأنها ترتاح الآن، رغم أن إليوت سمع بكاءها عند توجهه إلى الحمام. قبلت أمه بهذه الترتيبات، وبشكل ما اعترفت له أثناء ركوبهما إلى البيت بأنها

شعرت بالراحة لما حدث. كانت تلك آخر عشية يمضيها مع السيدة سِن، أو مع أية جليسة أخرى؛ ومنذ ذلك الحين أعطته أمه مفتاح البيت الذي يعلقه حول رقبته. كان عليه أن يدخل بنفسه لبيت الشاطئ وأن يتصل بالجيران عند أي طارئ. في يوم وحدته الأول وبينما هو يخلع معطفه، رن الهاتف. كانت أمه تتصل من المكتب، وقالت له، " أنت فتى كبير الآن، يا إليوت، هل أنت بخير؟" نظر إليوت من نافذة المطبخ، نحو أمواج كئيبة ترتد عائدة من الشاطئ، وأجابها أنه بخير.

هذا البيت المبارك

اكتشفوا الأوّل في دولاب فوق الموقد، وبجانبه قنينة من خل الشعير لم تفتح من قبل.

" خمّن ماذا وجدت." دخلت توينكل إلى غرفة المعيشة، المغطاة من حدها إلى حدها بصناديق أمتعة مربوطة بشريط لاصق، كانت تلوّح بقنينة الخل في يد، وفي اليد الأخرى تمسك بتمثال للمسيح من البورسلين الأبيض يماثل حجمه تقريبا حجم القنينة.

رفع سانجيف عينيه من حيث كان يجثو على الأرضية يُعلّم بأجزاء من لصقة شريطية، فوق لطع في الإزار الخشبي تحتاج إلى تجديدها بالطلاء، "ارمِ بعيدا."

" أي منها؟"

" كلاهما."

" لكن يمكنني استخدام الخل في طبخ شيء ما، فهو جديد."

" لم تستخدمي الخل في الطبخ من قبل قط."

" سأبحث عن وصفة ما في إحدى كتب الطبخ التي أهديت لنا في زواجنا."

التفت سانجيف مجددا نحو إزار الحائط ليعيد لصق قصاصة سقطت على الأرض. "انظري في تاريخ انتهاء الصلاحية، وعلى الأقل تخلصي من هذا التمثال السخيف."

" لكنه قد يساوي شيئا، فمن يدري؟" قلبته في يدها، ثم مسّدت بسبابتها فوق الثنيات الباردة لأروابه. " إنه جميل."

" لسنا مسيحيين،" قال سانجيف الذي بدأ يلاحظ مؤخرا الحاجة إلى إبلاغها بالبديهيات. ففي اليوم السابق اضطر لأن يخبرها بأنها إذا جرجرت الجانب الذي كانت تحمله من المكتب بدلا من رفعه فستتعرض الأرضية للخدش.

هزت كتفيها. "لسنا مسيحيين، فنحن هندوس مخلصون وعاديون." ثم طبعت قبله على رأس المسيح، ووضعت التمثال على رف المستوقد الذي لاحظ سانجيف أنه يحتاج إلى تنظيف.

مع نهاية الأسبوع ظل رف المستوقد بدون تنظيف؛ لكنه صار مكانا لعرض مجموعة لا بأس بها من المقتنيات المسيحية؛ حيث تواجدت فوقه بطاقة بريدية ثلاثية الأبعاد بأربعة ألوان للقديس فرانسيس عثرت عليها توينكل ملصقة بشريط إلى الجزء الخلفي من

خزانة الدواء، ثم سلسة مفاتيح بها صليب خشبي كان سانجيف قد داسها بقدمه أثناء تركيبه أرففا إضافية في مكتبها، وهناك رسم مؤطر للحكماء الثلاثة فوق خلفية من مخمل أسود وقد دُست في صوان الملابس. ثم رقاقة فوق حامل ثلاثي يظهر عليها المسيح أشقر وغير ملتحي أثناء إلقائه موعظة فوق قمة جبل، وقد تُركت في أحد أدراج خزانة الخزف المبنية في غرفة الطعام.

" هل تعتقد أن الملاّك السابقين كانوا من المهتدين دينيا؟" سألته وهي تخلي مكانا في اليوم التالي لقبّة بلاستيكية صغيرة يغطيها الثلج، وتحتوي على مشهد متناهي الدقة لولادة المسيح، عثرت عليها خلف أنابيب حوض غسيل المطبخ.

كان سانجيف يرتبُ كتبه عن الهندسة من جامعة متشغان للتقنية على الرف حسب التسلسل الأبجدي، بالرغم من مضي سنين منذ أن احتاج لمراجعتها. انتقل بعد التخرج من بوسطن إلى كونيتكت، للعمل مع شركة بالقرب من هارتفورد، وقد عرف أخيرا بأنه مرشح لمنصب نائب الرئيس. وفي سن الثالثة والثلاثين، صار له سكرتيرة خاصة، وأشخاص يعملون تحت إشرافه، يمكنهم تزويده عن طيب خاطر بكل ما يحتاج إليه. مع ذلك، فوجود كتبه من أيام الجامعة في الغرفة يذكره بتلك الفترة من حياته التي ينظر إليها بحنين، عندما كان يمشي في كل مساء عبر جسر طريق ماساشوتس

ليتناول دجاج الموغالي بالسبانخ من مطعمه الهندي المفضل في الجانب الثاني من التشارلس، ثم يقفل عائدا إلى مقر إقامته لكتابة صفحات جديدة من مسائله.

" أو ربما هي محاولة للتبشير،" قالت توينكل متأملة.

" من الواضح أن الخطة قد حققت غرضها بالنسبة لك."

تجاهلته، وهي تهز القبة البلاستيكية الصغيرة ليسقط عنها الثلج في مذوذ المستوقد.

تمعن في الأشياء التي فوق الرف، وقد حيره أن كلا منها كانت ساذجة بحد ذاتها. كما زاد من حيرته، أن توينكل التي عادة ما أظهرت ذوقا رفيعا، بدت له مسرورة بهذه الأشياء. لقد عنت أمرا ما لها، لكنها لم تكن كذلك بالنسبة له فهي تثيره. " يجب أن نتصل بالوسيط العقاري ونخبره عن كل هذه السخافات التي تُركت في البيت، ونخبره بأن يحملها بعيدا."

" أوه، ساجي." تأوهت توينكل، "أرجوك، سأشعر بالفظاعة لرميها بعيدا. من الواضح أنها تشكل أهمية لمن كانوا يقطنون البيت. وسينتابني أحساس ما؛ لا أعرف، مثل تدنيس المقدسات أو شيء من هذا القبيل."

" إن كانت ثمينة للغاية، فلماذا إذا إخفاؤها في أرجاء البيت، ولماذا لم يأخذوها معهم؟"

" لابد أن هناك المزيد منها." قالت وعيناها تجوسان الجدران البيضاء الجرداء للغرفة، كأن هناك أشياء أخرى مخفية خلف الملاط.
" ماذا تظن أننا سنجد أيضا؟"

لكن أثناء تفريغ صناديقهما، وتعليق ملابسهما الشتوية والرسومات الحريرية لمسيرات الأفيال التي اشتريت أثناء شهر عسلهما في جايبور، فزعت توينكل لعدم عثورها على شيء . مر أسبوع قبل أن يكتشفا عشية ذات سبت، رسما كبيرا بالألوان المائية وبالحجم الطبيعي للمسيح الذي كان يذرف دموعا شفافة بحجم قشرة الكاكاوية، ويرتدي تاجا من الأشواك؛ كان الرسم ملفوفا خلف جهاز التدفئة في غرفة الضيوف. وقد ظن سانجيف خطأ بأنها ستارة نافذة.

" أوه، لابد، بكل بساطة لابد أن نعلقها، فهي رائعة للغاية." أشعلت سيغارة وراحت تدخنها بتلذذ، وصارت تلوح بها حول رأس سانجيف وكأنها عصا قائد فرقة، بينما كانت السيمفونية الخامسة لماهلر تصدح من جهاز الستيريو في الطابق السفلي.

" اسمعيني الآن، سأتحمل في الوقت الراهن معرض وحوشك التوراتية في غرفة المعيشة، ولكني أرفض أن تعرض هذه، في بيتنا." قال مشيرا إلى إحدى دموع الكاكاوية المرسومة.

حدقت فيه توينكل، مستنشقة بهدوء الدخان الخارج في تيارين زرقاوين من فتحات أنفها. ثم لفت الرسم ببطء، محيطة إياه بأحد الأربطة المرنة التي تضعها دائما حول رسغها لضم شعرها الكثيف الثائر المخضب هنا وهناك بالحناء؛ وقالت "سأعلقها في مكتبي، وهكذا لن تضطر للنظر إليها."

" وماذا عن حفل تدشين البيت الجديد، سيطلبون رؤية كل الغرف، وقد دعوتُ أشخاصا من المكتب."

قلبت عينيها، ولاحظ سانجيف بأن السيمفونية في حركتها الثالثة قد وصلت إلى مرحلة التصعيد، لأنها خفقت بإشارة قرع الصاجات.

عرضت عليه: "سأضعها خلف الباب، وبهذه الطريقة لن يروا شيئا عندما يلقون نظرة من الباب، مبسوط؟"

وقف يرقبها وهي تغادر الغرفة مع رسمها وسيغارتها؛ سقط بعض الرماد على الأرض حيث كانت تقف؛ وانحنى أرضا ليلتقطه بين أصابعه، ثم أودعه في راحته المقبوضة. وحينذاك بدأت الحركة الرابعة الرقيقة من السيمفونية، الأداغيتو. خلال الإفطار قرأ سانجيف النوتات المسطرة التي اقترحها ماهلر على زوجته عندما أرسل لها مسودة هذا الجزء من القطعة الموسيقية. وبالرغم من وجود

عناصر المأساة والصراع في السيمفونية الخامسة كما قرأها، إلا أنها كانت في الأساس موسيقى عن الحب، والسعادة.

سمع صوت سيفون دورة المياه، "على فكرة،" صاحت توينكل، "إن أردت إثارة إعجاب الناس، فلا تشغل هذه الموسيقى، إنها تدفعني إلى النوم."

ذهب سانجيف إلى الحمام وتخلص من رماد السيغارة. ما يزال عقب السيغارة يطفو في مقعد الحمام، لكن الخزان يمتلأ من جديد، وعليه الانتظار دقيقة قبل أن يطرد المياه مرة أخرى. فحص رموشه الطويلة في مرآة خزانة الأدوية - مثل أهداب الفتيات، كما تحب توينكل إثارته. وبالرغم من بنيته العادية، إلا أن لوجنتيه امتلاءً ما، وكان متخوفا أن هذا الامتلاء إلى جانب الرموش الطويلة ينتقص مما أمِل أنه شكل متميز لديه. كان متوسط الطول أيضا، وقد تمنى، منذ أن توقف عن النمو لو أنه كان أطول بمقدار بوصة واحدة. ولهذا السبب كان يثيره إصرار توينكل على ارتداء الكعب العالي، كما فعلت تلك الليلة عندما تعشيا في مانهاتن. هذه هي عطلة نهاية الأسبوع الأولى منذ انتقالهما إلى البيت؛ وفي هذا الوقت امتلأ الرف بشكل كبير، وقد تجادلا حول الأمر عند ذهابهما للعشاء. بعد ذلك تناولت توينكل أربعة كؤوس من الويسكي في حانة لا اسم لها، ونسيت الموضوع. جرجرته معها إلى مكتبة، ثم استغرقت ساعة

تنقب فيها عن الكتب، وعند مغادرتهما أصرت على أن يرقصا التانغو على الرصيف أمام الأغراب.

بعد ذلك تمايلت على ذراعه، مرتفعة قليلا فوق مستوى نظره في حذاء سويدي بشكل جلد النمر طول كعبه ثلاث بوصات. وبهذه الوضعية مشيا أمام بنايات لا حصر لها نحو مستودع سيارات في ميدان واشنطن، لأن سانجيف سمع الكثير عن المخاطر التي تتعرض لها السيارات في مانهاتن. "ولكني لا أقوم بشيء طوال النهار سوى الجلوس إلى مكتبي،" قالت مهتاجة أثناء عودتهما للبيت، عندما ذكر بأن حذاءها لا يبدو مريحا مقترحا عليها ألا ترتديه. "لا يمكنني بالضبط ارتداء الكعب أثناء قيامي بالطباعة." وبالرغم من انسحابه من هذا الجدل، إلا أنه يعرف حقيقة أنها لا تجلس إلى مكتبها طوال اليوم. في هذه العشية بالذات عندما عاد من الركض، لم يجد تعليلا لوجودها تقرأ في الفراش؛ وعندما استفسر عن سبب وجودها هناك في منتصف النهار أخبرته أنها تشعر بالسأم. رغب أن يقول لها أن بإمكانك تفريغ بعض الصناديق، وبإمكانك تنظيف علية السقف، بإمكانك وضع لمسة طلاء على إفريز نافذة الحمام، وبعد القيام بذلك يمكنك تحذيري حتى لا أضع ساعتي فوقه. لكن هذه الأشياء المتفرقة لم تزعجها. فهي تبدو راضية بما تجده من ملابس في واجهة الصوان، وبأية مجلة تجدها ملقاة أمامها، وبأية أغنية تسمعها في الراديو-

راضية ومع ذلك فضولية. والآن يتمحور كل فضولها حول اكتشاف الكنز التالي.

بعد بضعة أيام، وعند عودة سانجيف من العمل وجد توينكل ممسكة بالهاتف، تدخن وتتحدث إلى صديقاتها في كاليفورنيا، رغم أن الوقت كان قبل الخامسة مساء وأسعار المكالمات البعيدة في أوجها. "إنهم متدينون للغاية،" سمعها تقول، وتتوقف بين الفينة والأخرى لتنفث الدخان. "فكل يوم هو بمثابة بحث عن الكنز. أنا جادة في ما أقول، ولن تصدقي هذا؛ كانت مفاتيح الأنوار في غرف النوم مزخرفة بمشاهد من الكتاب المقدس؛ تعرفين، مثل سفينة نوح وتلك الأشياء. ثلاث غرف نوم، لكن إحداها هي مكتب لي، وقد ذهب سانجيف إلى متجر الأدوات على الفور وقام باستبدالها. هل تتخيلين ذلك، لقد استبدل كل واحد منها."

والآن جاء دور الصديقة في الحديث. كانت توينكل تهز رأسها، بينما تجلس بترهل على الأرضية أمام البراد، مرتدية سروال ركوب وكنزة صوفية من الشانيل الأصفر، وتبحث عن ولاعتها. بإمكانه أن يشم رائحة شيء ما على الموقد، فتحسس طريقة بعناية فوق سلك الهاتف المزاد في الطول والمتشابك فوق بلاط التراكوتا المكسيكي؛ ثم نزع غطاء القدر الذي كان يغلي بقوة، وبعض الطبخ البني المحمر يسيل على الأجناب.

"إنـه طبـيخ الـسمك، وقـد وضـعتُ فـيه بعـض الخـل." أخـبرته مقـاطعـة صديقتهـا، ومـصالبة أصـابعهـا. "معـذرة، مـاذا كـنت تقـولين؟" هـي هكـذا، تـشعرها الأشـيـاء البـسيطة بالمـتعة والإثـارة، وتـصالب أصابعها قبل كل حدث لا يمكن توقع نتائجه، مثل تذوق نكهة جديدة من البوظة، أو وضع رسالة في صندوق بريد. ذلك تميزٌ لديها لم يتمكن مـن فهمـه، ممـا يجعلـه يحـس بالغـبـاء، وكـأن العـالم يحـوي أعاجـيب مخفية لا يمكنه توقعها، أو رؤيتها. نظر إلى وجهها الذي خطر بباله أنـه لم يـتحول مـن مـرحلته البناتـية بعـد؛ فالعيـنـان غـير مباليـتان، والتقاطيع الحلوة لم تتصلب بعد، وكأنما ما زال عليها أن تتخذ شكلا من التعبير الدائم. كانت قد حصلت على كنيتها من لفظ مُقفى أثناء فترة الحضانة، ومـا يـزال عليها التخلي عن اسم تحبب اكتسبته في طفولتها. والآن، في الـشهر الثانـي مـن زواجهمـا، هـنـاك أمـور معيـنـة تـضايقه ـ مـثل الطـريقة التـي يـنطلق فـيها بعـض الـرذاذ مـن فمهـا أحيانا أثناء حديثها، أو ملابسها الداخلية التـي تتركهـا بعـد نـزعها عند قدم السرير بدلا من وضعها في سلة الغسيل.

لم يلتقـيا إلا مـنذ شـهور أربعـة . فـوالداها اللـذان يعيـشان في كاليفورنيا، ووالداه اللذان ما يـزالان في كلكوتا كانوا أصدقاء قدامى، وقد رتبوا عبر القارات المناسبة التي يلتقي فيها سانجيف وتوينكل ـ عيد الميلاد السادس عشر لفتاة من معارفهم ـ عندما يكون سانجيف

في باولو ألتو في زيارة عمل. جلسا متجاورين إلى طاولة المطعم التي كان عليها صحن كبير دوار يحوي ضلوع اللحم، ولفائف البيض، وأجنحة الدجاج، وقد اتفقا في الرأي بأن مذاق كافة الأطعمة يبدو متشابها. كما اتفقا أيضا على شغفهما المتواصل منذ أيام المراهقة بروايات وودهاوس، ومقتهما لآلة السيتار؛ وفيما بعد اعترفت توينكل بأنها افتتنت بالطريقة التي كان سانجيف يعيد بها ملئ كوبها بالشاي إحساسا منه بالواجب أثناء حديثهما.

هكذا بدأت المكالمات الهاتفية بينما، واستطالت مدتها، ثم بدأت الزيارات، في البداية عندما زار هو ستانفورد، ثم زيارتها له في كونيتيكت، التي قام سانجيف على أثرها بالاحتفاظ بالمنفضة التي تركت في الشرفة وبها أعقاب السغائر التي دخنتها خلال نهاية الأسبوع ـ وحتى موعد زيارتها القادمة، حيث يقوم عندها بتنظيف غبار الشقة، وغسل الملايات، بل وحتى تنظيف الغبار عن أوراق النباتات على شرفها. كانت في السابعة والعشرين من عمرها، وعرف أنها قد هُجرت من قبل صديق أمريكي حاول أن يكون ممثلا وفشل؛ كان سانجيف وحيدا، يحصل على دخل كبير للغاية بالنسبة لرجل أعزب، ولم يقع في الحب قط. وبناء على إلحاح من مدبري اللقاء بينهما، عقدا زواجهما في الهند، في وسط المئات من متمني الخير لهما الذين بالكاد تعرف عليهم سانجيف من أيام طفولته، وفي وسط وابل

لم ينقطع من مطر أغسطس، وتحت خيمة حمراء برتقالية تسطع فيها أضواء شجرة عيد ميلاد كانت قد نُصبت في طريق مندافيل.

"هل كنستِ سقف العلية؟" وجه لها السؤال لاحقا، بينما كانت تطوي المناديل الورقية وتحشرها بالقرب من طبقيهما. كان سقف العليُة هو الجزء الوحيد من البيت الذي لم يحظ بتنظيف مبدئي بعد.

" ليس بعد، ولكنني أعِد بتنظيفه. أرجو أن يكون مذاق هذا جيدا." قالت وهي تضع القدر الذي ينطلق منه البخار فوق المِنصب الثلاثي الذي عليه رسم يسوع. تواجد فوق الطاولة رغيف خبز إيطالي في سلة صغيرة، وسلطة مثلجة عليها جزر مبشور، ورُش فوقهما مرق توابل السلطة وفتات الخبز المحمص، مع كؤوس من النبيذ الأحمر. لم يكن لها اهتمامات تذكر بأمور المطبخ وكانت تبتاع الدجاج المشوي مسبقا من السوق وتقدمه مع سلطة البطاطا المباعة في أوعية بلاستيكية صغيرة والتي لا يعرف أحد تاريخ تجهيزها. كما كانت تتذمر من أن الطعام الهندي مزعج؛ فهي تمقت تقطيع الثوم، وتقشير البنجر، وليس بإمكانها تشغيل الخلاط؛ وهكذا، فسانجيف هو من يقوم في العطلات بتجهيز خلطة التوابل من زيت الخردل وأعواد الكمون والقرنفل من أجل إعداد الطبيخ المناسب.

رغم كل ذلك اضطر للاعتراف أنه بغض النظر عما أعدته اليوم،

فقد كان لذيذ المذاق بشكل استثنائي، كما أن منظره كان لطيفا، بوجود المكعبات السمكية البيضاء فيه، ونتف البقدونس، وقطع الطماطم الطازج المشعة في وسط خليط الطبيخ الأحمر البني الداكن.

"كيف صنعت هذا ؟"

" لقد اخترعت الوصفة."

"ماذا فعلت؟"

" كلما هنالك إنني وضعت أشياء في القدر، وأضفت بعض الخل في النهاية."

" وكم كان مقدار الخل؟"

هزت كتفيها وهي تقطع جزءا من رغيف الخبز وتغمسه في قدرها.

" ماذا تقصدين بعدم المعرفة؟ كان عليك تدوين الوصفة، فماذا لو احتجت لها مرة أخرى، من أجل حفلة أو شيء ما؟"

" سأتذكر" أخبرته، ثم غطت سلة الخبز بمنشفة الصحون التي اكتشف فجأة بأن الوصايا العشر مرسومة عليها. أطلقت في وجهه ابتسامة سريعة، كما خصت ركبته بضغطة خفيفة من تحت الطاولة. " واجه الأمر، فهذا البيت مبارك."

اختير يوم السبت الأخير من أكتوبر لإقامة حفلة تدشين

البيت، ووجها الدعوة لحوالي ثلاثين شخصا. جميعهم كانوا من معارف سانجيف، جماعة من المكتب، وعددٌ من الأزواج من منطقة كونيتيكوت، أغلبهم لا يعرفهم إلا لماما، لكنهم كانوا يستضيفونه على العشاء في أماسي السبت بصورة منتظمة في أيام العزوبية. غالبا ما تعجب من ضمهم له في دائرتهم، فلم يكن لديه سوى القليل من المشتركات معهم، لكنه كان يحضر تجمعاتهم دائما، ويتناول الحمص وقطع القريدس المتبل، ثم ينهمكون في الثرثرة ومناقشة السياسة، فمن النادر أن كانت له أية مخططات أخرى. حتى الآن لم يقابل أي منهم توينكل عندما كانا في مرحلة المواعدة، فهو لم يشأ تبديد عطلات نهاية الأسبوع القليلة لديهما مع أشخاص ارتبط معهم منفردا. أما هي فلم تعرف في ولاية كونيتيكوت سوى سانجيف، وصديق سابق تعتقد أنه كان يعمل في محل لصناعة الفخار في بروكفيلد. كما كانت تستكمل دراستها لأعداد رسالة الماجستير في كلية ستانفورد عن شاعر أيرلندي لم يسمع سانجيف باسمه من قبل قط.

عثر سانجيف على البيت بنفسه قبل المغادرة لإتمام الزفاف، وكان سعره مناسبا، وفي منطقة تتمتع بمنظومة تعليمية راقية. أعجبه منظر الدرج المنحني بأناقة مع عمود درابزين من الحديد المطاوع، واللون الخشبي الداكن للطلاء، والمشمس المطل على شجيرات الرودوندرون الوردية، واللوحة النحاسية ذات الرقم 22

الذي يوافق يوم مولده، وكانت مثبتة بأناقة في واجهة البيت ذات الطراز التودوري. يوجد بالبيت مدفأتين، ومرآب يتسع لسيارتين، وله علّيّة في السقف يمكن تحويرها إلى غرف نوم إضافية إذا دعت الحاجة كما أشار الوسيط العقاري. حينذاك حزم سانجيف أمره على العيش مع توينكل في ذلك البيت، إلى الأبد، وعليه لم يكلف نفسه عناء ملاحظة أن مفاتيح الكهرباء مغطاة بملصقات توراتية، أو صورة العذراء الشفافة على نصف الصدفة، كما أحبت توينكل أن تسميها، ملصقة إلى النافذة في غرفة النوم الرئيسة. بعد انتقاله إلى البيت، وعندما حاول نزعها، قام بخدش الزجاج.

في عطلة الأسبوع التي سبقت الحفلة، كانا ينظفان عشب الفناء عندما سمع توينكل تطلق صرخة. أسرع نحوها حاملا مدمّته، وقد شغله احتمال اكتشافها لحيوان ميت، أو ثعبان ما. لسع نسيم أكتوبري منعش قمة أذنيه في الوقت الذي كان يدوس بحذائه الرياضي أوراق الشجر البنيّة والحمراء. وعندما وصل إليها وجدها منهارة فوق العشب، مستغرقة في ما يكاد يكون ضحكة صامتة. فخلف شجيرة فرسيتية مفرطة في النمو تواجد تمثال من الجص لمريم العذراء يصل طوله إلى مستوى جذعيهما، تغطي رأسه قلنسوة مطلية بالأزرق كما هو حال العرائس الهنديات. أمسكت توينكل بطرف قميصها وشرعت في مسح الطين الذي يلوث رأس التمثال.

" أتصور أنك تريدين وضعه عند قدم سريرنا." قال لها.

نظرت إلية مشدوهة . كان بطنها عاريا، ورأى بثور البرد الدقيقة حول سرتها. "وماذا ترى؟ بالطبع لا يمكننا وضع هذا في غرفة نومنا."

" لا يمكننا؟"

" كلا يا ساذج، فهذا مخصص ليوضع في الخارج. في الحديقة."

" أوه يا ربي، لا يا توينكل، لا."

" لكن يجب أن نقوم بذلك، وسيكون من سوء الطالع إن لم نفعل."

" سيراه كل الجيران، وسيظنون أننا مجانين."

" ولم ذلك. لأن لدينا تمثال لمريم العذراء في حديقتنا؟ كل الناس في هذه الجيرة لديهم تمثال للعذراء مريم في حديقتهم. وسنكون من بينهم."

" لسنا مسيحيين."

" أرى أنك تذكرني بهذا الأمر طوال الوقت." ثم بصقت على طرف إصبعها، وبتصميم شرعت في دعك تلوث عصيّ على التنظيف فوق ذقن العذراء، "هل تعتقد أن هذا وسخ، أم أنه نوع من النمو الفطري؟"

لا يمكنه التفاهم معها. هذه المرأة التي لم يتعرف عليها إلا منذ

أربعة شهور فقط، والتي تزوجها، هذه المرأة التي يتقاسم معها الآن حياته. وتذكر بومضة من الأسى الصور التي كانت أمه تبعثها له من كلكوتا عن عرائس محتملة بإمكانهن الغناء والحياكة وإضافة التوابل لطبق العدس دون اللجوء لكتاب طبخ ما. تأمل سانجيف تلك النسوة، وحتى أنه رتبهن حسب الأفضلية، ولكن بعد ذلك قابل توينكل. "توينكل. لا يمكنني أن أدع العاملين معي يرون هذا التمثال في حديقتي."

" لا يمكنهم طردك لأنك مؤمن، فسيكون ذلك تمييزا في المعاملة."

" ليس هذا هو الموضوع."

" لم تهتم كثيرا بما سيظن الآخرون؟"

" رجاءً يا توينكل؟" كان يشعر بالتعب، فترك جسده يتكئ على مدمّته بينما بدأت هي في سحب التمثال نحو مساحة بيضاوية مغطاة بنبات الآس العطري عند عمود الإضاءة في طرف الممر الحجري. "انظر يا سانج، كم جميلة هي."

عاد إلى كوم الأوراق وبدأ يضعها بحفنات في كيس نفايات بلاستيكي. من فوق رأسه كانت السماء خالية من الغيوم، وما تزال شجرة في الحديقة تحتفظ بأوراقها الحمراء والبرتقالية، مثل الخيمة التي تزوج توينكل فيها.

لم يعرف إذا ما كان يحبها. لقد صرح لها بحبه عندما سألته للمرة الأولى، ذات عشية في باولو ألتو عندما جلسا متجاورين في صالة سينما مظلمة وخالية تقريبا. قبل بداية الفلم الذي كان أحد أفلامها المفضلة، عنوانه له علاقة بالألمانية وكان يجده ثقيلا على نفسه، ضغطت مقدمة أنفها على أنفه لكي يشعر برفرفة رموشها المغطاة بالمسكارة. في تلك العشية أجابها، نعم، إنه يحبها، وقد سعدت هي بذلك، فألقمته حبة من الفشار تاركة إصبعها يتريث هنيهة بين شفتيه، وكأن ذلك بمثابة جائزة له لنطقه بالإجابة الصحيحة.

لقد افترض أنها تحبه أيضا رغم أنها لم تصرح بذلك، لكنه لم يعد متأكدا من ذلك الآن. في الحقيقة لم يعرف سانجيف كنه الحب، ويعرف فقط ما ليس من الحب في شيء. لقد رأى بأنه ليس من الحب في شيء العودة كل مساء إلى مقر بارد مغطى بالسجاد وخاضع لسيادة مشتركة، وألا يستخدم سوى الشوكة العلوية من درج أدوات المائدة، والامتناع بلياقة عن حضور حفلات العشاء خلال عطل نهاية الأسبوع عندما يقوم الآخرون في نهاية المطاف بوضع أذرعهم حول خصور زوجاتهم وصديقاتهم، منحنين بين فينة وأخرى لتقبيل أكتافهن أو أعناقهن. لم يكن أيضا من الحب في شيء طلب الحصول على اسطوانات الموسيقى الكلاسيكية بواسطة البريد، والبحث بشكل منهجي بين الملحنين الكبار الذين يقترحهم الكاتالوج،

وأن يقوم دائما بدفع أثمان تلك الاسطوانات في الوقت المحدد. لقد بدأ سانجيف يرى هذا الأمر في الشهور التي سبقت لقاءه توينكل. كانت أمه تذكره بذلك عند بداية محادثتهما الهاتفية في بداية كل شهر، "لديك نقود في المصرف تكفي لإعالة ثلاث أسر، أنت بحاجة إلى زوجة ترعاها وتحبها." والآن لديه هذه الزوجة، وهي جميلة، ومن طبقة اجتماعية راقية ومناسبة، وسرعان ما تحصل على إجازة الماجستير. ما الذي هناك مما لا يمكن أن يُحَب؟

في تلك الأمسية صب سانجيف لنفسه كأسا من شراب الجن والتونك، وشربه مع ما يقارب كأسا أخرى خلال قسم واحد من نشرة الأخبار، ثم اقترب من توينكل التي كانت تستلقي في حمام رغوة بعد أن أعلنت أن أطرافها تؤلمها من تنظيف الحديقة وهو ما لم تفعله من قبل قط. لم يطرق الباب، وكانت قد طلت وجهها بطبقة من قناع تجميل ذي لون أزرق لماع، تدخن سيغارة وهي ترشف من كأس البوربون مع الثلج بينما تتصفح كتابا بغلاف ورقي تغضنت صفحاته وتحولت إلى اللون الرمادي بفعل الماء. نظر في غلاف الكتاب؛ فرأى أن الكلمة الوحيدة عليه هي "السوناتات" بلون أحمر داكن. سحب نفسا وأخبرها بهدوء شديد أنه بعد أن ينهي شرابه سيرتدي حذاءه ويذهب للخارج لإزالة تمثال العذراء من الحديقة.

" أين ستضعه؟" سألته حالمة، وعيناها مغلقتان. برزت إحدى

ساقيها وانبسطت برشاقة من بين طبقات الرغوة؛ ثم أرخت أصابع قدمها ومددتها.

" في الوقت الحالي سأضعه في المرآب. وفي صباح الغد سأحمله إلى مرمى القمامة في طريقي إلى العمل."

" لا تحاول القيام بذلك." ثم وقفت تاركة الكتاب يسقط في الماء، وفقاعات الرغوة تسيل فوق فخديها. "أكرهك،" قالت له وهي تضيّق عينيها في الوقت نفسه، ثم مدت يدها إلى ثوب الحمام، الذي ربطته بإحكام حول وسطها ونزلت السلم الملتوي بخطى صامتة تاركة أثر أقدام مبلولة فوق الأرضية الخشبية المزخرفة. وعندما وصلت إلى الردهة قال سانجيف، "هل تنوين مغادرة البيت بهذا الشكل؟" أحس بارتعاشة في صدغيه، وأفصح صوته عن زمجرة غير معهودة.

" ومن يهتم؟ من يهتم بالشكل الذي أغادر فيه هذا البيت؟"

" وأين تنوين الذهاب في هذه الساعة؟"

" لا يمكنك رمي هذا التمثال. فلن أسمح لك بذلك."

كان القناع الذي على وجهها قد جف الآن، فصار بشكل الرماد، وتساقطت قطرات الماء من شعرها على الخطوط القشرية فوق وجهها.

" نعم يمكنني ذلك، وهو ما سأفعله."

" لا،" قالت وقد انكمش صوتها فجأة، "هذا بيتنا، وكلانا يملكه، والتمثال جزء من أملاكنا." ثم بدأت ترتجف. كانت بركة صغيرة من مياه الحمام قد تجمعت عند كاحليها. فتوجه لغلق النافذة خوفا من تعرضها للبرد. ثم لاحظ أن بعض الماء الذي يسيل فوق وجهها الأزرق المتيبس ليس إلا دموعا.

" أوه، يا إلهي ، أرجوك يا توينكل، لم أقصد ذلك." لم يرها تبكي من قبل قط، ولم ير مثل هذا الحزن في عينيها من قبل. لم تلتفت بعيدا، أو تحاول وقف سيل الدموع؛ وبدلا من ذلك بدت مسالمة على نحو غريب. للحظة أغلقت جفنيها الباهتين اللذين كانا دون وقاية مقارنة مع اللون الأزرق الذي كسا باقي وجهها. عندها أحس سانجيف بالسقم، وكأنه قد تناول الكثير جدا من الطعام أو أنه لم يتناول إلا القليل.

توجهت نحوه وطوقت عنقه بأكمام ثوب حمامها المبللة، منتحبة فوق صدره، ومبللة قميصه؛ وقد انتشر قناع وجهها فوق كتفيه.

في النهاية توصلا إلى حل وسط: سيوضع التمثال في مكان منعزل إلى جانب البيت حتى لا يبدو ظاهرا للمارة، لكنه سيكون ظاهرا بوضوح لكل من يدخل إلى البيت.

كانت قائمة الطعام للحفلة بسيطة إلى حد ما: سيكون هناك صندوق من الشمبانيا، وطبق الساموسا من مطعم هندي في هارتفورد، وأطباق الأرز مع الدجاج والمكسرات وشرائح البرتقال التي أمضى سانجيف أغلب الصباح والعشية في إعدادها. لم يولم من قبل قط مثل هذا العدد الكبير من الناس، وخشي ألا يكون هناك ما يكفي من الشراب فانطلق مسرعا في وقت ما لشراء صندوق إضافي من الشمبانيا تحوطا للأمر. وبسبب ذلك احترق منه أحد أطباق الأرز واضطر للبدء من جديد. نظفت توينكل الأرضيات وتطوعت لإحضار الساموسا على طريقها فعلى كل حال كان لديها موعد مع محل تجميل في الاتجاه نفسه للعناية بأظافر يديها وقدميها. خطط سانجيف أن يطلب منها إزالة معرض الوحوش من فوق رف المدفأة، ولو من أجل الحفل، لكنها غادرت أثناء وجوده في الحمام. كانت قد غادرت منذ أكثر من ساعات ثلاث، وعليه فهو من قام بتنظيف بقية المكان. بحلول الخامسة والنصف كان البيت بأكمله يلمع نظافة، مع وجود شموع تبث روائح شتى كانت توينكل قد اشترتها من هارتفورد، وأعواد رفيعة من البخور المشتعل المغروسة في تربة أصص النبتات. كان يجفل في كل مرة يمر فيها برف المدفأة متخوفا من حواجب ضيوفه المرفوعة وهم ينظرون إلى قديسي السيراميك الذين يومضون في ضوء الشموع، وإلى رشاشات الملح والفلفل التي تمثل العذراء وجوزيف. مع ذلك أمِل أن ينبهروا أثناء ارتشافهم الشمبانيا

وغمس الساموسا في صلصة التوابل، بالنوافذ البارزة، وبأرضية الباركيه الخشبية اللماعة، وبالسلالم الملتوية المثيرة للإعجاب، وبالجزء السفلي من الجدار المكسو بخشب السنديان الفاخر.

أول الواصلين كان دوغلاس مع صديقته نورا وهو أحد المستشارين الجدد في المؤسسة. كانا طويلين وشقراوين، يرتديان نظارات طبية ذات إطار معدني ومعاطف سوداء طويلة مشابهة. كانت يدها اليسرى ممسكة بيد دوغلاس وارتدت قبعة سوداء مملوءة بريش مدبب رفيع لتتمشى مع الزوايا الحادة الرفيعة لوجهها؛ أما في يدها اليمنى فتمسك بقنينة كونياك مربوطة عند عنقها بشريط أحمر، سلمتها لسانجيف.

" حديقة رائعة يا سانجيف،" قال دوغلاس ملاحظا، "لابد يا حلوتي أن ننظف حديقتنا، ولابد أن هذه هي . . . "

" زوجتي تانيما."

" يمكنك أن تناديني توينكل."

" يا له من اسم غير مألوف،" لاحظت نورا.

هزت توينكل كتفيها، "على الإطلاق، فهناك ممثلة في بومباي تسمى ديمبل كباديا، وحتى أن لها أختا تدعى سيمبل."

على التوالي رفع دوغلاس ونورا حاجبيهما وهزا رأسيهما

ببطء، وكأنما ليدعا غرابة هذه الأسماء تستقر في ذهنيهما. "نحن سعداء بلقائك يا توينكل."

" تناولا الشمبانيا فهناك غالونات منها."

قال دوغلاس، "أرجو ألا تمانعوا في سؤالي، ولكنني لاحظت التمثال في الخارج، فهل أنتم مسيحيون؟ اعتقدت أنكم هنود."

أجاب سانجيف، "هناك مسيحيون في الهند، ولكن لسنا منهم."

" تعجبني ملابسك،" قالت نورا لتوينكل.

" وأنا معجبة بقبعتك. هل ترغبين في القيام بجولة في البيت؟"

قرع الجرس مرة أخرى، وأخرى، ثم أخرى. وخلال الدقائق التالية بدا وكأن البيت قد امتلأ بالأجساد والأحاديث والعطور غير المألوفة. ارتدت النساء أحذية عالية الكعوب وجوارب شفافة، وفساتين سوداء قصيرة من الكريب الحريري والشيفون؛ وكن قد سلّمن شالاتهن ومعاطفهن إلى سانجيف الذي وضعها بعناية فوق المشاجب في خزانة المعاطف الواسعة، بالرغم من أن توينكل أخبرتهم برمي أشياءهم فوق المساند العثمانية في المشمس. لبست بعض الهنديات أفضل أنواع الساري المزركش بالتخريم الذهبي المزين بثنيات أنيقة فوق أكتافهن. أما الرجال فلبسوا سترات وأربطة عنق كما وضعوا عطور ما بعد الحلاقة الفواحة بالليمون. وبينما تجول الناس من غرفة إلى أخرى،

تكومت الهدايا فوق مائدة طويلة مصنوعة من الخشب الأحمر الممتدة من إحدى نهايات الصالة التحتية إلى الأخرى.

ما أدهشه هو أن هؤلاء الناس قد أبدوا اهتمامهم وفعلوا كل هذا من أجله، ومن أجل بيته وزوجته. فالمرة الوحيدة في حياته التي حدث له فيها شيء مشابه كانت يوم زفافه، لكن بشكل ما فهذا الأمر مختلف، لأن هؤلاء ليسو من عائلته، لكنهم أشخاص لم يعرفهم إلا لماما، وبمفهوم ما لم يكونوا مدينين له بشيء. لقد هنأه الجميع، وتوقع ليستر، وهو موظف آخر معه، أن يترقى سانجيف إلى منصب نائب المدير في غضون شهرين بأقصى تقدير. التهم الضيوف الساموسا، وأملى عليهم حس الواجب إبداء إعجابهم بالأسقف والجدران المطلية حديثا، وبالنباتات المعلقة، والنوافذ البارزة، والرسومات على الحرير من جايبور. لكن أكثر ما أعجبهم هو توينكل، وقميصها السالوار المقصب الذي كان بلون ثمر البرسيمون الأصفر، وله انخفاض عند الظهر؛ كما أعجبوا بعقد براعم الأزاهير البيضاء التي لفته بمهارة حول رأسها، وعقد اللؤلؤ مع الياقوت الأزرق في وسطه الذي زين عنقها. وعلى أنغام موسيقى الجاز المحمومة التي أشرفت توينكل على تشغيلها، ضحك الضيوف على حكاياتها وملاحظاتها، مكونين دائرة تتسع من حولها، في الوقت الذي أحضر فيه سانجيف المزيد من الساموسا التي احتفظ بها ساخنة في الفرن،

وجلب قطع الثلج لشراب الضيوف، وفتح المزيد من قناني الشمبانيا مع بعض الصعوبة، وشرح للمرة الأربعين بأنه ليس مسيحيا. كانت توينكل هي التي قادتهم في جماعات منفصلة أعلى وأسفل السلالم الملتوية ليلقوا نظرة على الحديقة الخلفية، وليحدقوا في درج القبو من عل. "أصدقاؤك معجبون بالملصق الذي في مكتبي،" أخبرته ذات مرة مزهوةً وهي تضع يدها على ظهره عندما مرا ببعضهما.

دلف سانجيف إلى المطبخ الذي كان خاليا، وتناول بأصابعه قطعة دجاج من سفرة على النضد لأنه اعتقد أن لا أحدا يراه، ثم التهم قطعة أخرى ومسحها بجرعة من شراب الجن من القنينة مباشرة.

" بيت رائع، وأرز رائع." دخل عليه سونيل، وهو باحث في علوم التخدير، وكان يغرف الطعام بملعقة من طبقه إلى فمه. " هل لديك المزيد من الشمبانيا؟ "

" واو، زوجتك مثيرة للإعجاب." أضاف برابال، الذي يتبعه وهو أعزب وبروفيسور في الفيزياء في جامعة ييل. للحظة حدق فيه سانجيف بنظرة تخلو من التعبير، ثم بوجه يحمر خجلا؛ فأثناء العشاء ذات مرة أعلن برابال أن صوفيا لورين هي واو، وكذلك أودري هبورن. "هل لديها أخت؟ "

" وهل لقبها هو لتل ستار؟" قال سونيل وهو يلتقط حبة زبيب من طبقه.

ضحك الرجلان وهما يتناولان المزيد من الأرز الذي كان في السفرة، جارفين لهما طريقا خلاله بملاعقهما البلاستيكية. نزل سانجيف إلى القبو ليحضر المزيد من الشراب، ولبضع لحظات توقف فوق الدرج، في ذلك الصمت البارد الرطب، حاضنا صندوق الشمبانيا الثاني إلى صدره، في الوقت الذي كانت فيه الضحكات تنساب فوق غطاء القبو من فوقه. وأخيرا قام بوضع معدات الدعم فوق طاولة الأكل.

" نعم كل شيء، لقد وجدناها جميعا في البيت، وفي أقل الأمكنة توقعا." تناهى إليه صوت توينكل من غرفة المعيشة. "في الحقيقة فقد استمر عثورنا عليها."

" لا ! "

" بلى ! فكل يوم هو بمثابة البحث عن كنز. غاية في الروعة، والله وحده يعلم ماذا سنجد أيضا. أنا جادة في ما أقول."

ذلك كيف بدأ الأمر. فكأنما يسيرون على هدي حلف غير معلن، رص الجميع قواهم وبدؤوا في تمشيط كل غرفة في البيت، يفتحون الخزانات لوحدهم، ويحدقون تحت المقاعد والوسائد، يتحسسون خلف الستائر، ويحركون الكتب من أرففها. كانت المجموعات تركض ضاحكة متمايلة أعلى وأسفل السلالم الملتوية.

" لم نفتش عليّة السقف من قبل أبدا،" أعلنت توينكل فجأة، وهكذا اقتفى الجميع أثرها.

" كيف نصعد إلى هناك؟"

" يوجد سلم في الردهة، معلق في مكان ما من السقف."

بتعب اقتفى سانجيف أثر الجمع، ليشير لهم إلى مكان السلم، لكن توينكل كانت قد عثرت عليه لوحدها. "وجدتها !" قالت صائحة.

فك دوغلاس السلسلة التي تربط السلم، كان وجهه محمرا ويرتدي قبعة نورا الريشية. واحدا تلو الآخر اختفى الضيوف، وكان الرجال يساعدون النساء لكي يضعن أحذيتهن المربوطة العالية على درجات السلم الضيقة، كما قامت النساء الهنديات بلف سواريهن الثمينة على خصورهن. لحق الرجال بهن، واختفوا سريعا، فلم يبق سوى سانجيف عند قمة السلالم الملتوية. دوّى صوت الخطى فوق رأسه، لكن لم تكن لديه رغبة في الانضمام إليهم. وتساءل إن كان السقف سينهار بهم، وتخيل لجزء من الثانية، منظر كل الأجساد الثملة المعطرة المتدهورة من عل والمتشابكة من حوله. سمع صرخة ما، ثم موجات متصاعدة من الضحك بوتيرات متضاربة. ثم وقع شيء ما، وتكسر شيء غيره؛ بإمكانه سماع لغط حول صندوق خزانة ما. وبدا له أنهم يجاهدون لفتحه، ويدقون بعنف فوق سطحه.

اعتقد أن توينكل ربما ستطلب مساعدته، لكن لم يستدعه أحد. فنظر إلى الردهة من حوله، وإلى السلالم من تحته، وإلى كؤوس

الشمبانيا وبقايا قطع الساموسا والمناديل الملطخة بأحمر الشفاه المتروكة في أرجاء المكان. ثم لاحظ أن توينكل قد تخلصت في معرض عجلتها من حذائها الذي تُرك عند قاعدة السلم، زوج من الأحذية الجلدية السوداء بكعاب مثل مساند كرات الغولف، مفتوح من المقدمة وله علامة صنع حريرية ملطخة قليلا عند موطأ الكعبين. وضع الحذاء عند باب غرفة النوم الرئيسة لكي لا يتعثر فيه أحد عند نزولهم.

سمع شيئا يصدر صريرا عند فتحه ببطء؛ وانخفضت الأصوات الصاخبة إلى مستوى الهمس؛ فخطر له أنه ربما كان وحيدا في البيت. كانت الموسيقى قد توقفت، وإذا ما أرهف السمع أمكنه سماع طنين البراد، وحفيف آخر ما تبقى من وريقات على الشجر في الخارج، ونقر الأغصان الخفيف على إفريز النوافذ. بلمسة واحدة من يده بإمكانه أن يرد السلم إلى موضعه في السقف ولن يتمكنوا من النزول ما لم يسحب السلسلة ويسمح لهم بذلك. فكر في كل ما يستطيع عمله بدون أن يزعجه أحد: بإمكانه أن يكنس معرض وحوش توينكل في كيس القمامة، ويأخذها في السيارة إلى مرمى الزبالة، وبإمكانه أن ينزل صورة المسيح الباكي، وفي الوقت نفسه يهوي بمطرقة على مريم العذراء. يعود بعد ذلك إلى البيت الخالي؛ وبسهولة يمكنه تنظيف الأكواب والأطباق خلال ساعة، ثم يصب لنفسه كأسا من الجن والتونيك، ويتناول طبقا من الأرز الساخن ويستمع إلى اسطوانته

الجديدة من موسيقى باخ في الوقت الذي يقرأ فيه الملاحظات المصاحبة ليفهمها جيدا. لكز السلم بخفة، لكنه كان مثبتا فوق الأرض بقوة، وسيتطلب تحريكه بعض الجهد.

" يا إلهي أحتاجُ لسيغارة،" صاحت توينكل من فوق.

أحس سانجيف بعُقدٍ تتشكل خلف رقبته، وشعر بدوخة، وكان بحاجة إلى الاستلقاء أرضا. توجه إلى غرفة النوم، لكنه توقف في مكانه عندما شاهد حذاء توينكل أمامه في مدخل الباب. فكر فيها وهي تنتعله، لكن بدلا من إحساسه بالانزعاج كما كان يحس منذ انتقالهما إلى البيت معا، أحس بموجة من التوقع حيال فكرة هبوطها الدرج الملتوي تترنح مسرعة، وتخدش الأرضية أثناء ذلك. تضخمت الموجة أثناء تفكيره فيها وهي تهرع إلى الحمام لكي تجدد لمعان أحمر شفاهها، وفي النهاية تسرعُ لتسليم الضيوف معاطفهم، وأخيرا تهرع إلى طاولة الخشب الأحمر بعد مغادرة آخر الضيوف لتبدأ في فتح هدايا تدشين البيت. إنها الموجة نفسها التي كان يحس بها قبل زواجهما، عندما يضع سماعة الهاتف بعد إحدى محادثاتهما، أو عندما يقود السيارة عائدا من المطار متسائلا أي من الطائرات المقلعة تلك التي تركبها الآن.

" أنت لن تصدق هذا يا سانج."

خرجت عليه بظهرها، ويداها فوق رأسها تمسك بشيء ما يزال مخفيا عن ناظريه، بينما الجزء الفوقي من أكتافها يتعرق.

" هل أمسكت به يا توينكل؟" سألها أحدهم.

" نعم، بإمكانك تركهُ."

الآن رأى أن يديها تحيطان به: تمثال نصفي من الفضة للمسيح، وحجم رأسه يبلغ ثلاثة أضعاف حجم رأسه هو. له فوق أنفه نتوء يليق بالنبلاء، وشعر مجعد رائع ينسدل فوق رقبة بارزة، وجبين عريض عكس بصورة مصغرة الجدران والأبواب والوناسات من حولهم. كان التعبير على وجه التمثال ينم عن الثقة، وكأنه متيقن من مريديه، أما الشفاه فحِسّية ومكتنزة. كما كان التمثال يرتدي قبعة نورا الريشية. بينما كانت توينكل تهبط، وضع سانجيف يديه حول خصرها ليساعدها على التوازن، ثم استلم منها التمثال عندما وصلت الأرضية. كان وزنه يصل إلى ثلاثين رطلا، ثم بدأ الآخرون في الهبوط ببطء، وقد أعياهم البحث، ونزل بعضهم إلى الطابق الأرضي بحثا عن الماء.

سحبت نفسا، ورفعت حاجبيها ثم صالبت أصابعها. "هل تمانع كثيرا إذا قمنا بعرضه فوق إفريز المستوقد؟ لهذه الليلة فقط؟ وأعرف أنك تكره ذلك."

لقد كرهه بالفعل. كره ضخامته، ودقة صنعته، وسطحه اللامع، وقيمته المؤكدة. كره أنه موجود في بيته، وأنه ضمن ممتلكاته الآن. وخلافا لما وجداه في السابق، فلهذا التمثال وقارٌ ومهابة، بل وحتى جمال ما. لكن لعجبه فقد جعلته هذه المزايا يكرهه أكثر. وأكثر من كل شيء فقد كرهه لمعرفته بأن توينكل تحبه.

" سأحتفظ به في غرفة مكتبي بدءا من الغد،" ثم أضافت " أعد بذلك."

كان يعرف أنها لن تضعه في مكتبها أبدا. ولبقية أيامها معا ستحتفظ به يتوسط سطح المستوقد محاطا بمعرض الوحوش على الجانبين. وفي كل مرة يكون لديهم ضيوف ستشرح لهم توينكل عن كيفية عثورها عليه، وسيبدون إعجابهم بها أثناء إنصاتهم إليها. حدّق في تويجات الزهور المسحوقة في شعرها، وفي حبة الياقوت الأزرق في العقد الضيق الذي يحيط عنقها، وفي اللمعة الحمراء البراقة في أصابع قدميها وقرر أن هذه من بين الأشياء التي جعلت برابال يعتقد بأنها (واو). تصدع رأسه من أثر شراب الجن، وآلمته ذراعاه من ثقل التمثال، ثم قال، "لقد وضعت حذاءك في غرفة النوم."

" شكرا ولكن قدماي تؤلمان كثيرا." وضغطت بخفة على مرفقه ثم توجهت إلى غرفة المعيشة.

ضم سانجيف الوجه الفضي الضخم إلى أضلعه، محاذرا كي لا تقع قبعة الريش عنه ثم سار وراءها.

معالجة ببي هالدار

طوال أغلب سنيها التسع والعشرين عانت ببي هالدار من مرض حيّر العائلة، والأصدقاء، ورجال الدين، وقارئي الكف، والعوانس، والمعالجين بالنجوم، والمتنبئين بالمستقبل، والمهرجين أيضا. ففي معرض الجهود المبذولة لعلاجها، جلب لها المهتمون من بلدتنا الماء المقدس من سبعة أنهار مقدسة. وبينما كنا نستمع إلى نوبات انفعالها وصرخاتها أثناء الليل عندما يُربط معصماها بالحبال، وتضغط على جلدها الكمادات اللاذعة، كنا نذكرها في ابتهالاتنا. كم مسّد حكماء بأوراق الأوكالبتوس فوق صدغيها، ويخروا وجهها بالأعشاب الطبية. وبناء على اقتراح من أحد المسيحيين العميان، نقلت ذات مرة بالقطار لتقبيل مراقد القديسين والشهداء. كما كانت الأحجبة والتمائم التي تقي من عين الحسود تطوق رقبتها وذراعيها، وتزين أحجار الحظ أصابعها.

كل العلاجات التي وصفها الأطباء لم تزد الأمور إلا سوءا. من الطب الطبيعي إلى طرق الطب البديل ـ فمع الوقت اختبرت كافة فروع وأنواع العلاج عليها، وكانت نصائحهم لا نهاية لها. بعد الصور

الشعاعية، والفحوص السريرية، والتسمّع، والحقن، نصح بعضهم ببي بأن كل ما عليها هو إنقاص وزنها، بينما رأى آخرون بأن عليها اكتساب وزن إضافي. وإن حرّم عليها أحدهم بألا تظل نائمة بعد الفجر، أصرّ آخر بأن تبقى في فراشها حتى منتصف النهار. قال لها هذا بأن تقوم بتمرينات الوقوف على رأسها، بينما قال ذاك بأن عليها أن تتلو آيات من كتاب الفيدا المقدس في فترات محددة طوال اليوم. وما زال بعضهم يقترح نقلها إلى كلكوتا لتلقي جلسات التنويم المغناطيسي. أثناء تنقلها من أخصائي إلى آخر نُصحت الفتاة باجتناب تناول الثوم، واستهلاك كميات غير متجانسة من مواد مرّة المذاق، وأن تستغرق في التأمل، وأن تشرب ماء جوز الهند الأخضر، وأن تبتلع بيض البط النيئ المخلوط مع الحليب. باختصار كانت حياة ببي عبارة عن مواجهة مع ترياق غير مجد إلى آخر.

كانت طبيعة مرضها الذي أصابها دون سابق إنذار قد حصرت عالمها في البناية غير المطلية ذات الأربعة طوابق التي يسكنها أقرب الناس لها، وهما ابن عم مسن وزوجته اللذان يؤجران شقة في الطابق الثاني. وباعتبار إمكانية إصابة ببي بالإغماء، ودخولها في حال هذيان مخجل في أية لحظة، فلم يكن ممكنا الوثوق بها لعبور الشارع أو ركوب الترام دون رقابة. أما شغلها اليومي فهو الجلوس في غرفة التخزين الواقعة فوق سطح بنايتنا، وهي عبارة عن

حيز ضيق يمكن للمرء أن يجلس فيه لكنه سيجد مشقة عند الوقوف، وبها مرحاض ملاصق، ومدخل تحفه الستائر، ونافذة وحيدة ليس لها حاجز، وأرفف مكوناتها من ألوح الأبواب القديمة. هناك، تجلس مصالبة ساقيها فوق قطعة مربعة من الخيش، تسجل قوائم الموجودات لدكان مواد الزينة الذي يملكه ويديره ابن عمها هالدار في مدخل فناء بنايتنا. ولا تحصل ببي على أي دخل نظير خدماتها، لكن تُقدم لها الوجبات، والمؤن، وعدد مناسب من أمتار قماش قطني ما، تضيفه إلى قائمة ملابسها بعد حياكته بأبخس الأثمان. في الليل تنام ببي في فراش تخييم متنقل في شقة ابن عمها في الطابق الثاني.

في الأصباح تصل ببي إلى غرفة التخزين مرتدية شبشبا بلاستيكا متشققا ومعطفا منزليا تصل حافته السفلية إلى عدة بوصات تحت ركبتها، وهو طول لم نستخدمه منذ أن كنا في الخامسة عشر من أعمارنا. كان صدغاها خاليين من الشعر، وقد انتشر فوقهما عدد وفير من النمش الشاحب. وأثناء قيامنا بنشر غسيلنا، أو تقشير أسماكنا نسمعها تندب حظها، وتتحدى قدرها. لم تكن على شيء من الجمال، حيث كانت شفتها العليا رفيعة، وأسنانها صغيرة جدا، وتبرز لثتها أثناء الحديث. "أريد أن أسألكن، هل من العدل أن تضيّع فتاة سني حياتها، وأن تمضي ربيع عمرها متجاهَلة، تجرُد القوائم والأسعار دون وعد بمستقبل ما؟" كان صوتها أعلى من اللازم، وكأنها

تتحدث إلى شخص أصم. "هل من الخطأ حسدكن؟ وهل هي خطيئة أن أرغب في تظليل عيني، وأعطر شعري؟ وأن أربي طفلا لأعلمه الفرق بين الحلو والمر، والخطأ من الصواب؟"

في كل يوم كانت تفرغ شحنة حرمانها في وجوهنا، حتى بدا واضحا بشكل لا يحتمل أن ببي تريد رجلا. لقد أرادت شخصا يتحدث دفاعا عنها، ويحميها، ويضعها على طريق الحياة. ومثل بقيتنا كان ترغب في تقديم وجبات العشاء، وتوبيخ الخدم، وأن توفر بعض النقود في حصالتها، وتنتف شعر حواجبها كل ثلاثة أسابيع في صالون التجميل الصيني. أزعجتنا بسعيها وراء تفاصيل زفاف كل منا: الحلي، والدعوات، ورائحة أزهار مسك الروم المنظومة في سلك فوق فراش الزوجية. وعندما أطلعناها، بعد إلحاح منها، على ألبومات صورنا المزخرفة برسوم الفراشات، أطالت التحديق في الصور التي تؤرخ للحدث: صب الزبد فوق النار، وتبادل أكاليل الزهر، السمكة الملطخة بكبريت الزئبق، وسُفر الأصداف والنقود الفضية. "عددٌ كبير من الضيوف،" تقول مشيرة بأصابعها إلى الوجوه المحيطة بنا. " عندما يحدث هذا لي، ستكوننّ حاضرات."

حسّ التوقع هذا طغى على كيانها بكل قوة حتى أن فكرة الزواج التي بنينا عليها كل آمالنا، قد هددت في بعض الأوقات بتعريضها إلى نوبة جديدة. وبين علب البودرة، وصناديق الدبابيس

والمشابك التي تكومها على أرضية غرفة التخزين قالت محدثة نفسها بأنين كأنما تهذي: "لن أغطس قدمي في الحليب أبدا، ولن يُطلى وجهي أبدا بعجينة الصندل؛ فمن ذا الذي سيدعكني بالكركم؟ ولن يطبع اسمي بالحبر الأحمر على بطاقة دعوة أبدا."

كانت مناجاتها لنفسها صبيانية وعواطفها جياشة، كما كان اعتلال الصحة ينساب كالحمى من مسامها. في أحلك لحظاتها كنا نلفها بالشالات، ونغسل وجهها من صنبور الصهريج، ونأتي لها بأكواب اللبنة وماء الورد. أما في الأوقات عندما تكون أقل غما فنشجعها على مرافقتنا إلى الخياط لتستكمل ما ينقصها من القمصان والتنانير، من جانب لتمكينها من تغيير مظهرها العام، ومن جانب آخر لاعتقادنا بأن ذلك قد يزيد من أية احتمالات قد تكون لديها في الزواج. كنا نخبرها "ليس هناك رجل يرغب في امرأة تبدو مثل غاسلة صحون، وهل تريدين أن تلتهم العثة ما لديك من أقمشة؟" عبست، وأبدت استياءها، واحتجت، وتأوهت، ثم سألت: "ومن سيصطحبني إلى السينما، أو حديقة الحيوان، ومن يشتري لي الصودا والكاجو، اعترفن بالأمر، فهل الأمر متعلق بي فقط؟ لن أشفى أبداً، ولن أتزوج أيضا."

ولكن حينذاك وُصف لببي علاج جديد، وكان الأكثر إثارة على الإطلاق. فذات مساء بينما هي في طريقها لتناول العشاء انهارت

فوق مصطبة الطابق الثالث، وكانت تضرب بقبضات يديها، وترفس بأقدامها، وتصبب عرقا، فلم تدر بالعالم من حولها. رددت السلالم صدى أناتها، وعلى الفور هرعنا خارجين من بيوتنا لطمأنتها حاملين مراوح سعف النخيل ومكعبات السكر، وأباريق من الماء المبرد لصبه فوق رأسها. وقد التصق أطفالنا بحاجر الدرج وراقبوا تشنجاتها؛ كما أرسل خدمنا لإحضار ابن عمها. مضت دقائق عشر قبل أن يظهر هالدار من دكانه، وبدا عليه الهدوء عدا وجهه الذي كان محتقنا. أبلغنا بأن نتوقف عن الجلبة غير الضرورية، ثم دون إبداء مجهود لإخفاء ازدرائه، شحنها في عربة ريكشا كانت متوجهة إلى العيادة. هناك في العيادة وبعد القيام بعدد من فحوصات الدم استنتج الطبيب المسئول عن حالتها بأن الزواج سيكون علاجا لها.

انتشرت الأخبار عبر قضبان نوافذنا، وعبر حبال غسيلنا، وفوق فضلات الحمام التي تغطي حواجز أسقف بيوتنا. بحلول صباح اليوم التالي، فحص ثلاثة من قارئي الكفوف يد ببي وأكدوا دون أي شك، أن هناك اتحادا وشيك الوقوع يسكن في جلدها. تفوه أشخاص عند أكشاك الطعام بعبارات خالية من الاحتشام، وراجعت الجدات التقويم لمعرفة التوقيت الملائم للخطوبة. ولعدة أيام تلت الحدث كنا نتبادل الهمس أثناء مواكبة أطفالنا إلى المدرسة، أو تجميع غسيلنا، أو أثناء وقوفنا في طوابير استلام المخصصات التموينية. من الواضح

أن كل ما احتاجته الفتاة المسكينة هو بعض النشاط. فللمرة الأولى صرنا نتخيل تعرجات جسدها تحت معطفها المنزلي، وحاولنا تخمين ما يمكن أن تقدمه للرجل من متعة. وللمرة الأولى لاحظنا نقاء بشرتها، وطول أهدابها الناعسة، والشكل الخارجي الجذاب ليديها الذي لا يمكن نكرانه. "يقولون أن الزواج هو الأمل الوحيد، ويقولون أن لديها حاله من الإثارة المكثفة" - وهنا نتوقف، وقد غلبنا الخجل - "ستهدئ العلاقات الزوجية من فوران دمها."

لا ضرورة للقول بأن ببي كانت سعيدة لهذا التشخيص، وعلى الفور شرعت في الاستعداد للحياة الزوجية. فباستخدام بعض البضاعة المعطوبة من دكان هالدار أخذت تطلي أظافر قدميها، وترطب مرفقيها. ومتجاهلة الشحنات الجديدة التي وصلت إلى غرفة التخزين، أخذت تطاردنا لتزويدها بالوصفات، من حلوى الشعيرية، إلى يخنة البابايا، التي دونتها بحروف ملتوية في صفحات كتبها الخاصة بالجرد. أعدت قوائم المدعوين، وقوائم الحلوى والفاكهة، وسجلت الأماكن التي ستقضي فيها شهر عسلها. وضعت الجلسرين لترطيب شفتيها، وامتنعت عن تناول الحلويات لضبط مقاسات جسمها. وذات يوم طلبت من إحدانا اصطحابها إلى الخياط، الذي صنع لها قميص - سالوار بتفصيلة المظلة التي كانت موضة سائدة في ذلك الوقت. في الشوارع قادتنا إلى كافة محلات

الحلي، محملقة في الصناديق الزجاجية، وطالبة رأينا في عصابات الرأس المزدانة بالحلي وفي القلائد والخواتم. وعند نوافذ محلات بيع أردية الساري أشارت إلى واحد من حرير البناراسي الضارب للحمرة، وإلى آخر بلون الفيروز، ثم إلى واحد بلون زهور الآذريون الصفراء البرتقالية. " في القسم الأول من الحفل سأرتدي هذا، ثم هذا، وبعد ذلك هذا."

لكن هالدار وزوجته كان لهما رأي آخر. فقد استمرا في شؤون حياتهما كالمعتاد غير آبهين لتخيلاتها، أو آبهين لمخاوفنا، حيث كانا محشورين معا في دكان مواد الزينة الذي لم يكن أكبر من دولاب، وقد صفت ثلاثة من أجنابه بالحناء،وزيوت الشعر، وأحجار الحفاف، وكريمات تبييض البشرة. كان رد هالدار على أولئك الذين فاتحوه في مسألة صحة بي، "ليس لدينا وقت للاقتراحات غير المحتشمة، وما لا يمكن علاجه يجب تحملهُ. لقد تسببت بي في ما يكفي من القلق، وزادت ما يكفي من المصروفات، ولطخت اسم العائلة بما فيه الكفاية." أثناء ذلك كانت زوجته الجالسة بجانبه خلف النضد الزجاجي الصغير تمروح على الجلد المرقش فوق ثدييها، وأمنت على كلامه. كانت امرأة ممتلئة تشققت فوق ثنيات رقبتها البودرة التي كان لونها باهتا كثيرا بالنسبة لها. "زيادة على ذلك من سيتزوجها؟ فالفتاة لا تعرف شيئا عن أي شيء، تتلعثم أثناء الحديث، وتكاد

تبلغ الثلاثين من عمرها، ولا يمكنها إشعال مستوقد الفحم، ولا تستطيع طبخ الأرز، ولا يمكنها التمييز بين بذور الكمون والشمار. فقط تخيلها وهي تحاول إطعام رجل!"

كان لديهما وجهة نظر. فببي لم تُعلّم قط كيف تكون امرأة؛ وقد جعلها المرض جاهلة بكافة الأمور العملية. كانت زوجة هالدار على قناعة بأن الشيطان نفسه يتلبسها، ولذلك أبعدتها عن النار واللهب. لم تُعلم قط كيف ترتدي الساري دون أن تدبّسه من أربعة أماكن، وليس بإمكانها زخرفة أغطية القماش أو تطريز الشالات بأي درجة من المهارة. لم يكن مسموحا لها بمشاهدة التلفزيون (حيث كان هالدار على قناعة بأن خواصه الإلكترونية تتسبب في إثارتها) وبالتالي كانت جاهلة بالترفيه والأحداث الموجودة في عالمنا. أما تعليمها المدرسي فقد توقف عند الصف التاسع.

من أجل خاطرها كنا نتجادل في مسألة العثور على زوج لها ونوضح لهما: "أن هذا ما أرادته طوال الوقت." لكن كان من المستحيل التفاهم بالمنطق مع هالدار وزوجته. فضغينتهما نحو ببي واضحة فوق شفاههما، وهي أرفع من الخيوط التي يربطان بها مشترياتنا. عندما أكدنا لهما بأن العلاج الجديد يستحق إعطاءه فرصة، كانا يجادلان، "ليس لدي ببي قدر كاف من الاحترام وضبط النفس، وهي تدعي المرض لاستدرار الشفقة. فالأفضل لها هو أن نجعلها مشغولة، ونبعدها عن المتاعب التي تفتعلها بشكل دائم."

" ولم لا تزوجونها إذاً؟ فهذا سيبعدها عنكم على الأقل."

" ونضيع أرباحنا على الزفاف؟ وإطعام الضيوف، وشراء الأساور والسرير، وتجميع مهرها؟"

لكن أوجاع ببي استمرت. ففي وقت متأخر ذات صباح، ارتدت تحت إشرافنا ساري من الشيفون به ثقوب تتخللها أشرطة أرجوانية شاحبة، وشبشب لماع أعير لها بهذه المناسبة، وأسرعت بخطى غير منتظمة إلى دكان هالدار مصرة على أخذها إلى محل التصوير لكي توزع صورتها، أسوة ببقة طالبات الزواج في البيوت التي تضم رجالا مؤهلين للزواج. راقبناها من خلال مغاليق شرفاتنا وقد ترك التعرق علامات هلالية سوداء تحت إبطيها. "ما عدا صوري الشعاعية، فلم أتصور من قبل قط." قالت مغتاظة، " وأقارب الأزواج المحتملون في حاجة لمعرفة كيف أبدو." لكن هالدار رفض قائلا إنه بإمكان كل من يرغب في رؤيتها أن يراها على الطبيعة نائحة باكية، ومنفرة للزبائن. كما أخبرها بأنها تعد مصدر خراب لتجارتهما، وأنها ليست إلا خسارة وعبئا عليهما؛ ومن في هذه البلدة بحاجة إلى صورة ليعرف هذا الأمر؟

في اليوم التالي توقفت ببي تماما عن تسجيل البضائع، وبدلا من ذلك، شنفت مسامعنا بتفاصيل مثيرة عن هالدار وزوجته. "في أيام الآحاد يقوم بنتف الشعر من ذقنها. وأنهما يحتفظان بأموالهما

تحت القفل والمفتاح." ومن أجل أن يسمع المتواجدون فوق أسطح البيوت المجاورة كانت تتبختر صائحة، ومع كل إعلان يزداد عدد مستمعيها. "إنها تضع دقيق الحمص فوق ذراعها لاعتقادها بأن ذلك سيجعلها أكثر بياضا. والإصبع الثالث من قدمها مفقود. وأن السبب في طول فترة قيلولتهما هو أنها صعبة الإرضاء."

لكي يسكتها، وضع هالدار إعلانا من سطر واحد في صحيفة البلدة باحثا لها عن عريس: "فتاة، غير متوازنة، الطول 152 سنتيمترا، تبحث عن زوج." لم تكن هوية الزوجة سرا بالنسبة لآباء شبابنا، ولم تكن هناك عائلة على استعداد لتحمل مثل هذه المخاطرة الواضحة. ومن يلومهم؟ فالشائعة التي يرددها كثيرون تقول بأن ببي تتحدث مع نفسها بفصاحة ولكن بلغة غير مفهومة تماما، وأنها لا ترى أحلاما في نومها. لم يكن ممكنا إقناع حتى الأرمل الذي يصلح حقائبنا اليدوية ويعيش وحيدا وليس له إلا أربعة أسنان بالتقدم لطلب يدها. مع ذلك، وفي محاولة منا لإلهائها عن الأمر بدأنا في تعليمها حول بعض الأمور الحياتية: "التكشيرة التي تلبسينها مثل قدر أرز يغلي لن تفيدك في شيء، والرجال في حاجة إلى التربيت عليهم بتعبيرات وجهك." وكتدريب لحدث التقائها بخاطب محتمل ما، دفعناها لتبادل أحاديث طفيفة مع رجال بالقرب منها. فعندما يصل بائع المياه في نهاية جولته ليملأ جرّتها في غرفة التخزين،

علمناها أن تقول: " كيف حالك؟" وعندما يفرغ مُمول الفحم حمولته فوق السطح نصحناها أن تبتسم وتبدي ملاحظة حول الطقس. وهكذا أعددناها للمقابلة باسترجاع تجاربنا في هذا المجال. "في الغالب سيصل العريس مع أحد والديه، وجدّ أو جدّة، وعم أو عمة؛ سيحملقون فيك مليّا، ويطرحون أسئلة عديدة. سيفحصون باطن قدميك، ومدى سمك ضفائرك؛ وسيطلبون منك إخبارهم عن اسم رئيس الوزراء، وأن تلقي شعراً، وأن تطعمي دزينة من الجياع، بنصف دزينة من البيض."

عندما انقضى شهران دون وصول رد واحد على الإعلان، أحسّ هالدار وزوجته أنه قد جرت تبرئتهما. "والآن ألا ترون بأنها لا تصلح للزواج؟ وألا ترون بأن لا أحدا يملك عقلا يمكن أن يلمسها.؟"

لم تكن الأمور سيئة للغاية قبل موت والد بي. (لم يكتب للأم الحياة بعد ولادة الطفلة.) وفي أعوامه الأخيرة واظب العجوز الذي كان معلما للرياضيات في مدرستنا الابتدائية، على الاحتفاظ بمدونة لمسيرة مرضها أملا في اكتشاف منطق ما يحكم حالتها المرضية. "كل مشكلة وَلها حل." كان يجيب كلما سألناه عما يحرزه من تقدم. كان يعيد طمأنة بي، كما أعاد طمأنتنا لبعض الوقت. كتب الرسائل إلى أطباء في إنكلترا، وكان يمضي الأماسي في مطالعة مجلدات الحالات المرضية في المكتبة، كما تخلى عن تناول اللحوم في أيام الجمع في

محاولة لاسترضاء إلهه الخاص. وفي نهاية المطاف تخلى عن التعليم أيضا، ولم يعط الدروس إلا من غرفته، ليتمكن من مراقبة ببي في كل الأوقات. لكن بالرغم من حصوله في شبابه على جوائز لقدرته على معرفة الجذر التربيعي من الذاكرة، إلا أنه لم يتمكن من إماطة اللثام عن سر مرض ابنته. ومن جملة ما قام به في هذا الصدد، لم تمكنه سجلاته إلا من الاستنتاج بأن نوبات مرضها تتكرر في الصيف أكثر مما في الشتاء؛ وأنها قد أصيبت بحوالي خمس وعشرين نوبة كبرى. رسم جدولا بالأعراض التي تنتابها، مع توجيهات بكيفية تهدئتها، ووزع هذا الجدول على سكان المنطقة. لكن أغلب الأوراق قد فقدت، أو أنها تحولت إلى قوارب شراعية بواسطة أولادنا، أو أنها استخدمت لكتابة ميزانية البقالة خلف الجدول.

عدا البقاء إلى جانبها، وعدا تخفيف كروبها، وعدا مراقبتها من حين إلى آخر، فليس هناك الكثير الذي يمكن أن نفعله لتحسين الوضع. ولم يكن باستطاعة أي منا فهم ما تعانيه من أسىً. في بعض الأيام، وبعد فترة القيلولة، كنا نمشط لها شعرها، ونحرص من آن لآخر على تبديل التركيز على جزء معين من فروة الرأس كي لا تخشوشن. وبناءً على طلبها رششنا البودرة على الزغب فوق شفتيها ورقبتها، ورسمنا حدودا لحواجبها، ومشينا معها إلى ضفاف برك الأسماك حيث يلعب أطفالنا الكريكت في العشية. كانت ما تزال مصممة على إغواء رجل ما.

" باستثناء وضعي فأنا امرأة في كامل صحتها." كانت تردد، وهي تجلس فوق دكة على امتداد ممر يجوبه رجال ونساء متمهلين في مشيهم متشابكي الأيدي. "فأنا لم أصب من قبل أبدا بالزكام أو الأنفلونزا، ولم أصب باليرقان، كما لم أصب من قبل بالمغص أو سوء الهضم." في بعض الأحيان كنا نأتيها بحبوب ذرة مدخنة مرشوشة بعصير الليمون في الأوراق الخارجية من كوز الذرة، أو بثمن بايستين من الكراميل. كنا نسليها وعندما تكون مقتنعة بأن رجلا ما يوليها انتباهه، كنا نمازحها ونوافقها الرأي. لكننا لم نكن مسؤولين عنها، وعندما نخلو إلى أنفسنا كنا نمتن لذلك.

في نوفمبر علمنا بأن زوجة هالدار حبلى. وفي ذلك الصباح بكت ببي في غرفة التخزين. "تقول بأنني معدية، مثل الجدري، وإنني سأفسد الطفل." كانت تتنفس بمشقة، وعيناها مثبتتان على بقعة مقشرة فوق الحائط. "ما الذي سيحدث لي؟" فلم يأت رد بعد على الإعلان في الصحيفة. أليس عقابا كافيا لي بأنني أحمل هذه اللعنة وحدي؟ وهل يجب أن ألام أيضا لعدوى شخص غيري؟" وهكذا ازداد الشقاق في بيت هالدار. ولاقتناع الزوجة بأن وجود ببي سيعدي الطفل الذي لم يولد بعد، بدأت تلف الشيلان فوق بطنها المنتفخة. وفي الحمام أُعطيت ببي منشفة وصابونا مختلفا. وطبقا لرواية المرأة التي تقوم بغسل الصحون فأطباق ببي كانت تغسل على حدة.

بعد ذلك، ذات عشية، ودون كلمة أو سابق إنذار حدث الأمر مرة أخرى. وعلى ضفاف بركة الأسماك، سقطت ببي في الممر. كانت تهتز وترتعد، وعضت شفتيها، وعلى الفور التفت حول الفتاة المتشنجة مجموعة من الناس كانوا متلهفين لمساعدتها بأية طريقة كانت. قام فاتح زجاجات الصودا بتثبيت أطرافها المنتفضة إلى الأرض، وحاول بائع الخيار المشرّح أن يفك تقلص أصابعها. كما قامت إحدانا برشها بماء من البركة، ومسحت أخرى فمها بمنديل معطر. كان بائع ثمار الكاكي يمسك برأس ببي الذي كان يقاوم للحركة من جانب إلى آخر، وأمسك الرجل الذي يشغل عصارة قصب السكر مروحة عادة ما يهش بها الذباب، وحرك الهواء من كل زاوية ممكنة.

" هل يوجد طبيب في هذا الجمع؟"

" حاذروا كي لا تبلع لسانها."

" هل أبلغ أحد هالدار؟"

" إنها أشد حرارة من الجمر!"

بالرغم من مجهوداتنا فقد استمرت النوبة تصارعها بشكل غير مريح. وبعد أن بارحها الكرب، عضت أسنانها، وارتعشت عند الركبتين. مرّ ما يزيد عن دقيقتين، وراقبناها وقد انشغل بالنا عليها. ثم تساءلنا عما يمكننا فعله.

"الجِلد!" صاح أحدهم فجأة، " إن ما تحتاجه هو أن تشم رائحة الجلد." ثم تذكرنا آخر مرة حدث فيها هذا الأمر، عندما وُضع صندل من جلد البقر تحت أنفها، وهو ما حرّرها في النهاية من عذاب تشنجاتها.

" ببي ماذا حدث؟ أخبرينا عما حدث لك،" سألناها عندما فتحت عينيها.

" شعرت بحرارة، ثم بحرارة أكثر، وانساب الدخان أمام عيني، ثم أظلمت الدنيا. هل رأيتم ذلك؟"

رافقها عدد من الأزواج إلى بيتها. كانت العتمة قد ازدادت ، وبدأت القواقع تصدر صفيرا، كما ازداد الهواء كثافة نتيجة لعبق بخور الصلوات. تمتمت ببي وتعثرت في طريقها لكنها لم تقل شيئا؛ وكانت خدودها مُرضة ومحزوزة هنا وهناك، وشعرها ملبداً، ومرفقاها يغلفهما التراب، كما كانت قطعة صغيرة من إحدى أسنانها الأمامية مفقودة. لحقنا بهم عن بعد، وعلى ما رأينا أنه مسافة آمنة، ونحن نمسك بأيدي أطفالنا. كانت في حاجة إلى بطانية، وكمادات، وحبة مهدأة. كانت بحاجة إلى رعاية. لكن عند وصولنا إلى الباحة لم يسمح لها هالدار وزوجته بدخول البيت.

" إن المخاطرة الطبية كبيرة للغاية بالنسبة إلى أم حامل في حال اتصالها بشخص هستيري." أصر هالدار على القول.

وهكذا قضت ببي ليلتها تلك في غرفة التخزين.

رُزق الزوجان بطفلة في نهاية شهر يونيو، واستُخدم كلاّب الجراح لإخراجها إلى الوجود. وحينذاك عادت ببي للنوم في الشقة من جديد، بالرغم من أنهم تركوها تضع فراشها التخييمي في الممر، ولم يسمحا لها بلمس الطفلة مباشرة. في كل يوم كانوا يرسلونها إلى السطح لجرد البضائع حتى موعد الغداء، وحينذاك يحضر لها هالدار إيصالات مبيعات فترة الصباح، وطبقا من الحمص الأصفر المفصص لغدائها. وفي الليل كانت تتناول الخبز مع الحليب فقط فوق الدرج. وهكذا مرت بها نوبة، ثم أخرى دون أن يلاحظ أحد.

عندما عبرنا عن قلقنا، قال هالدار بأن الأمر لا يخصنا، ورفض تماما مناقشة المسالة. وللتعبير عن مدى سخطنا بدأنا نبتاع حاجياتنا من مكان آخر؛ وهو ما أتاح لنا انتقامنا الوحيد منه. بمرور الأسابيع صارت المنتجات فوق أرفف هالدار يعلوها التراب. بهتت الماركات، وفسدت الكولونيا. وعندما نمر به في المساء نراه يجلس وحيدا يخبط الحشرات الطيارة بشبشبه. لكن بالكاد كنا نرى الزوجة. فوفقا لرواية غسالة الصحون ما تزال طريحة الفراش حيث يبدو أن مخاضها كان عسيرا.

حل الخريف مع ما يعد به من عطلات في أكتوبر، وانشغلت البلدة بالتسوق والتخطيط للموسم الجديد. كانت أغاني الأفلام

تـصدح مـن مكـبرات عُلقـت بـين الأشـجار، وظلـت الأسـواق وأروقـة الدكاكين مفتوحة طوال الوقت. ابتعنا لأطفالنا البالونات والأشرطة الملونة، وابتعنا اللحوم المحلاة بالكيلوغرامات، وزرنا الأقارب اللذين لم نزرهم طوال العام مستقلين عربات الأجرة. صارت النهارات أقصر طولا، والليالي أكثر برودة، فزرّرنا كنزاتنا ورفعنا جواربنا. ثم حلت موجة صقيع تركتنا نحس بحكة في حناجرنا، فجعلنا أطفالنا يغرغرون بالماء الدافئ المملح، ويلفون أعناقهم باللفاعات. لكن طفلة هالدار هي من انتهى بها المطاف لتقع فريسة المرض.

استُدعي طبيب في جوف الليل وأُمِر بخفض حرارتها. "أشفها" كانت الزوجة تستعطفه، وقد أدى صراخها الحاد إلى إيقاظنا جميعا. "بإمكاننا أن نعطيك أي شيء، فقط أشف طفلتنا." وكان أن وصف لهم الطبيب غذاء الغلوكوز، وحبات أسبرين مهروسة في المسحان، وأخبرهم بلف الطفلة باللحف والأغطية.

لكن بعد مرور خمسة أيام لم تبارحها الحمى بعد.

" إنها ببي،" صرخت الزوجة. " لقد فعلتها وأصابت ابنتنا بالعدوى. ما كان يجب أن نسمح لها بالعودة إلى هنا. ما كان يجب أن نتركها تعود إلى هذا البيت."

هكذا عادت ببي لقضاء لياليها في غرفة التخزين من جديد.

وحتى إن هالدار بناء على إصرار الزوجة نقل فراشها المتواضع إلى هناك، بالإضافة إلى صندوق من الصفيح يحوي كل مقتنياتها. وكانت وجباتها تترك لها في أعلى الدرج مغطاة بمصفاة الطهي.

"لست أمانع في ذلك،" أخبرتنا بي. "فمن الأفضل أن أعيش بعيدا عنهم، لأفتح بيتا خاصا بي." أفرغت حاجياتها من الصندوق - بعض الأردية المنزلية، وصورة مؤطرة لأبيها، وعدة حياكة، وعدد من الأقمشة - ثم رتبتها فوق عدد من الأرفف الخالية. مع نهاية الأسبوع تحسنت حالة الطفلة، لكن لم يطلب من ببي النزول إلى الشقة. أخبرتنا أن نخفف ما نشعر به من قلق عليها. " لا تقلقوا، فالأمر ليس وكأنهم قد حبسوني هنا، العالم يبدأ في قاع الدرج، والآن أنا حرة لأستكشف الحياة كما أرغب."

لكنها في الحقيقة توقفت عن الخروج تماما. وعندما كنا نطلب منها الخروج معنا إلى بركة الأسماك، أو مشاهدة زخرفة المعبد ترفض الاستجابة لنا قائلة بأنها تحيك ستارة جديدة لوضعها على مدخل غرفة التخزين. بدت بشرتها شاحبة، وكانت بحاجة إلى الهواء النقي. "ماذا عن العثور على زوجك، وكيف تتوقعين أن تثيري إعجاب أي رجل عندما تجلسين هنا طوال اليوم؟"

لكنها لم تقتنع بشيء.

* * * *

مع نهاية ديسمبر أخلى هالدار أرفف دكانه من كل بضاعته غير المباعة ، ووضعها في صناديق نقلها إلى غرفة التخزين؛ فبشكل ما نجحنا في تبوير بضاعته وتوقف تجارته. وقبل نهاية العام انتقلت العائلة بعيدا، تاركين تحت باب ببي مظروفا يحوي ثلاثمائة روبية. ولم تعرف أي أخبار جديدة عنهم.

كانت إحدانا تعرف عنوانا لبعض أقارب ببي في حيدرأباد فكتبت لهم تشرح الوضع، لكن الرسالة أعيدت دون فتحها، وكتب عليها بأن العنوان غير معروف. وقبل أن تبدأ أسابيع البرد الشديد قمنا بإصلاح مغاليق نوافذ غرفة التخزين، وألصقنا لوحا من الزنك إلى قفص الباب، لتنعم ببعض الخصوصية على الأقل. تبرع البعض بمصباح كيروسين: وأعطاها بعضهم شبكة قديمة مضادة للبعوض مع زوج من الجوارب بدون أقدام. وفي كل فرصة تسنح لنا كنا نذكرها بأننا نحيط بها، وأنه يمكنها أن تقصدنا إن احتاجت لنصيحة أو مساعدة من أي نوع. لبعض الوقت كنا نرسل أطفالنا في العشيات للعب فوق السطح لإبلاغنا إذا ما أصيبت بنوبة أخرى، لكن في كل ليلة كنا نتركها لوحدها.

مرت عدة أشهر ودخلت ببي في حالة من الصمت العميق والطويل. وتناوبنا على تقديم أطباق الأرز وأكواب الشاي لها. كانت تشرب قليلا، وتأكل أقل، وبدا على وجهها تعبير لم يعد يطابق سنوات

عمرها. عند الشفق كانت تدور حول حاجز السطح مرة أو مرتين، لكنها لم تغادره قط. وبعد حلول الظلام تظل خلف باب الصفيح لا تخرج لأي سبب كان. لم نزعجها، وتساءل بعضنا إن كانت تحتضر، بينما استنتج آخرون بأنها فقدت عقلها.

ذات يوم من شهر أبريل عندما عادت حرارة الجو وصار ممكنا تجفيف حبيبات العدس فوق السطح، لاحظنا أن أحدهم قد تقيأ عند صنبور الصهريج. ولما لاحظنا الأمر نفسه في الصباح التالي قرعنا باب بي، وعندما لم نسمع ردا فتحناه بأنفسنا، حيث لم يكن له قفل.

وجدناها مستلقية فوق فراشها وكانت حبلى في شهرها الرابع.

قالت إنها لا تذكر ما حدث، ولم تخبرنا عمن فعلها. أعددنا لها حساء السميد بالحليب الساخن والزبيب؛ ومازالت غير راغبة في الإفشاء باسم الرجل. عبثا بحثنا عن آثار للاعتداء عليها، وأثرٌ ما لهذا الاقتحام، لكن الغرفة كانت قد نظفت وفي أتم ترتيب. على الأرض بالقرب منها يوجد كتاب جرد المواد مفتوحا على صفحة جديدة بها قائمة تضم أربعة رجال.

حملت الجنين حتى النهاية، وذات مساء من سبتمبر ساعدناها لتضع طفلا ذكرا. أريناها كيف تطعمه، وتحممه، وتهزه لينام. ابتعنا لها قطعة من القماش الزيتي، وساعدناها على حياكة

ملابس وأغلفة وسائد من القماش الذي احتفظت به لسنين طويلة. وخلال شهر تعافت من آثار الولادة، وبالنقود التي تركها لها هالدار قامت بطلاء غرفتها ووضعت أقفالا للنوافذ والأبواب. ثم نظفت الغبار عن الأرفف ورتبت وضع مستحضرات التجميل المتبقية، وباعت ما تبقى من بضائع هالدار بنصف السعر. أخبرتنا كي ننشر خبر البيع بالسعر المخفض، وهو ما فعلناه. وأخذنا نبتاع منها ما نحتاجه من الصابون، والكحل، وأمشاطنا وبودرتنا، وعندما باعت آخر بضاعتها، استقلت سيارة أجرة إلى سوق الجملة، مستغلة ما حققته من أرباح لإعادة ملء أرففها بالبضائع. وبهذه الطريقة ربّت الطفل وأدارت تجارة من غرفة التخزين، وقمنا بما نستطيع لمساعدتها. لسنوات بعد ذلك كنا نتساءل عن الذي لطخ شرفها. وقد استجوب عددٌ من خدمنا، وفي أكشاك بيع الشاي ومواقف الحافلات سئل بعض المشبوهين المحتملين وتم استبعادهم. لكن لم يكن هناك جدوى من إجراء تحقيق في الأمر، فوفقا لأفضل معلوماتنا كانت ببي قد شفيت.

القارة الثالثة والأخيرة

غادرتُ الهند عام 1964، معي شهادة في التجارة، وما يعادلُ عشرة دولارات في تلك الأيام. أبحرت على متن سفينة الشحن الإيطالية (روما) لأسابيع ثلاثة وكانت قمرتي من الدرجة الثالثة ملاصقة لغرفة المحركات. مخرت بنا السفينة بحر العرب والبحر الأحمر، والبحر المتوسط، حتى وصولنا إنكلترا في النهاية، حيث أقمتُ في فينسبوري، شمال لندن، في بيت يشغله بالكامل عمال بنغاليون عزاب مفلسون مثل حالي. كانوا يعدّون دزينة على الأقل وأحيانا أكثر من ذلك، فقد كنا نكافح جميعا لتثقيف وإثبات أنفسنا في الخارج.

تلقيت الدروس في كلية لندن للاقتصاد، وعملت في مكتبة الجامعة لأعول نفسي. كنا نسكن من ثلاثة إلى أربعة أشخاص في الغرفة الواحدة، ونتشارك في دورة مياه باردة، كما تناوبنا على طبخ قدور من طبيخ البيض الذي كنا نتناوله بأيدينا فوق طاولة مغطاة بأوراق الصحف. باستثناء أعمالنا لم يكن لدينا سوى القليل من المسؤوليات. ففي عطل نهاية الأسبوع كنا نتبطلُ حفاة مرتدين

مناماتنا التي تربط سراويلها بالتكة، نرشف الشاي وندخن سغائر الروثمان، أو نخرج لمشاهدة مباريات الكريكت في ملعب اللوردات. في بعض العطل كان البيت يعج بالمزيد من البنغاليين الذين نتعرف عليهم في متجر البقالة، أو في القطار، ونجهز بالتالي المزيد من طبيخ البيض، ونعرض فيلم موكيش على آلة عرض من نوع غروندغ ، ونغسل صحوننا في حوض الغسيل؛ وبين حين وآخر ينتقل أحدهم من البيت للعيش مع امرأة قرر أهله في كلكوتا أن يتزوج منها. وفي العام 1969 عندما بلغت إحدى وثلاثون سنة تم ترتيب زواجي، في الوقت نفسه الذي عُرض عليّ عمل بدوام كامل في أمريكا، في قسم الإعداد في مكتبة جامعة ماساشوتس للتقنية. كان الراتب جيدا بما يكفي لإعالة زوجة، كما نلت شرف التوظيف من قبل الجامعة المشهورة في العالم، وبناء عليه تحصلت على البطاقة الخضراء من الفئة السادسة، وأعددت نفسي للسفر إلى مكان أبعد.

لكن الآن أصبح لدي ما يكفي من المال لأسافر بالطائرة، فطرت في البداية إلى كلكوتا، لحضور حفل زواجي، وبعد أسبوع طرت إلى بوسطن، لأبدأ عملي الجديد. خلال الرحلة قرأتُ دليل الطالب إلى شمال أمريكا. وهو كتاب بغلاف ورقي اشتريته قبل مغادرتي لندن بسبعة شلنات وستة بنسات من طريق توتنهام كورت. وبالرغم من أنني لم أعد طالبا إلا أنني كنت أحاول التوفير. تعلمت أن

الأمريكيين يقودون سياراتهم على الجانب الأيمن من الطريق وليس الأيسر، وأنهم يسمّون المصعد (elevator) بدلا من (Lift) ويطلقون على خط الهاتف المشغول (busy) بدلا من (engaged) " إن إيقاع الحياة في أمريكا الشمالية، مختلف عنه في بريطانيا كما ستكتشف سريعا،" أخبرني الدليل، "فكل شخص يرى أنه يجب أن يصل على القمة. ولا تتوقع الحصول على كوب من الشاي الإنكليزي." وفي الوقت الذي بدأت فيه الطائرة الهبوط نحو ميناء بوسطن، أعلن قائدها عن الوقت والحالة الجوية، وبأن الرئيس نيكسون أعلن عن عطلة رسمية قومية: لقد هبط أمريكيان على سطح القمر، وهلل عدد من الركاب. "ليبارك الله أمريكا!" صاح أحد الرجال؛ وعبر الممر رأيت امرأة تصلي.

قضيت ليلتي الأولى في نزل يتبع مؤسسة الشباب المسيحيين في ميدان سنترال، يوفر إقامة زهيدة الثمن كما ينصح كتاب الدليل. يقع النزل على مسافة قصيرة سيرا على الأقدام من جامعة ماساشوتس، وعلى بعد خطوات من مبنى البريد ومن سوق كبير يُسمى بيورتي سوبريم. احتوت الغرفة على سرير بسيط، وطاولة، وصليب خشبي صغير على أحد الجدران؛ كما تواجد إعلان على الباب ينص على أن الطبخ ممنوع قطعيا. بالغرفة نافذة عارية من الستائر تطل على طريق ماساشوتس وهو شارع عام تمر فيه العربات

في كلا الاتجاهين. كانت زمامير العربات تنطلق واحدة إثر الأخرى حادة وطويلة، وتعلن أضواء الإنذار عن حالات طوارئ لا تنتهي، كما كان يمر أسطول من الحافلات التي تنفتح أبوابها وتنغلق بهسيس قوي طوال الليل. كانت الضوضاء تصرف الانتباه بشكل متواصل، بل وخانقة أحيانا. لقد أحسست بها في أعماق أضلعي، تماما كما أحسست بالوتيرة المزعجة لطنين محركات السفينة روما؛ لكن ليس هناك سطح ألجأ إليه، أو محيط متلألئ ينعش روحي، ولا ريح تبرّد وجهي، ولا يوجد من يمكنني الحديث معه. كنت في غاية التعب لأتمشى في ممرات نزل الشباب المسيحي الكئيبة بمنامتي المربوطة بالتكة. عوضا عن ذلك جلست إلى المكتب ونظرت من النافذة، نحو القاعة الكبرى في كامبريدج، ونحو صف من السفن الصغيرة. في الصباح التحقتُ بعملي الجديد في مكتبة ديوي التي تقع في مبنى يشبه القلعة بلون البيج عند طريق ميموريال. قمت أيضا بفتح حساب مصرفي، واستأجرت صندوق بريد، واشتريت صحنا بلاستيكيا وملعقة من وولورث وهو سوق تذكرت اسمه من لندن. ذهبت إلى بيورتي سوبريم، أجوس بين الأجنحة، محوّلا الأونصات إلى غرامات ومقارنا الأسعار بالتي كانت في إنكلترا. وفي نهاية المطاف ابتعت علبة صغيرة من الحليب، وعلبة من رقائق الذرة. كانت تلك أول وجبة لي في أمريكا وتناولتها فوق مكتبي. لقد فضلتها على الهامبرغر أو الهوت دوغ وهما البديل الوحيد الذي يمكنني

الحصول عليه في المقاهي الواقعة في طريق ماساشوتس، بالإضافة إلى أنني لم أتناول لحم البقر بعد في ذلك الوقت. حتى عملية شراء الحليب الروتينية البسيطة كانت أمرا جديدا بالنسبة لي، ففي لندن كان يوصل إلينا في زجاجات عند باب بيتنا كل صباح.

خلال أسبوع تكيفتُ مع الوضع إلى حد ما. تناولت رقائق الذرة مع الحليب صباحا ومساء، وابتعت بعض الموز لأجل التنويع، مشرّحا إياها في الطبق باستخدام حد ملعقتي. بالإضافة إلى ذلك اشتريت أكياس شاي وحافظة سوائل (فلاسك) التي كان البائع في وولورث يسميها ثرموس (أخبرني بأن الفلاسك هي ما يستعمل لحفظ الويسكي / وهو الشيء الآخر الذي لم أتناوله قط) . وبثمن كوب من الشاي في المقهى، ملأت الفلاسك بماء مغلي في طريقي إلى العمل كل صباح، وجهزت الأكواب الأربعة التي أشربها خلال النهار. اشتريت علبة أكبر حجما من الحليب، وتعلمت أن أتركها في الجانب المظلل من إفريز النافذة، كما رأيت آخرين يفعلون في النزل. ولتمضية الوقت في الأماسي كنت أقرأ صحيفة البوسطن غلوب في الطابق السفلي، في غرفة فسيحة لها نوافذ بزجاج ملطخ. قرأت كل المقالات والإعلانات لأكون على اطلاع على الأمور، وعندما تتعب عيناي أخلد إلى النوم. فقط لم يكن نومي مريحا. ففي كل ليلة أضطر إلى الإبقاء على نافذتي مفتوحة، لأنها المصدر الوحيد للهواء

النقي في الغرفة الخانقة، وكانت الضوضاء لا تطاق. كنت أستلقي في مرقدي وأضغط بإصبعي فوق أذني، لكن عندما استغرق في النوم تسقط يداي، وتوقظني ضوضاء المرور من جديد. صار ريش الحمام يتراكم على إفريز النافذة، وذات مساء عندما صببت الحليب فوق رقائق ذرتي، وجدت أنه قد فسد. مع ذلك فقد قررت البقاء في المنزل لمدة ستة أسابيع إلى أن يجهز إعداد جواز سفر زوجتي وبطاقتها الخضراء. وعند وصولها سأستأجر بيتا مناسبا. كنت من آن لآخر أقرأ قسم الإعلانات المبوبة من الصحيفة، وأعرج على قسم الإسكان في جامعة التقنية أثناء راحة الغداء، لأرى ما هو متوفر في حدود إمكاناتي المادية. تلك هي الطريقة التي اكتشفتُ فيها وجود غرفة للسكن الفوري، في بيت بشارع هادئ؛ وجاء في الإعلان أن الأجرة هي ثمانية دولارات في الأسبوع. دونت الرقم في كتاب الدليل وطلبته من هاتف عمومي، باحثا بين العملة المعدنية التي لم أتعود استخدامها بعد، فهي أصغر وأخف وزنا من الشلنات، كما أنها أثقل وأكثر لمعانا من البايسا.

" من المتحدث؟" أرادت المرأة أن تعرف. كان صوتها صاخبا ومتذمرا.

" نعم، طاب يومك يا سيدتي. طلبتك بخصوص غرفة الإيجار؟"

" هارفارد، أو التقنية؟"

" عفوا؟"

" هل أنت من جامعة هارفارد، أو من التقنية؟"

توصلت إلى أن التقنية تعني جامعة ماساشوتس للتقنية، أجبت، "أعمل في مكتبة ديوي،" مضيفا بتردد ، "في التقنية."

"لا أؤجر الغرف إلا للفتية من هارفارد أو التقنية."

" نعم يا سيدتي."

أعطيت عنوانا وموعدا للقاء في السابعة من المساء نفسه. وقبل ثلاثين دقيقة من الموعد خرجت بكتاب الدليل في جيبي، وأنفاسي منعشة بعد استخدام مطهر الليسترين. انعطفت نحو شارع متعامد مع طريق ماساشوتش ومظلل بالأشجار حيث برزت بعض الأعشاب المتناثرة بين الشقوق في الممشى. وبالرغم من الحرارة ارتديت معطفا وربطة عنق للمناسبة، كما أفعل مع أية مقابلة أخرى؛ فلم أسكن من قبل أبدا في بيت أي شخص غير هندي. هذا البيت الذي أحيط بسور أشبه بسلسلة، كان بلون أبيض ضارب إلى الصفرة مع زخرفة باللون البني الداكن. خلافا للبيت الذي سكنته في لندن وكان ضمن صف من البيوت مكسوة بالجص، فقد كان هذا منفصلا بالكامل، ومغطى بألواح خشبية صغيرة متداخلة، مع وجود كتل من شجيرات الفورسايا ملتصقة في الواجهة وعلى الأجناب. عندما قرعتُ جرس

الباب صاحت المرأة التي تحدثت معها بالهاتف من حيث بدا لي وكأنه الجهة الأخرى للباب، " لحظة ، من فضلك!"

مرت عدة دقائق ليفتح الباب فيما بعد من قبل امرأة صغيرة الحجم، ومسنة للغاية. على رأسها كانت تتوضع مثل حقيبة، كتلة من الشعر بلون الثلج. وعندما خطوت داخل البيت جلست المرأة فوق مقعد خشبي طويل تواجد في قاع درج ضيق يغطيه السجاد. وما أن استوت على المقعد، تحت بقعة صغيرة من النور، حتى نظرت صوبي إلى الأعلى بانتباه متواصل. كانت ترتدي تنورة سوداء طويلة انتشرت فوق الأرضية مثل خيمة متيبسة، مع قميص أبيض منشىً تحيطه كشكشة عند الرقبة والأكمام. كانت يداها مطويتان معا في حجرها، ولديها أصابع شاحبة طويلة لها براجم متورمة وأظافر قاسية صفراء. لقد أبلى تقدم العمر ملامحها حتى كادت تشبه الرجال، بعيون حادة غائرة، وتغضنات بارزة على جانبي أنفها، كما بهتت شفتاها وتشققتا، فكادتا أن تختفيا، أما الحواجب فلا وجود لهما البتة. مع ذلك فهي تبدو قوية الشكيمة.

" ارفع عينيك!" قالت آمرة، كانت تصيح رغم أنني لا أبعد عنها سوى بضعة أقدام. "اربط السلسلة واضغط على زر الأكرة بقوة! فهذا ما يجب أن تقوم به ساعة دخولك، هل هذا واضح؟"

أغلقتُ الباب كما أُمِرتُ وتفحصتُ البيت. إلى جوار المقعد

الذي تجلس عليه المرأة هناك طاولة مستديرة صغيرة، أرجلها مخفية بالكامل بغطاء قماشي، كما هو حال رجلي المرأة. حملت الطاولة مصباحا، وراديو ترانزستور، وحقيبة جلدية صغيرة لفراطة النقود لها مشبك فضي، وجهاز الهاتف، كما يستند على إحدى جنباتها عكاز خشبي سميك تغطيه طبقة من الغبار. إلى يميني هناك ردهة يغطيها أثاث بال ومحاطة بأرفف كتب.. في ركن الردهة شاهدت آلة بيانو وقد أنزل غطاؤها، وكدست فوقها الصحف، ولم يكن مقعد البيانو موجودا؛ حيث يبدو أنه الذي تجلس عليه المرأة. وفي مكان ما من البيت دقت ساعة سبع مرات.

" حافظت على الموعد!" أعلنت المرأة، "وأتوقع أن تكون كذلك بالنسبة لدفع الإيجارات!"

" معي رسالة يا سيدتي." تواجدت في جيبي رسالة تؤكد توظيفي مع جامعة ماساشوتس للتقنية، أحضرتها معي لتأكيد أنني من التقنية بالفعل.

حدقت في الرسالة ثم سلمتها لي مجددا بحذر، ممسكة إياها بأصابعها وكأنها طبق مملوء بالطعام وليس قطعة من الورق. لم تكن ترتدي نظارة طبية، وتساءلت إن كانت قد تبينت كلمة منها. "الفتى الأخير هنا كان متأخرا على الدوام! وما يزال مدينا لي بثمانية

دولارات! ففتية هارفارد لم يعودوا كما كانوا! هذا البيت لا يدخله إلا هارفارد والتقنية! وكيف هي التقنية يا فتى؟"

" في أتم حال."

" هل تفحصت المزلاج؟"

" نعم يا سيدتي."

خبطت بيدها على المكان الخالي بجانبها على المقعد، وأمرتني بالجلوس. لبعض الوقت كانت صامتة، ثم ترنمت وكأنما هي الوحيدة التي تملك هذه المعرفة:

" هناك علم أمريكي على القمر!"

" نعم يا سيدتي." حتى تلك اللحظة لم ألق بالا لصورة القمر.

بالطبع كانت الصحيفة تعج بمقالة بعد الأخرى. لقد قرأت بأن رواد الفضاء هبطوا على تخوم بحر السكون، مسافرين أبعد من أي شخص في تاريخ الحضارة، ولعدة ساعات استكشفوا سطح القمر، وجمعوا صخورا في جيوبهم، ثم أعطوا وصفا لما يحيط بهم (وصفه أحدهم بأنه قفر هائل)، وتحدثوا هاتفيا مع الرئيس، ثم ثبتوا علما فوق سطح القمر. لقد وُصفت تلك الرحلة بأنها إحدى أعظم إنجازات الإنسان، ورأيت صورة على صفحة كاملة من صحيفة

الغلوب للرواد في بذلاتهم الفضائية المنتفخة، كما قرأت عن ما كان يفعل أناس معينون في بوسطن في اللحظة ذاتها التي هبط فيها الرواد على القمر، في عشية يوم أحد. قال أحدهم بأنه كان يبحر بقاريه الخفيف ملصقا الراديو فوق أذنه؛ وقالت امرأة بأن كانت تخبز الأرغفة لأحفادها.

صاحت المرأة بصوت عال، "علم فوق سطح القمر، يا ولدي! لقد سمعت هذا في الراديو! أليس رائعا؟"

" نعم يا سيدتي."

لكن الإجابة لم ترضها. بدلا من ذلك أمرته، " قل 'رائع'!"

شعرت بالدهشة، وإلى حد ما بالإهانة لهذا الطلب. فقد ذكرني بالطريقة التي عُلمت بها جدول الضرب عندما كنت طفلا، عندما كنت أردد خلف المعلم، وأجلس بدون حذاء أو قلم متصالب الساقين على أرضية الغرفة التي تشكل الفصل الوحيد لمدرسة توليغانجا. ذكّرني ذلك أيضا بزفافي، عندما كان على أن أردد خلف الكاهن مقاطع لا تنتهي باللغة السنسكريتية، وهي جملٌ بالكاد أفهمها ربطتني إلى زوجتي. ولم أقل شيئا.

" قل 'رائع'!" صاحت المرأة من جديد.

" رائع،" تمتمتُ، وكان علي أن أعيد الكلمة مرة أخرى بأعلى

صوت ممكن، لكي تسمعها. كنت بطبيعتي متحدثا هادئا، وبالذات كنت مترددا في رفع صوتي أمام سيدة مسنة لم أقابلها إلا منذ لحظات، لكن لم يبدُ أنها منزعجة للأمر. على العكس يبدو أن الإجابة قد أسرتها، لأن أمرها التالي لي كان:

" اذهب لتفقد الغرفة!"

نهضت عن المقعد وصعدت السلالم الضيقة المُسجّدة. كان هناك خمسة أبواب، اثنان على كل جانب من ممر مشابه في الضيق، وباب آخر في النهاية المقابلة. باب واحد فقط كان معرجا بعض الشيء. حوت الغرفة سريرا مزدوجا يقع تحت سقف مائل، وسجادة بيضاوية بنية، وحوض غسيل برزت أنابيبه، وخزانة بأدراج. أحد الأبواب مطلي باللون الأبيض كان يقود إلى غرفة صغيرة، وآخر إلى دورة مياه وحوض استحمام. غُطيت الجدران بورق جدران مخطط باللونين الرمادي والعاجي، وكانت النافذة مشرعة؛ فتحركت ستائر نظيفة بفعل النسيم. رفعتُ الستائر، وشاهدت المنظر: حديقة خلفية صغيرة، فيها القليل من الأشجار المثمرة، وحبل غسيل عار. كنت راضيا عن المكان، ومن قاع الدرج سمعت المرأة تريد أن تعرفً، "ما هو قرارك؟"

عندما عدت إلى الردهة وأخبرتها، التقطتْ كيس النقود الجلدي من على الطاولة، وجاست خلاله بأصابعها لتخرج مفتاحا

مشبوكا في حلقة معدنية. أبلغتني بوجود مطبخ في خلفية البيت يمكن الولوج إليه عبر الردهة؛ ويُسمح لي باستخدام الموقد طالما تركته مثلما وجدته. كذلك وُفرت لي ملاءات ومناشف لكن المحافظة عليها نظيفة يقع على عاتقي. أما الإيجار فيفترض الوفاء به صباح كل جمعة ووضعه فوق مفاتيح البيانو. " وممنوع زيارة السيدات!"

"أنا رجل متزوج يا سيدتي." وكانت تلك المرة الأولي التي أعلن فيها هذا الأمر لأي شخص.

لكنها لم تسمع. "ممنوع زيارة السيدات!" قالت مصرة؛ ثم قدمت لي نفسها بأنها السيدة كروفت.

كان اسم زوجتي مالا، ورُتب الزواج من قبل أخي وزوجته. لم أنظر إلى العرض لا بالقبول أو بالموافقة، فقد كان واجبا يُتوقع مني أن أؤديه، كما هو متوقع من كل رجل. هي ابنة لمعلم مدرسة في بليغاتا. وأخبرتُ أن بإمكانها الطبخ، والحياكة، والتطريز، ورسم المناظر الطبيعية، كما تحفظ أشعارا لطاغور، لكن هذه المواهب لم تغط حقيقة أنها بشرتها كانت غامقة، وعلى هذا الأساس فقد رفضتها مباشرة مجموعة من الرجال. كانت في السابعة والعشرين، وهي سن بدأ فيها الخوف ينتاب أبويها من أنها لن تتزوج أبدا. وعليه كانا مستعدين أن يشحنا ابنتهما الوحيدة عبر العالم لكي يجنباها العنوسة.

تقاسمنا الفراش لخمس ليال. في كل ليلة منها، وبعد أن تضع كريم البرد، وتضفر شعرها الذي تربطه عند النهاية بسلك قطني أسود، تدير وجهها بعيدا عني وتنخرط في البكاء؛ كانت تشتاق لأبويها. وبالرغم من عزمي على مغادرة البلاد خلال عدة أيام، فإن التقاليد تنص على أنها أصبحت جزءا من بيتي، وأنها ستقيم خلال الأسابيع الستة القادمة مع أخي وزوجته، تطبخ الطعام، وتقوم بالتنظيف، وتقدم الشاي والحلويات للضيوف. لم أفعل شيئا للتخفيف عنها، وكنت أستلقي في جانبي من الفراش، أطالع كتاب الدليل على ضوء مصباح يدوي، وأتعجل بدء رحلتي. أحيانا كنت أفكر في غرفتي الصغيرة في الجانب الآخر من الجدار التي كانت تخص أمي. أما الآن فالغرفة خالية تقريبا، وحشية القش التي كانت تنام فوقها مكومة مع صناديق وأثاث قديم. منذ ست سنوات تقريبا، وقبل أن أغادر إلى لندن، شاهدتها تحتضر فوق هذه الحشية، وعثرت عليها تلعب ببرازها في أيامها الأخيرة. قبل أن نحرق جثتها، قمت بتنظيف كل ظفر في أصابعها بمسّاكة الشعر؛ بعد ذلك، ولأن أخي لم يجد الجرأة للقيام بالمهمة، أخذت دور الأخ الأكبر، وأشعلت النار في منصة حطبها لكي أحرر روحها المعذبة وأرسلها إلى السماء.

في صباح اليوم التالي انتقلت إلى الغرفة في بيت السيدة كروفت. وعندما فتحت الباب وجدتها تجلس على مقعد البيانو، في

المكـان نفـسه الـذي جلـست علـيه بـالأمس. ارتـدت التـنورة الـسوداء نفـسها، والقمـيص المنـشى نفـسه، وشـبكت يـديها معـا في حجـرها بالطريقة نفسها. بدت لي مشابهة كثيرا لما كانت عليه بالأمس بحيث أنني تساءلت إن كانت قد قضت ليلتها على المقعد. وضعتُ حقيبتي فوق، وملأت حافظتي بالماء المغلي من المطبخ، ثم توجهت إلى العمل. في ذلك المساء وعندما عدت من الجامعة، وجدتُ أنها ما تزال هناك.

" أجلس يا فتى!" وخبطت المكان الخالي بجانبها.

استقريت على المقعد بجانبها. كانت معي حقيبة مشترياتي من مواد البقالة ـ المزيد من الحليب، والمزيد من رقائق الذرة، والمزيد من المون، لأن فحصي للمطبخ باكرا في النهار بيّن لي عدم وجود أي قدور أو طناجر أو أواني طبخ إضافية. لم يكن هناك سوي مقلاتان في البراد، وكلاهما يحتوي على شكل من المرق البرتقالي، كما يوجد سخان نحاسي فوق الموقد.

" مساء الخير، يا سيدتي."

سألتني إن قمت بتفقد المزلاج. فأخبرتها بأنني فعلت.

للحظة ظلت صامتة. وفجأة أعلنت بقدر متساو من الفرحة وعدم التصديق كما فعلت في الليلة السابقة. "هناك علم أمريكي فوق القمر يا فتى!"

" نعم يا سيدتي."

" علم فوق القمر، أليس ذلك رائعا؟"

هززت رأسي، خشية مما هو آت. "نعم يا سيدتي."

" قل رائع!"

هذه المرة توقفتُ قليلا، ناظرا حولي خشية وجود من يسمعني؛ رغم أنني أعلم تماما أن البيت خال. أحسست بأنني مغفل، لكن الطلب لم يكن بالشيء الكثير. "رائع!" قلت صائحا.

خلال أيام صار الأمر روتينيا. في الأصباح عند مغادرتي متوجها إلى المكتبة، إما أن تكون السيدة كروفت مختفية في غرفة نومها، أو متواجدة على أي من جانبي الدرج، أو تجلس على المقعد الخشبي، غير مهتمة بوجودي، تنصت إلى الأخبار أو الموسيقي الكلاسيكية في الراديو. لكن الشيء نفسه يحدث عند عودتي في كل مساء؛ تخبط المقعد وتأمرني بالجلوس، وتعلن عن وجود علم أمريكي فوق القمر، وتعلن بأنه أمر رائع. أردد أيضا بأنه أمرٌ رائعٌ، ثم نجلس معا في صمت. بالغرابة التي اتسم بها ذلك الحدث الليلي، وبما رأيت أنه يستغرق دهرا، لكنه في الواقع لا يدوم أكثر من عشر دقائق. في نهاية المطاف كانت تروح في إغفاءة، ويسقط رأسها فجأة نحو صدرها فتتركني حرا لأتوجه إلى غرفتي. حينذاك بالطبع لم يعد هناك

علم فوق سطح القمر، فقد قرأت في الصحف أن رواد الفضاء أخذوه معهم قبل عودتهم إلى الأرض. لكن لم أملك الشجاعة لإخبارها بذلك.

في صباح الجمعة عندما حان وقت دفع أجرة أسبوعي الأول، ذهبت إلى البيانو في الردهة لأضع النقود على الحافة. كانت مفاتيح البيانو باهتة وفقدت لونها. وعندما ضغطت أحدها لم يصدر أي صوت. وضعتُ ثماني دولارات من فئة الدولار الواحد في مظروف وكتبت اسم السيدة كروفت في الواجهة. لم يكن من عادتي أن أترك النقود لوحدها دون أن أضع عليها علامة؛ ومن حيث أقف بإمكاني رؤية تنورتها التي تشبه الخيمة. كانت جالسة فوق المقعد تستمع إلى الموسيقى. وبدا لي أنه من غير الضروري دفعها للوقوف وقطع كل تلك المسافة إلى البيانو، فلم أرها من قبل قط تمشي في أنحاء البيت، وافترضت من وجود العكاز مسندا إلى الطاولة بجانبها، بأنها تمشي بصعوبة. عندما اقتربت منها نظرت إلى فوق قائلة:

" ما غرضك؟"

" الأجرة يا سيدتي."

" ضعها على الحافة فوق مفاتيح البيانو."

" إنها معي الآن." ومددت لها المظروف،لكن أصابعها المتشابكة في حجرها لم تتحرك، فانحنيت قليلا وخفضت

المظروف بحيث أصبح يتأرجح فوق يديها مباشرة. بعد لحظة قبلته وهزت رأسها.

عندما عدت إلى البيت في تلك الليلة، لم تقم بخبط المقعد، لكن بحكم العادة جلست بجانبها. سألتني إن قمت بفحص المزلاج، لكنها لم تذكر شيئا عن العلم فوق القمر. بدلا من ذلك قالت:

" ما فعلته كان لطيفا!"

" عفوا يا سيدتي؟"

" ما فعلته كان لطيفا.!"

كانت ما تزال ممسكة بالمظروف في يدها.

في يوم الأحد حدث طرق على باب غرفتي؛ وقدّمت امرأة مسنة نفسها لي: إنها هيلين ابنة السيدة كروفت. دخلت إلى الغرفة ونظرت إلى كل جدرانها وكأنها تبحث عن علامات تغيّر ما، ملقية نظرة على القمصان المعلقة في الخزانة، وربطات العنق الملقاة فوق أكرة الباب، وعلبة رقائق الذرة فوق الكوميدينو، والطبق والملعقة المتسخين في الحوض. كانت قصيرة غليظة الخصر، لها شعر فضي مقصّر، وأحمر شفاه وردي لامع. ارتدت فستانا صيفيا بدون أكمام، وصفا من الخرز الأبيض من البلاستيك، ونظارة طبية في سلسلة مدلاة مثل مرجيحة فوق صدرها. كانت عروق زرقاء مرسومة مثل خريطة على خلفية

ساقيها، ولحم ساعديها قد ارتخي مثل الباذنجان المشوي. أخبرتني أنها تقطن في أرلنغتون، وهي بلدة تقع على امتداد طريق ماساشوتس. " آتي إلى هنا مرة في الأسبوع لإحضار المشتريات لأمي. هل طلبت منك حزم حقائبك بعد؟"

" الأمور تسير على ما يرام يا سيدتي."

" بعض الفتية يركضون صائحين، لكني أظن أنك تعجبها. فأنت أول مستأجر تشير إلية بأنه مهذب."

" العفو، يا سيدتي."

نظرت نحوي وقد لاحظت قدمي العاريتين (مازلت أحس بالغرابة من ارتداء حذائي داخل البيت، ودائما أخلعه قبل دخول غرفتي.) . " هل أنت حديث العهد في بوسطن؟"

" حديث العهد في أمريكا يا سيدتي."

" ومِن؟" قالت رافعة حاجبيها.

" مِن كلكوتا بالهند."

" حقا ؟ كان لدينا مستأجر برازيلي منذ عام. وستجد كامبريدج مدينة عالمية بحق."

أومأت برأسي وبدأت أتساءل كم ستطول محادثتنا. لكن في

هذه اللحظة سمعنا صوت السيدة كروفت المكهرِب يصعد عبر الدرج. وعندما خطونا إلى ردهة الممر سمعناها تصرخ:

" عليكما بالنزول تحت على الفور!"

" ما الأمر،" ردت هيلين صارخة

" على الفور!"

انتعلتُ حذائي على الفور، وتنهدت هيلين.

نزلنا الدرج الذي كان من الضيق ليسمح لنا بالنزول معا، وعليه سرت خلفها. لم يبد عليها الاستعجال، كما تذمرت عند حد ما بأن ركبتها توجعها. "هل مشيت بدون عكازك؟" نادت هيلين عليها، "تعرفين أنه لا يجب أن تمشي بدون العكاز." توقفت مريحة يدها على الدرابزين، ونظرت نحوي. "إنها تنزلق أحيانا."

للمرة الأولى بدت لي السيدة كروفت عرضة للأذى. وتخيلتها مرمية على الأرض أمام المقعد، مطروحة على ظهرها تحدق في السقف، وقدماها ممدتان في اتجاهات متعاكسة. لكن عندما وصلنا قاع الدرج كانت تجلس هناك كعادتها، ويداها متشابكتان في حجرها. تواجد عند قدميها كيسان من المشتريات، وعندما وصلنا أمامها لم تخبط على المقعد، أو تطلب منا الجلوس. فقد حملقت بغضب.

" ما الأمر يا أمي؟"

" هذا غير لائق!"

" وما هو غير اللائق؟"

" من غير اللائق أن يقوم رجل مهذب وسيدة، غير متزوجين لبعضهما، بتبادل حديث خاص بدون حضور مرافق!"

قالت هيلين بأنها في الثامنة والستين من عمرها، وإن عمرها يؤهلها لتكون أمي. لكن السيدة كروفت أصرت على أن نتبادل الحديث في الردهة تحت. كما أضافت بأنه من غير اللائق أيضا لسيدة في مكانة هيلين أن تعلن عن سنها، وأن ترتدي فستانا يرتفع كثيرا فوق مستوى الركبة.

" لمعلوماتك يا أمي، فنحن الآن في العام 1969. ماذا ستفعلين إذا غادرت البيت فعلا ذات يوم ورأيت فتاة ترتدي تنورة قصيرة؟"

" سأعمل على أن يتم توقيفها." شهقت السيدة كروفت.

هزت هيلين رأسها والتقطت أحد أكياس المشتريات. حملت أنا الكيس الثاني، وتبعتها عبر الردهة، إلى المطبخ.

كانت الأكياس مملوءة بعلب الحساء التي قامت هيلين بفتحها واحدة إثر الأخرى بعدة لفات من فتاحة العلب. سكبت

الحساء القديم الموجود في الأطباق في حوض الغسيل، ونظفت الأطباق تحت صنبور المياه، ثم ملأتها بالحساء الجديد من العلب المفتوحة للتو، وأعادتها مجددا إلى البراد. "منذ سنوات قليلة، كان باستطاعتها فتح العلب بنفسها، وهي تكره قيامي بهذا العمل لها، لكن البيانو دمر أصابعها." ارتدت نظارتها، ونظرت داخل خزانات المطبخ، فوقعت عيناها على أكياس الشاي الخاصة بي. "هل نتناول كوبا؟"

ملأتُ السخان فوق الموقد. "عذرا يا سيدتي، ما قصة البيانو؟"

" كانت تعطي دروسا في البيانو لمدة أربعين سنة؛ وذلك كيف ربتنا بعد وفاة أبي." وضعت يديها فوق أردافها محدقة في البراد المفتوح. ثم مدت يدها في الخلف وأخرجت قالبا ملفوفا من الزبد، قطبت جبينها، ثم رمت به في القمام. "هذا سيكفي." قالت وهي تضع علب الحساء غير المفتوحة في الدولاب. جلستُ إلى الطاولة، ونظرت بينما كانت هيلين تغسل الصحون المتسخة، ثم ربطت كيس الزبالة، وسقت نبتة العنكبوت الموجودة فوق حوض الغسيل، ثم سكبت الماء الفائر في كوبين. قدمت لي كوبا منها بدون حليب، وكانت علامة الكيس تتدلى على الجانب؛ ثم جلست إلى الطاولة.

" عفوا يا سيدتي، لكن هل هذا يكفي؟"

رشفت هيلين من كوبها، وترك أحمر شفاهها علامة وردية ضاحكة في الجانب الداخلي من الكوب. "ما الذي يكفي؟"

" الحساء الذي في الأطباق، هل هو طعام كافٍ للسيدة كروفت؟"

" إنها لا تتناول غيره، فقد توقفت عن تناول الطعام العادي بعد بلوغها المائة. ولنقل أن هذا كان منذ ثلاث سنوات."

صُدمت. فقد افترضت أن تكون السيدة كروفت في ثمانينياتها، وربما تبلغ التسعين. لم أعرف من قبل قط أي شخص عاش لأكثر من قرن. وكون هذا الشخص أرملة تعيش بمفردها صدمني أكثر لأن الترمّل هو ما دفع بأمي إلى الجنون. لقد توفي أبي الذي كان يعمل موظفا في مكتب البريد العام بكلكوتا من جراء التهاب دماغي عندما كنت في السادسة عشر. رفضت أمي أن تتكيف مع الحياة بدونه؛ وبدلا من ذلك غرقت بعمق في عالم من الظلمة لم أتمكن أنا، أو أخي، أو الأقارب المنشغلون، أو العيادات النفسية في طريق راشبيهارين من إنقاذها. ما آلمني أكثر هو تصرفاتها غير المتحفظة؛ كأن أسمعها تتجشأ بعد الوجبات، أو تطلق الضراط أمام الناس دون أدنى شعور بالخجل. بعد وفاة أبي، ترك أخي مدرسته، وبدأ يعمل في مصنع القنب، الذي سيديره فيما بعد، لكي يعول الأسرة. وعليه فقد كان عليّ الجلوس عند قدمي أمي وأن أقرأ دروسي، بينما هي تعد وتكرر

عدّ الأساور فوق ذراعها وكأنها خرز المعداد. حاولنا مراقبتها، وذات مرة خرجت شبه عارية إلى محطة الترام، قبل أن نتمكن من إعادتها إلى البيت مجددا.

" سيكون من دواعي سروري أن أسخّن حساء السيدة كروفت في الأماسي. فلا مشكلة في ذلك" اقترحت عليها أثناء نزعي لكيس الشاي من كوبي، واستخراج السائل منه.

نظرت هيلين في ساعتها، ثم نهضت، وسكبت ما تبقى من شايها في الحوض. "لن أقوم بذلك لو كنت مكانك. فهذا سيكون الشيء الذي سيقضي عليها تماما."

ذاك المساء عندما عادت هيلين إلى أرلنغتون وبقيت أنا والسيدة كروفت لوحدنا من جديد، بدأ ينشغل بالي. فالآن وبعد معرفتي كم مسنة هي، خفتُ أن يحدث لها شيء ما في منتصف الليل، أو عندما أكون بالخارج خلال النهار. فبالرغم مما تبدو عليه من قوّة وجبروت، كنت أعرف أنه حتى الخدش أو السعال يمكن أن يقتلا شخصا في مثل سنها؛ وأعرف أن كل يوم تعيشه يُعد بمثابة معجزة؛ وبالرغم مما بدا أنه علاقة طيبة لي مع هيلين إلا أن جانبا بسيطا مني كان خائفا بأنها قد تتهمني بالإهمال إن حدث شيء. لكن لم يبدُ على هيلين الانشغال بالأمر، فقد كانت تروح وتأتي يوم أحد بعد الآخر جالبة معها الحساء للسيدة كروفت.

بهذه الطريقة مرت ستة أسابيع من الصيف. كنت أعود إلى البيت كل مساء، بعد فترة عملي في المكتبة، وأمضي بضع دقائق على المقعد مع السيدة كروفت. لقد منحتها جانبا من رفقتي، حيث أكدت لها قيامي بتفحص المزلاج، وأخبرتها بأن وجود علم على سطح القمر أمرٌ رائع. في بعض الليالي كنت أظل جالسا بجانبها حتى بعد أن يجرفها النعاس، وما أزال مروّعا من عدد السنين التي عاشتها فوق هذه الأرض. حاولت أحيانا تصور العالم الذي ولدت فيه عام 1866 - وقد تخيلت أنه عالم يعج بنساء يرتدين تنانير سوداء طويلة، يتبادلن أحاديث محتشمة في الردهة. عندما أنظر الآن إلى براجمها المتورمة المتشابكة في حجرها كنت أتخيلها طويلة ورشيقة وهي تنقر مفاتيح البيانو. أحيانا كنت أنزل تحت قبل ذهابي إلى النوم لأتأكد من جلوسها منتصبة على المقعد، أو أنها في أمان في غرفة نومها. كنت أحرص في أيام الجُمع على وضع الأجرة بين يديها. وليس هناك ما يمكنني القيام به زيادة على هذه التصرفات البسيطة. فلم أكن ابنا لها، ولست مدينا لها بشيء غير تلك الدولارات الثمانية.

في نهاية أغسطس كان جواز سفر مالا وبطاقتها الخضراء جاهزين؛ وتلقيت برقية حول تفاصيل رحلتها. لم يكن هناك خط هاتفي في بيت أخي بكلكوتا. وفي غضون ذلك تلقيت رسالة منها كُتبت بعد أيام فقط من فراقنا؛ لم تحو الرسالة أية تحايا،

ومخاطبتي باسمي مباشرة تُعد افتراض حميميّة لم نكتشفها بعد؛ وعليه لم يكن بها سوى بضعة أسطر. " أكتبُ لك بالإنغليزية استعدادا للرحلة. وهاأنذا وحيدة للغاية. هل الجو بارد كثيرا هناك. هل يوجد ثلج. المخلصة، مالا."

لم تحرك كلماتها عواطفي، فلم نمض سوى أياما قليلة معا. ومع ذلك فنحن مرتبطان سوية. لمدة أسابيع ستة أخذت ترتدي إسورة حديدية حول معصمها، وتضع صبغة الكبريت في مفرق شعرها، لتعلن للعالم بأنها عروس. وفي هذه الأسابيع الستة كنت أنظر إلى قدومها كما أنظر إلى قدوم شهر أو فصل جديد ـ شيء محتوم ولكن لا معنى له في ذلك الوقت. لم أعرفها إلا قليلا، فبينما كانت تفاصيل ملامح وجهها تخطر على بالي، إلا أنني لم أتمكن من استحضار الوجه بأكمله.

بعد أيام من تسلم رسالتها، وبينما كنت أتمشى إلى عملي في الصباح، شاهدت امرأة هندية في الجانب المقابل من طريق ماساشوتس، ترتدي ساري يكاد يجرجر طرفه الحر فوق المشى، وتدفع أمامها عربة بها طفل، بينما كانت تسير إلى جانبها امرأة أمريكية تجر كلبا أسود صغيرا. فجأة أخذ الكلب ينبح، ومن الجهة المقابلة من الشارع رأيت المرأة الهندية تجفل، وتتوقف في طريقها، وحينذاك قفز الكلب وأمسك بطرف ساريها بين أسنانه. نهرت

الأمريكية الكلب وبدا عليها أنها تعتذر، ثم ابتعدت مسرعة تاركة إياها تعدّل وضع ساريها في منتصف الممشى، وتهدئ من روع طفلها الباكي. لم تلحظ وقوفي هناك وفي نهاية المطاف استمرت في طريقها، وسرعان ما تبين لي في ذلك الصباح أن مثل هذا الحادث المؤسف سيكون مصدر قلق لي. كان من واجبي أن أرعى مالا، أن أستقبلها وأحميها. سيتوجب علي أن أبتاع لها حذاءها الأول المخصص للثلج. وسيكون علي إخبارها أي الشوارع يجب تجنبها، ومن أي اتجاه يأتي سيل السيارات، وأن أخبرها بأن ترتدي ساريها بحيث لا تجرجر طرفه على الطريق. وتذكرت بشيء من الانزعاج أن ابتعادها مسافة خمسة أيام فقط عن أهلها جعلها تبكي.

على النقيض من مالا فقد اعتدتُ كل شيء في ذلك الوقت: اعتدتُ تناول رقائق الذرة مع الحليب، واعتدتُ زيارات هيلين، واعتدتُ الجلوس على المقعد مع السيدة كروفت. الشيء الوحيد الذي لم أعتده بعد هو مالا. ومع ذلك فقد قمت بما يجب علي أن أقوم به. توجهت إلى قسم الإسكان في جامعة التقنية، وعثرت على شقة مفروشة على مبعدة بضع بنايات، تحوي سريرا مزدوجا، ومطبخا وحماما خصوصيين بأربعين دولارا في الأسبوع. في الجمعة الأخيرة سلّمت للسيدة كروفت مظروفا يحوي ثماني ورقات من فئة دولار واحد، كما أنزلت حقيبتي وأخبرتها بأنني سأغادر المكان. قامت بدس

مفتاحي في حقيبتها الخاصة بالصرافة. وكان آخر ما طلبته مني هو إعطاؤها عكازها المسنود إلى الطاولة كي تسير إلى الباب وتغلقه خلفي. "وداعا إذاً." قالت وهي تعود أدراجها داخل البيت. لم أتوقع أية مظاهر عاطفية، لكنني مع ذلك كنت محبطا. كنت مجرد مستأجر، رجل دفع لها بعض النقود وكان يخرج ويدخل من بيتها طوال ستة أسابيع. وبمقارنة هذا مع قرن من الزمن، فهو لا يعد شيئا يذكر.

في المطار تعرفتُ إلى مالا على الفور. لم يكن طرف ساريها يجرجر فوق الأرضية، لكنه كان مثنيا فوق رأسها بحياء العرائس، مثلما كان يغطي رأس أمي حتى يوم وفاة أبي. كان ذراعاها السمراوان مصفوفان بأساور ذهبية، ورُسمت دائرة صغيرة حمراء فوق جبينها، أما أطراف قدميها فمزخرفة بصبغة حمراء. لم أحضنها، أو أقبلها، أو أمسك يدها. عوضا عن ذلك سألتها إن كانت جائعة متحدثا البنغالية للمرة الأولى في أمريكا.

ترددت ثم هزت رأسها بالإيجاب.

أخبرتها بأنني جهزت طبيخ البيض في البيت. "وماذا قدموا لك في الطائرة؟"

" لم آكل شيئا."

" طوال المسافة من كلكوتا؟"

" قائمة الطعام تقول إنه حساء ذيل الثور."

" لكن بالتأكيد هناك أصناف أخرى."

" فكرة تناول ذيل الثور جعلتني أفقد شهيتي."

عند وصولنا إلى البيت، فتحت مالا إحدى حقائبها وقدمت لي كنزتين منسوجتين من صوف أزرق براق، كانت قد صنعتهما خلال فترة انفصالنا عن بعضنا. كانت لإحداهما رقبة مثلثة، والأخرى مغطاة بفتلات غليظة، ارتديتهما وتبين أنهما ضيقان عند الابطين. كذلك أحضرت لي زوجا من المنامات الذي يربط سروالها بالتكة، ورسالة من أخي، مع علبة من شاي دارجيلنغ المطحون. أما أنا فلم يكن لدي هدايا لها سوى طبيخ البيض. جلسنا إلى الطاولة العارية، كل منا يحدق في طبقه، وتناولنا طعامنا مستخدمين أيدينا وهو أمرٌ لم أفعله بعد في أمريكا.

قالت:"البيت لطيفٌ، وكذلك طبيخ البيض." وخلال ذلك كانت تمسك بطرف ساريها إلى صدرها كي لا يسقط عن رأسها.

" لا أعرف الكثير من وصفات الطعام."

هزت رأسها، وهي تقشر حبات بطاطسها قبل تناولها. وانزلق طرف الساري مرة عن رأسها فعدلت وضعه على الفور.

قلت لها: "لا حاجة بك لتغطية رأسك، فلا أهتم لذلك، ولا ضرورة للقيام بذلك هنا."

ومع ذلك حافظت على تغطيته.

انتظرتُ كي أتعود عليها، وعلى تواجدها بالقرب مني، على طاولتي وفي فراشي، لكن بعد مضي أسبوع لم نزل غريبين. مازلت غير معتاد على العودة إلى بيت تفوح منه رائحة الأرز الطازج المبخر، وأن أجد الحوض في دورة المياه نظيفا دائما، وفرشاتا أسنان مرتبتان بجوار بعضهما، وقطعة من صابون بيرز من الهند تستقر في حافظة الصابون. لم أعتد رائحة زيت جوز الهند الذي كانت تفرك به فروة رأسها كل ليلة، أو صوت ارتطام أساورها الناعم أثناء تحركها في أرجاء البيت. في الأصباح كانت دائما تفيق من النوم قبلي. في الصباح الأول عندما دخلتُ إلى المطبخ كانت قد سخّنت ما تبقى من الطعام، ووضعت طبقا على حافته ملعقة مملوءة بالملح، مفترضة أنني سأتناول الأرز للإفطار، كما يفعل أغلب الأزواج البنغاليون. أخبرتها بأن رقائق الذرة ستكفيني، وفي الصباح التالي عندما أتيت إلى المطبخ كانت قد وضعت الرقائق في طبقي. ذات صباح مشت بصحبتي في طريق ماساشوتس حتى جامعة التقنية، حيث صحبتها في جولة قصيرة على المكان. عرجنا في طريقنا على متجر كبير حيث استخرجت نسخة عن المفتاح، بحيث تتمكن من دخول الشقة

بنفسها. وفي الصباح التالي طلبت مني بعض الدولارات، التي تخليت عنها كارها، لكنني كنت أعلم أن هذا أمر طبيعي أيضا. عندما عدت من العمل وجدت قشارة بطاطا في درج المطبخ، ومفرشا فوق الطاولة، وطبيخ دجاج فوق الموقد قد تم إعداده بالثوم والزنجبيل الطازج. لم يكن لدينا تلفزيون في تلك الأيام. وبعد العشاء أقرأ الصحيفة بينما تجلس مالا إلى طاولة المطبخ، تعمل على إعداد سترة من الصوف لها باستخدام المزيد من الصوف الأزرق البراق، أو تكتب الرسائل إلى الأهل.

يوم الجمعة، وفي نهاية أسبوعنا الأول اقترحت عليها الخروج من البيت، فوضعت مالا شغل الإبرة جانبا واختفت في الحمام. وعندما خرجت علي أسفتُ للاقتراح الذي قدمته؛ فقد ارتدت ساري نظيفا من الحرير ومزيدا من الأساور، ولفت شعرها مع فرق جانبي جذاب في أعلى الرأس. كما لو أنها ذاهبة إلى احتفال، أو على الأقل إلى السينما، لكن ذهني كان خاليا من هذه الأماكن. كان جوّ المساء معتدلا، وتجاوزنا عدة بنايات في طريق مساشوتس محدقين في نوافذ المطاعم والمتاجر، ثم بدون تفكير قدتها نحو شارع هادئ كنت قد سرت فيه ليال عديدة لوحدي.

" هنا حيث سكنتُ قبل أن تأتي،" قلت لها متوقفا عند سور السيدة كروفت الشبيه بالسلسلة.

" في مثل هذا البيت الضخم؟"

" كانت لي غرفة صغيرة في الخلف."

"ومن يسكن هنا أيضا؟"

" سيدة مسنة للغاية."

" مع عائلتها؟"

" بل لوحدها."

" ومن يقوم برعايتها؟"

فتحتُ البوابة. "في أغلب الأحيان تتدبر أمورها بنفسها."

تساءلت إن كانت السيدة كروفت ما تزال تذكرني؛ وتساءلت إن كان هناك مستأجر جديد يجلس بجانبها على المقعد في كل مساء. عندما قرعت الجرس توقعتُ الانتظار الطويل نفسه مثل يوم لقائنا الأول، حين لم أحصل على المفتاح بعد. لكن هذه المرة فُتح الباب على الفور تقريبا بواسطة هيلين. لم تكن السيدة كروفت جالسة فوق المقعد الذي لم يكن موجودا في مكانه.

" مرحبا،" قالت هيلين، مطلقة ابتسامة نحو مالا بشفتيها الورديتين البراقتين. "أمي في الردهة، هل ستبقى لبعض الوقت؟"

" كما ترغبين يا سيدتي."

" إذاً سأسرع إلى المتجر إن لم يكن لديك مانع. لقد تعرضت لحادث بسيط، ولا يمكننا تركها بمفردها هذه الأيام، حتى ولو لدقيقة."

أغلقت الباب وراء هيلين، وتوجهت نحو الردهة. كانت السيدة كروفت تستلقي على ظهرها، يستند رأسها إلى وسادة بلون خوخي، وفوق جسمها يوجد لحاف أبيض اللون غير سميك، ويداها متشابكتان فوق صدرها. عندما رأتني أشارت إلى الأريكة وأمرتني بالجلوس. فأخذت مكاني كما أمرت؛ بينما ذهبت مالا إل البيانو وجلست على المقعد الذي كان يتواجد الآن في مكانه الصحيح.

" لقد كسرت حوضي!" أعلنت وكأن الوقت لم ينقض.

" يا إلهي، سيدتي."

" سقطت عن المقعد!"

" أنا شديد الأسف، يا سيدتي."

" حدث ذلك عند منتصف الليل! وهل تعرف ماذا فعلت، يا فتى؟"

هززت رأسي نفيا.

" لقد اتصلت بالشرطة!"

حدقت نحو السقف مطلقة ابتسامة عريضة مُخدرة، مبينة

صفا متراصا من أسنان رمادية طويلة. لم تفقد واحدة منها. "ماذا تقول عن هذا يا فتي؟"

في الوقت الذي كنت فيه مندهشا، لكني عرفت ما يتوجب علي قوله. وبدون أدنى تردد صحتُ، "رائع!"

ضحكت مالا حينذاك، وكان صوتها مملوءا بالحنان، وعيناها تشعان بالتسلية. لم أسمعها تضحك من قبل قط، وكانت ضحكتها عالية كثيرا بحيث أن السيدة كروفت سمعتها أيضا، فالتفتت نحو مالا محملقة.

" من تكون يا فتى؟"

" إنها زوجتي، يا سيدتي."

ضغطت السيدة كروفت يدها بزاوية على الوسادة لتحضى بنظرة أفضل. "هل يمكنك العزف على البيانو؟"

" كلا يا سيدتي."

" انهضي إذاً!"

نهضت مالا على قدميها، وعدلت وضع طرف الساري فوق رأسها ممسكة به إلى صدرها، وللمرة الأولى منذ وصولها أحسست بالشفقة عليها. تذكرت أيامي الأولى في لندن، أثناء تعلمي ركوب

قطار الأنفاق إلى ميدان راسل، وركوب السلالم المتحركة للمرة الأولى، وغيرقادر على فهم أن بائع الصحف عندما كان ينادي Piper فإنما هو يعني Paper، غير قادر كذلك لمدة عام كامل على تحليل معنى أن يقول المحصل "حذار من الفجوة" في كل مرة يغادر فيها القطار كل محطة. فمثلي، سافرت مالا بعيدا عن الوطن، لا تعرف المكان الذي تذهب إليه، أو ماذا ستجد فيه، دون سبب سوى كونها زوجتي. وبالغرابة نفسها، كنت أعرف في قرارة نفسي أن موتها ذات يوم سيكون له تأثير علي، بل الأغرب من ذلك، أن موتي سيؤثر فيها كذلك. بشكل ما أردت أن أشرح هذا للسيدة كروفت، التي ما تزال تتفحص مالا من قمة رأسها إلى أخمص قدمها بما بدا أنه نظرة ترفّع هادئة. تساءلت إن رأت السيدة كروفت من قبل امرأة ترتدي الساري، بعلامة حمراء فوق جبينها، وصفوف من الأساور حول معصميها. كما تساءلت ما الذي تعترض عليه، وإن كانت ترى الصبغة الحمراء ما تزال براقة في قدمي مالا، تعيق رؤيتها الحاشية السفلية لساريها. أخير أعلنت السيدة كروفت بالقدر نفسه من الابتهاج والإنكار اللذان أعرفها جيدا:

" إنها سيدة بحق!"

هذه المرة أنا من ضحك. فعلت ذلك في صمت، ولم تسمعني السيدة

كروفت. لكن مالا سمعتني، وللمرة الأولى نظرنا إلى بعضنا وتبسمنا.

أحب أن أتذكر تلك اللحظة في ردهة السيدة كروفت بأنها اللحظة التي بدأت تقل فيها المسافة بيني وبين مالا. وبالرغم من أننا لسنا واقعين في الحب، لكنني أحب النظر إلى الشهور التي تلت ذلك باعتبارها شكلا ما من شهر العسل. فقد استكشفنا المدينة معا، وقابلنا بنغاليين غيرنا، بعضهم ما يزال صديقا لنا حتى اليوم. اكتشفنا رجلا يدعى بيل، يبيع الأسماك الطازجة في شارع بروسبيكت، ومتجرا في ميدان هارفارد يدعى كاردوللو يبيعُ أوراق الغار والقرنفل. في الأماسي كنا نتمشى نحو نهر تشارلز لمشاهدة القوارب الشراعية تتهادي عبر الماء، أو نتناول أقماع البوظة في فناء هارفارد. ابتعنا صوارة فورية لكي نوثق بها حياتنا معا، والتقطت لها مناظر تقف فيها أمام بناية برودنتال لكي ترسلها إلى أبويها. في الليل كنا نتبادل القبل، بخجل في البداية، ثم سرعان ما ترك الخجل مكانه للجرأة، واكتشفنا المتعة والسلوان في أحضان بعضنا. أخبرتها عن رحلتي على ظهر السفينة روما، وعن حديقة فينسبوري، ونُزل الشباب المسيحي، وعن أمسياتي على المقعد مع السيدة كروفت. عندما أخبرتها عن أمي بكت. مالا هي من واساني عندما كنت أطالع صحيفة الغلوب ذات مساء، وقرأت نعي السيدة كروفت. لم

تخطر لي على بال طوال شهور- حينذاك صارت أسابيع الصيف الستة فصلا بعيدا من ماضيّ- لكنني صُدمت عندما علمت بموتها، إلى الحد الذي عندما رفعت مالا نظرها من شغل الإبرة رأتني أحدق في الجدار، الصحيفة ترتمي مهملة في حجري، وغير قادر على الكلام. موت السيدة كروفت كان فاجعتي الأولى في أمريكا، وحياتها كانت الأولى التي أعجبتني. أخيرا غادرت هذا العالم، مسنة ووحيدة، ولن تعود أبدا.

أما بالنسبة لي فلم أذهب بعيدا. حيث أعيش الآن مع مالا في بلدة تبعد عشرين ميلا عن بوسطن، في شارع تحفه الأشجار مثل شارع السيدة كروفت، وفي بيت نملكه، له غرفة للضيوف وحديقة تغنينا عن شراء الطماطم في الصيف. نحن مواطنان أمريكيان الآن، ويمكننا الحصول على المعاش الضماني عندما يحين الوقت. بالرغم من أننا نزور كلكوتا كل بضع سنين، ونأتي من هناك بالمزيد من منامات التكة وشاي الدارجيلنغ، إلا أننا قررنا أن نشيخ هنا. أعمل الآن في مكتبة جامعة صغيرة، ولدينا ابن يدرس في جامعة هارفارد. ولم تعد مالا تضع طرف ساريها فوق رأسها، أو تنتحب في الليل لفراق والديها، لكنها أحيانا تنتحب من أجل ابننا؛ وعليه نقود السيارة إلى كامبريدج لرؤيته أو نحضره إلى البيت في إحدى عطل نهاية الأسبوع، لكي يأكل

معنا الأرز مستخدما يديه، ولكي يتحدث البنغالية، وهي الأشياء التي نخشى ألا يتمكن من القيام بها بعد موتنا.

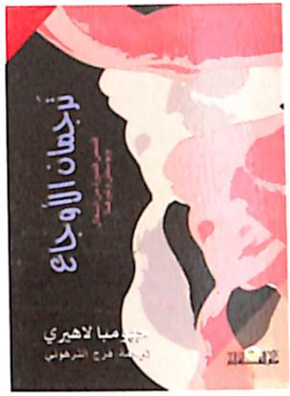
في كل مرة نذهب فيها إليه، كنت أصر على سلوك طريق ماساشوتس، بالرغم من زحمة المرور. بالكاد أتعرف على البنايات الآن، لكن في كل مرة أتواجد فيها هناك أعود على الفور إلى تلك الأسابيع الستة وكأن الأمر كان بالأمس. ثم أبطئ السير وأشير إلى شارع السيدة كروفت قائلا لابني، هنا كان بيتي الأول في أمريكا حين سكنت مع امرأة عمرها 103 أعوام. "هل تذكر؟" تقول مالا، وتبتسم متعجبة مثلي، على الوقت الذي كنا فيه غريبين عن بعضنا. دائما ما يبدي ابني اندهاشه، ليس حول عمر السيدة كروفت، ولكن حول مدى ضآلة الأجرة، وهي حقيقة تكاد تكون غير ممكنة بالنسبة له ، مثلما كان وجود علم فوق سطح القمر لامرأة ولدت عام 1866. أرى الآن في عيون ابني الطموح نفسه الذي دفعني في البداية للسفر عبر العالم. فخلال سنين قليلة سيتخرج ويشق طريقه بمفرده، وبدون حماية، لكنني أذكر نفسي بأن لديه أب مازال على قيد الحياة، وأم سعيدة تتمتع بقوة، وعندما يصاب بالإحباط، أقول له إن كان بإمكاني المقاومة في ثلاث قارات، فليس هناك عائق لا يمكنه التغلب عليه. وبينما قضي رواد الفضاء، وهم الأبطال على الدوام، مجرد ساعات

سطح القمر فقد بقيت في هذا العالم الجديد لما يقارب الثلاثين سنة. أعرف بأن إنجازاتي عادية، ولست الرجل الوحيد الذي يجرب حظه بعيدا عن موطنه، وبالتأكيد لست الأول. مع ذلك، فهناك أوقات ينتابني فيها الذهول حيال كل ميل قطعته، وكل وجبة تناولتها، وكل شخص عرفته، وكل غرفة نمت فيها. وبالقدر الذي تبدو في هذه الأمور عادية، هناك أوقات تصبح فيه فوق ما أتصوّر.

الــفــهــرس

العنوان	رقم الصفحة

تنفيذ الطباعة والتجهيزات الطباعية
دار قباء الحديثة
للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة
جمهورية مصر العربية
16 عمارات العبور - شارع صلاح سالم - مدينة نصر
تليفاكس 02/22621365 - محمول 0123140315
E-mail: modern_qubaa@hotmail.com



■ يقدّم مجلس الثقافة العام للقارئ الكريم مجموعةً من إصداراته الجديدة المتنوعة ، التي تتضمن أجناسًا أدبيةً وفنيةً ، تهدف إلى دعم الكتاب ونشر المعرفة وتنمية الذائقة الجمالية وإثراء الحركة الثقافية .. آمِلاً إسهامًا جادًا يضيف إلى الحراك الثقافي رصيدًا مميزًا وفضاءً جديدًا للمعرفة وللحياة.

مجلس الثقافة العام